فارلام شالاموف

القادم من الجحيم

«من الأدب المحظور»



ترجمة : د. منذر حلّوم

القادم من الجحيم

● ـ دار الحصاد للنشر والتوزيع
● ـ سورية ـ دمشق ـ برامكة
● ـ ص.ب: 4490 ها،فا: 2126326
● ـ حقوق الترجمة محفوظة
● ـ الطبعة الأولى 2001
● ـ موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
رقم 43028 تاريخ 30 - 9 - 1998

فارلام شـالامـوف

القادم من الجحيم

(من الأدب المحظور)

ترجمة د. منذر بدر حلوم

الى والديَّ

لم يخبرني أحد من سُكّان السماء

بأنكما ستموتان قبل الاوان

الى روحيكما

ثمرة من الارض

الى أن أراكما من جديد

منذر

فارلام شالاموف وقضايا الأدب المحظور

اعتقل فارلام شالاموف ابن القسيس الروسي أول مرة في 19 شباط (فبراير) من عام 1929، قبل أن يكمل الثانية والعشرين من عمره (ولد عام 1907)، وفي السجن تعرّف بغالينا إيغناتيفنا التي جاءت تزور زوجها المعتقل أيضاً، وتبادلا الرسائل فنشأت بينهما قصة حب، انتهت إلى انفصالها عن زوجها، وزواج شالاموف منها بعد خروجه الأول من السجن عام 1932، وأثمر هذا الزواج عام 1935 طفلة أسمياها لينا، ولينا هذه أنكرت أباها «حين كان التخلي عن الأهل دارجاً»(*) كمعظم أبناء جيلها الذين بقوا بلا آباء، حين اختفى الآباء في الليالي وصاروا أعداء للشعب. فيما بعد كتبت لينا في الاستمارات الرسمية أن أباها متوفى، ومن ثم حين أعيد له الاعتبار بعد سنوات طويلة أمضاها في المعتقلات، ورغب بلقائها قالت لمن هتف لها إنها لا تعرف أحداً بهذا الاسم.

لم تطل فترة وجود شالاموف خارج السجن، فما أن حل شتاء 1937 (سنة جائحة الاعتقالات في الاتحاد السوفيتي)(**) حتى جاء رجال الليل (في ليل 11 - 12 كانون الثاني) وأخذوه من جديد. وفي هذا العام بالذات نفيت زوجته غالينا

(*) فالارم شالاموف: من قصة الصليب.

(**) - في أعوام يجوف، أو أعوام «الإرهاب العظيم» - 1937 - 1938 قضي على 5 - 7 مليون إنسان، حكم منهم مليون شخص بالإعدام وأعدموا فورا، أما البقية فقلة قليلة منهم خرجوا من المعتقلات ومعسكرات الأشغال الشاقة أحياء. حسب المؤرخ روي ميدفيديف - إحصاءات تراجيدية. مجلة أدلة وحقائق العدد،5،1989 ص 5 - 6. بالروسية.

إلى تشاردجاو، وبقيت في منفاها حتى عام 1946، لتعود إلى موسكو مجردة من كل الحقوق بما في ذلك حق الإقامة.

أمضى شالاموف قرابة عقدين من الزمن في جحيم المعتقلات يصارع الزمهرير والتجويع والإنهاك والإذلال وكل ما يسحق إنسانية الإنسان، وعندما أعيد اعتباره مع كثيرين غيره من قبل خروشوف في حزيران 1956، اكتشف أنه لم يعد ممكنا له أن يعيش مع المرأة التي أحب، والتي عاش من أجلها كل هذه السنوات يقتات الرسائل التي حملت إليه الدفء في صقيع المعتقلات... فقد استسلمت للرعب الذي زرعه الطاغوت في قلبها، فحاولت من جهة إقناعه بالتخلي عن أهم ما في حياته (قصص من معتقلات الكاليما)، ولم تجرؤ على استقباله في البيت ولو ليلة واحدة بعد خروجه من المعتقل ووجوده في موسكو. لقد خافت خرق (نظام الإقامة)، وكان عليه أن يبحث عن مكان يبيت فيه حتى الصباح التالي، ليتجه إلى قرية أوزيركي في منطقة كالينين، ويقيم هناك وحيداً. ومن هناك كتب لها في 28 آب 1956 رسالة الانفصال. وفي تشرين الأول من العام ذاته عاد إلى موسكو، وتزوج من الكاتبة أولغا سيرغيفا نيكولودوفنا، وعاش معها في بيتها. «لكن انفصال فارلام عن غالينا لم يكن منطقياً في نظره، بل كان انهياراً لأغلى حلم»(*). وما أن أشتد عليه المرض في عام 1979 ـ كما تؤكد سيروتينسكا، التي كانت رفيقة آلامه وأحلامه طوال عشر سنوات (1966 ـ 1976) ـ حتى طالبها بإحضار غالينا: (أحضري لي غالينا، قولي لها: سنكتب معاً كتاباً، وسيكون ذلك عودة). بعد ذلك انتقل شالاموف إلى بيت العجزة، وهناك فقد بصره وسمعه وبالكاد تماسك جسده، وصار يحرك لسانه بصعوبة. وقد بات العالم يهتز به حتى وهو مستلق على السرير. وفي آخر صيف من عمره (صيف 1981) ذلك الصيف الذي حصل فيه على جائزة الحرية من نادي (پين) أملى آخر قصائده:

(*) من مخطوطة (ي. سيروتنيسكايا ـ مذكرات عن فارلام شالاموف) التي لم تكن بعدُ قد نشرت باللغة الروسية حين حصولي عليها عام 1989، ولست أدري إن نشرت بعد ذلك، علماً بأن معظم المعلومات البيوغرافية المذكورة هنا مأخوذة من هذه المخطوطة ومن فيشيرا (سيرة ذاتية لشالاموف).

بتفاحة كأفعى التوراة
في الجنة أغوي حوائي
ففي قدري مكان واحد،
هُوَ لهـا
وإني إلى الأبد أختارها
فلتبق - تذكرني،
ولتحتفظ بسري معها.

وفي الخامس عشر من كانون الثاني 1982 خلعوه من جنته (بيت العجزة) ونقلوه إلى بيت عجزة آخر للأمراض النفسية والعصبية. بعد يومين من ذلك مات على أكف أناس غرباء، لم يفهموا، وربما لم يريدوا فهم ما قال وهو يحتضر.

* * *

حتى وقت ليس ببعيد لم يكن معظم القراء العرب، ولا حتى الروس يعرفون من الأدب الروسي - السوفيتي إلاّ الأدب الرسمي (الإيجابي) الممهور بخاتم مؤسسات الرقابة الأمنية. والآن حين صار بالإمكان تناول الإرث الأدبي لتلك المرحلة بحرية، كثرت الأعمال المنفعلة بواقع الانهيار والتغيير كنقيض فوضوي للإيديولوجيا القسرية التي وسمت الحياة العامة بكل جوانبها بما في ذلك الفنون والآداب، وطفت على السطح أعمال أدبية كثيرة وظّفت لتبرير الواقع السياسي الرسمي الراهن. لكنها لا تتعدى حالة الموجات السياسية التي تنتهي غالباً بأخرى، وفي كل الأحوال، ينتهي معها الأدب الناطق بلسانها. وأمّا الذي يبقى فهو الأعمال الأصيلة التي تتناول بالتحليل العميق، التجارب البشرية الكبيرة والصغيرة للإفادة منها، وكذلك الأعمال الابداعية الأصيلة التي تؤرخ بمصداقية أكبر، ربما، من كتب التاريخ للواقع السياسي الاجتماعي. ولا أظن أحداً يعترض إذا قلنا إنه سيكون على الإنسانية أن تتناول بالدراسة والتحليل تجربة الاتحاد السوفيتي سنواتٍ طويلة قادمة كمنظومة قيم معبر عنها في الآداب والفنون على الأقل.

من الأعمال الابداعية الأصيلة التي تأتي من صميم قيعان الواقعية الاشتراكية أعمال الشاعر والكاتب فارلام شالاموف. فمن هو فارلام شالاموف؟ هل هو

استثناء نريد من خلال تسليط الضوء على أعماله عرض صورة سوداء عن ذلك الزمن؟ أم أن لفارلام شالاموف خصوصية تجعلنا نتوقف عنده؟

إن خصوصية فارلام شالاموف تكمن في شموليته، في كونه واحداً من ملايين تربع الطاغية على أرواحهم فقضوا تحت وطأة جلالته. وهو ليس فقط واحداً من الكثرة العامة الواقعة تحت فعل الاضطهاد، بل هو واحد من الكثرة العارفة التي قتلت لأنها تحس وتفكر وتعرف. يحاول مورافيوف الإجابة عن تساؤل عن عدد الشعراء في المعتقلات فيقول: «يبدو أننا لن نعرف هذا العدد في يوم من الأيام حتى لو فتحت أمامنا أبواب الأرشيف، فلم تكن تجمع مثل هذه الإحصائيات في المعتقلات. أما إحصائيات لجنة الإرث الأدبي الرسمية فتقول إن عدد المعتقلين من الكتّاب في ذلك الوقت وصل إلى ألفي شخص، علماً بأن عدد المنتسبين إلى اتحاد الكتاب عام 1934 كان 2500 كاتباً، وبلغ هذا العدد في عام 1941 ثلاثة آلاف كاتباً، ووصل في عام 1954 إلى ثلاثة آلاف وستمائة وخمسة وتسعين كاتباً. كان بين المعتقلين شعراء مشهورون أمثال: كليتشكوف، كلوييف، سيميلياكوف، مارطينوف، فاسيليف، كورنيلوف، زابولوتسكي، ماندلشتام، ناربوت، بريلودني، شيفتسوف، أووريشين، هيراسيموف، هارمس، كينيازوف... وكثيرون غيرهم...»(*) إضافة إلى آلاف الشعراء والكتاب من خارج اتحاد الكتّاب، والكثيرين من المشاهير الذين لم يذكرهم مورافيوف أمثال غوميليوف الأب زوج الشاعرة الكبيرة آنا أخماتوفا، وغوميليوف الابن، وليخاتشوف وآخرون كثيرون..

ونحن هنا لسنا بصدد استعراض حيوات هؤلاء، ولا بصدد دراسة تحليلية للواقع السياسي الاجتماعي للنظام الشيوعي السوفيتي إنما نفتتح سلسلة أدب السجون والمعتقلات بواحدة من أقسى التجارب البشرية وأكثرها تناقضاً، بتجربة قدمت إضافات كثيرة لتاريخ التعسف الإنساني.

* * *

(*) - فلاديمير مورافيوف. نحن أجراس جديدة. الجريدة الأدبية. ع 27 (5249)،، 1989 ص 5 بالروسية.

إن فتح ملف أدب السجون والمعتقلات يثير من الأسئلة الإشكالية ما لا يتسع المجال في هذه المقدمة للخوض فيه.

لكن مروراً سريعاً لا بدّ منه، يقول بخصوصيات تَسِمُ هذا الأدب دون سواه، تكون بمثابة إشكاليات إن لم يتم التوقف عندها وتؤخذ بعين الاعتبار.

تأتي الإشكاليات من خصوصية فعل الاضطهاد (الزمانية والمكانية) ومن عموميته الإنسانية. ولن نتوقف طويلاً عند الخصوصيات الزمانية والمكانية للّهم المطروح لأن ذلك سيجعل من عذابات الناس وموتهم قضية سياسية (أو قضية أخطاء سياسية كما يميل بعضهم إلى تصنيفها) وهذا بحد ذاته اضطهاد لا نرتضيه، إنما سنقف عند العمومية الإنسانية لفعل القمع والاضطهاد ولنتائجه (رغم كل الخصوصية التي تعبق بها ـ كما سنرى ـ قصص شالاموف الحاملة للهم الإنساني ولتجربة صاحبها).

جملة من الأسئلة تتدافع عند مخارج الذهن لتحتل مكانها على الورق وكلها تملك الحق بالحياة، أي تملك الحق بإجابات (أما البحث عن أجوبة فمسئولية فردية ذاتية لا يحملها أحد عن الآخر رغم كل ما تقول به الأحزاب). من هذه الأسئلة: هل يمكن تحويل عواطف الإنسان، وآماله، وأحلامه، وقهره، وعذابه، واحتضاره إلى أرقام؟ إذا كان ذلك ممكناً كما يعتقد بعض الاقتصاديين فهل للرقم هنا قيمة أكثر من قيمة شاهدة القبر التي تختصر الحياة برقمين يقمعان كل ما بينهما؟

قد يكون صحيحاً إلى حد بعيد أن «الأنظمة المجرمة لم يشكلها مجرمون، وإنما شكلها متحمسون مقتنعون بأنهم اكتشفوا الطريق الأوحد إلى الجنة. وأخذوا يدافعون بيقظة عن هذا الطريق معدمين من أجل ذلك كثيراً من الناس»[*] ولكن هل على الإنسانية أن تدفع أرواح الملايين من أبنائها كل مرّة لتثبت جنون البعض، وتشبع حماس البعض الآخر؟ وهل يجوز تجريب العقائد والإيديولوجيات على حياة الإنسان كما تجرب الكيمياء على حياة الفئران؟ إذا كان لاحول للفأر أمام الإنسان، فما بال الإنسان أمام الإنسان الآخر؟ أم أن الإنسان يُفأرَن حتى يصبح

(*) ـ ميلان كونديرا. خفة الكائن التي لا تحتمل. رواية، ترجمة د. عفيف دمشقية. دار الآداب، 386 ص. ص 206.

قابلاً للاستعمال؟ وهل يجوز إلغاء الحياة تحت راية خلق الحياة؟ ولماذا يضع السياسيون والاقتصاديون (حياة) الإنسان دائماً مقابل (اللاحياة)؟ (الحياة) المبرر إلغاؤها سياسياً واقتصادياً في كَفَّةٍ، وكتل الإسمنت، والحديد، والنفط، والقنابل، والصواريخ، والطائرات (أي المنجزات المادية) في الكفة الأخرى؟

إذا كان لابد من وجود ضحايا كما يعتقدون لتحقيق (المنجزات) فلماذا الآخر هو الضحية دوماً؟ وما هي مشروعية قتل (الآخر) تحت شعار بناء نظام ديمقراطي يحمي هذا (الآخر) بالذات؟ أوَليست التضحية فعلاً اختيارياً، وكل تضحية عدا ذلك جريمة مهما زينت بالإيديولوجيات والأهداف السامية النبيلة؟ أم هل يجوز نسف الحياة من أجل تصور ضبابي قاصر عن حياة أخرى (لآخرين)؟ وهل القصور والضبابية في المعرفة والفهم يلغي مسؤولية الارتكاب؟ «أيكون المرء بريئاً لأنه لا يعرف؟»(*) إن الأرقام الكبيرة موضع اهتمام الساسة والإعلاميين والرعاع، أما التفصيلات والدقائق فموضع اهتمام الكتّاب والشعراء. عندما يموت جملة أشـخاص تختزل حيواتهم وموتهم إلى رقم واحد يعبر فيه عن حياة وموت الجماعة، أما مابين حياة وموت كل فرد في هذه الجماعة فلايغري الساسة ولا الإعلاميين، ولا المؤرخين.

ما يحلم الشخص بتحقيقه قبل أن يموت، ما يخطر بباله عندما يأتيه الموت، ما يصير إليه عندما يجوع جداً، ويبرد جداً، ويتألم جداً... ما يشد الإنسان إلى الحياة عندما يغدو الموت خلاصاً من عذاب رهيب، ما يبقي الإنسان إنساناً عندما يغدو التوحش ضرورة للبقاء، ما يجعل واحداً ما أميناً مخلصاً عندما يغدر الآخرون ويتسافلون.. دقائق كل هذه الأشياء ليست مجال بحث لا الفلسفة، ولا السياسة، ولا الاقتصاد، ولا الإعلام.. إنها مجال بحث الأدب وحده.

هل يقلل وجود مئات الجائعين حولك من رغبتك بالطعام إذا كنت جائعاً جداً؟ وهل يقلل من إحساسك بالزمهرير وجود عشرات من تصطك أسنانهم قربك؟ وهل تلغي خصوصية تعاملك مع لحظة الموت أعداد المحتضرين بجوارك؟...

هذه المحطات الخاصة، الأدب وحده يستطيع رصدها والغوص في شعابها، ومن هنا تأتي القراءة في أدب السجون والمعتقلات ليس فقط رغبة بالتضامن

(*) ـ ميلان كونديرا. مصدر سابق. ص 207.

الإنساني مع مصائر البشر المسحوقين كالديدان وراء الأسلاك الشائكة والقضبان، بل وتلبية لحاجة معرفية لا يقدمها أي عالم آخر، حاجة إلى معرفة دقائق السلوك البشري في عالم أشد شذوذاً من كل العوالم التي تضحكنا جداً وتبكينا جداً.

فارلام شالاموف كان واحداً ممن حُشروا في ذلك العالم حيث ينسلخ الإنسان الذي لا يستطيع الموت إلى كائن بري متوحش، حين تهجره آماله، وأحلامه، ودمه، وتبقى غريزة رفض الموت الشيء الوحيد الذي يربطه بالحياة، ثم يأتي وقت لا تجد فيه هذه الغريزة مكاناً في الجسد المستنزف تعيش فيه فتكتنهف شقوق جدران المعتقلات لتُعّلم القادمين الجدد إلى مصنع الموت دروس التمسك بالحياة. فارلام شالاموف القادم من الجحيم أنتج أدباً يخلو من الحقد رغم كل فظاعة ظروف الحياة التي عاشها ووحشيتها. فلِمَ أراد ذلك وكيف استطاعه؟

* * *

الأدب الذي يبعث على الحقد والخوف يخدم الطغاة وأنظمتهم التعسفية حتى وإن هاجمهم وفضح آليات القمع لديهم كما يفعل جورج أورويل في روايته (ألف وتسعمئه وأربعة وثمانون) التي تعري في الظاهر الآلية القمعية للنظام المخابراتي، بينما هي تجرد بالتوازي مع ذلك قارئها من إيمانه بقدراته الذاتية على المواجهة والرفض، وتشعره بلا جدوى محاولاته للتخلص من أنياب ماكينة القمع، وتصر على إيهامه بعجزه كفرد وكجماعة أمام سطوة الواقع، وتزرع اليأس، مؤكدة الغياب الكامل للأحرار، والهيمنة المطلقة لإخطبوط المؤسسة الأمنية على كل شهيق أو زفير يمارسه أي إنسان في أي مكان. وبالنتيجة يزرع أورويل بنجاح حالة الرعب العميق في القارئ التي لا تنتج إلاّ العجز والاستسلام للطاغية الذي يقدمه أورويل كقدر محتوم لا مفر من الخضوع له. على عكس ذلك نجد الأدب الذي يعزز الإيمان بالقدرة على المقاومة والصمود في أحلك الظروف المترافقة مع أكثر حالات الإنسان ضعفاً، وهذا ما يفعله بنجاح فلاديمير بوكوفسكي(*) في رواية

(*) ـ فلاديمير بوكوفسكي (1942 ـ): واحد من أكثر نشطاء حركة الدفاع عن حقوق الإنسان في روسيا. اعتقل مرات عديدة وأمضى فترة طويلة من حياته في السجن. حكم عام 1972 بالسجن مدة سبع سنوات مع النفي اللاحق مدة خمس سنوات. تمت مبادلته في كانون الأول (ديسمبر) بالسكرتير الأول للحزب الشيوعي التشيلي لويس كورفالان.

(وتعود الريح) التي هي ضحكة ساخرة لكائن جبار هو الإنسان في وجه التعذيب والتجويع والقتل. رواية بوكوفسكي تدهش القارئ بضعف العذاب والموت أمام استهتار الإنسان بهما، وبهشاشة الأنظمة المخابراتية وارتباكها أمام العلنية فليس هناك من نظام مهما قبح يريد أن يبدو قبيحاً «فمن غير الممكن للشر أن يحقق أي انتصار، أو أية سطوة في العالم لو أنه ظهر بوجهه الحقيقي الشرير. الشر ينتصر بالخداع، بالتستر خلف قناع الخير. وهذا الخداع يعطي الإنسان إمكانية أن يبرر لنفسه الحقد، والقتل، والعبودية، والكذب، والبشاعة»(*).

الأدب المناصر للحرية يكسر القشرة التي تتجمل بها الأنظمة التعسفية لتبدو القيود على حقيقتها (كما يفعل بوكوفسكي، وسولجنيتسن، وشالاموف) دون أن يحمل هذه القيود ويحمّلها للقارئ كما يفعل أورويل. فلا يجب أن ننسى أنّ المقصود من السجن «ليس تخويف المعتقلين، بل أولئك الذين بقوا في الخارج، أي تخويف المجتمع. وبالتالي كلما أرعب المجتمع نفسه أكثر، كلما عذّب المعتقل أكثر»(**).

إخراج المجتمع من حالة الرعب وإعادته إلى المعتقلين الذين فر منهم بوضعهم في السجن، أيضاً واحدة من وظائف الأدب «حتى لا يتذمر المجتمع عندما يبدأ المعتقل يتلعثم بحقوق ما، أو يتحدث عن الكرامة الإنسانية»(***) فعلى العكس مما تطرحه نظريات التغيير الثوري (التعسفي) من تحرير الكل (المجتمع) حتى يتحرر الجزء (الفرد)، يقول الأدب بتحرير الفرد أولاً حتى يتحرر المجتمع، وإلا تكون الحرية حالة قسرية مرهونة براسمي حدودها (السياسيين). والحرية الحقيقية حالة وعي يساهم الأدب مساهمة جلّى في إنضاجها، أما الحرّيات التي يؤذن بممارستها بأوامر فهي تأكيد على حالة اللاحرية. ولكن صناعة مثل هذا الأدب مهمة الأحرار لا العبيد فلايمكن لأديب عبد أن ينتج أدباً يخدم الحرية، كما لا يمكن لأديب حر

(*) ـ الكسندر شيمان (1921 ـ 1983): مناقشات الآحاد. موسكو، 246 1993 ص. ص55. بالروسية.

(**) ـ فلاديمير بوكوفسكي: «وتعود الريح...» ـ يوميات رحالة روسي. موسكو، 464 1990 ص. ص24. بالروسية.

(***) ـ المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.

أن ينتج أدباً يخدم العبودية. ونعود هنا لنؤكد مقولتنا: لا الحقد ينتج ديمقراطية، ولا الخوف ينتج حريّة. وقد وُفِّقَ شالاموف بتحقيق المعادلة الصعبة: الوجود في قلب النار والحديث عن جحيمها دون أن يزرع فينا الحقد على مضرميها ومؤججيها ولا الخوف من لظاها. وجاءَت كتاباته باردة من قلب الجحيم، ثقيلة ترسو في أعماق روح القارئ لتتدفأ هناك، وتُذكّر بنفسها مع كل خطوة يكون على حاملها أن يختار فيها بين الحرية والعبودية، بين الكرامة الإنسانية والمَهانة، بين الظلم والعدل، بين القسوة والرحمة، بين أن يرى في الآخرين ذاته أو يرى ذاته بلا آخرين.

حالة اللاحقد تلك لا تأتي من قدرة شالاموف على التسامح والتنازل عن ثمن عذاباته لجلاديه، بل من المعرفة العميقة بطبيعة القهر الذي يتعرض له وبالعمق الكوني المأساوي للشر، وبوحدته وشموليته. فهو عندما يتحدث مثلاً عن غصن الشربين في قصة (انبعاث الشربين) ينقلنا إلى التوأم البشري لهذه الشربينة الذي هو نتاليا دولغوروكوفا، ولكي لانغرق في خصوصية الحالة الستالينية لبيريزوف يأخذنا إلى بيريزوف المدمن على الدم البشري، مضيئاً لنا محطة من محطات التعسف القيصري (إرهاب القيصرة آنّا إيوانوفنا)، ولا يأتي ذلك كحالة خاصة يجب التوقف عندها، بل كوحدة بناء زمانية ـ مكانية في منظومة الشر لها سابقاتها ولاحقاتها؛ كذلك ينقلنا شالاموف إلى وجه آخر من وجوه التعسف الدموي من خلال كأس الشاي بيد البروفيسور أومانسكي (قصة ويسماني) ليعرض لنا من خلال كلمة السر (كأس من المذهب القديم) شريطاً طويلاً من الفجائع الوحشية التي تمّت باسم الدين في تاريخ روسيا، والتي حصدت أرواح مئات آلاف البشر على مدى مئات السنوات؛ ومن خلال الحديث عن فيجنر وماروزوف في قصة (الشيخ التتري والهواء النقي) التي تستحضر (مذكرات من بيت الموتى) لديستويفسكي، وتذكّرنا بمصير مؤلفها الذي حكم عليه بالاعدام ورفع عنه الحكم قبل خمس دقائق فقط من تنفيذه وهو يقف بانتظار الرصاصة، يعيدنا شالاموف إلى سلسلة الشر بحلقاتها المتعاضدة. ومع أن المقارنة معقودة هنا لصالح زمن ديستويفيسكي وزمن القيصر نيقولاي الأول (1825 ـ 1855 م) من جهة آليات التعذيب وعدد الواقعين تحته، إنما الشر الأصغر ليس خيراً بأي حال من الأحوال كما يؤكد شالاموف في (فيشيرا) عندما يحاكم «الفهم الخاص للشر الأصغر»، بل

الوحشية في سلوك الإنسان الذي ينصّب نفسه مالكاً لمصائر الآخرين وأرواحهم «الإنسان الذي يملك السلطة ويشعر بأنه جبار»(*) وحتى لايبدو الشر روسياً فقط يستحضر شالاموف الامبراطور الروماني السفاح كاليغولا، وهو لم يفعل ذلك ليشبّه أرداتيف السكير بكاليغولا، ولا ليتحدث عن وحشية القمع الذي يطال الحيوانات أيضاً، بل ليؤكد لنا حضور ضحايا القرن الأول الميلادي معه في معسكر الاعتقال ووجوده هو معهم تحت سيف كاليغولا، وهذا يجنبنا مطب تضخيم أهمية الزمان والمكان في هذه القضية الإنسانية العامة تضخيماً يعبر عن قصور في الرؤيا، لا يريده شالاموف لنفسه ولقارئه، لذلك نجده يضعنا إلى جانب الخصوصية المحلية للأحداث أمام عمومية الشر ووحدته، الأمر الذي يؤكده أيضاً من خلال ذكر (قصة حجر صحي) التي تستحضر الدكتاتور الروماني غايوس يوليوس قيصر ومعه مئات آلاف القتلى في رحلة من القرن الأول قبل الميلاد إلى مستودعات الأرواح البشرية في معسكر الترانزيت (معسكر الحجر الصحي).

إذن فشالاموف من خلال إشعال فانوس صغير في كل قصة يضيء لنا محطة هامة من تاريخ استعباد الإنسان وقهره. وهو يفعل ذلك لا لتأكيد تفوق العبودية العصرية على سابقاتها، ولا لتبرير الواقع الراهن كحالة مستمرة في التاريخ البشري والاستسلام له، بل في محاولة لفهم طبيعة الشر دون الوقوع في مطب الحقد «لا، أنا لم أكنّ الحقد ابداً بعد خروجي من معسكر الاعتقال، فلا يجوز الغضب من أن المطر يهطل والرعد يدوي لقد كان ذلك كله ظاهرة طبيعية»(**) هذا ماقاله ليخاتشوف وهذا ماأراد قوله شالاموف في قصصه. وعلى العكس من ليف رازغون، الذي ركّز الشر كله في شخصية الضابط تاراسوك (قصة المواطن القائد»(***) وحقد عليه حتى إنه عندما سمع بنبأ موته اشترى بآخر روبل لديه فودكا ليشرب نخب موته ويفرح، نجد شالاموف يتحدث عن ممثلي الدولة من

(*) ـ الاكاديمي ديمتري ليخاتشوف (من لقاء أجراه معه أندريه تشيرنوف) على صفحات أنباء موسكو، العدد 39 (1013) أيلول،1988 ص13.

(**) ـ لقاء مع ديمتري ليخاتشوف. مصدر سابق.

(***) ـ ليف رازغون. قصة (المواطن القائد)، الأسبوع، العدد 19 (1467)،،1988 ص16. بالروسية.

قادة معسكرات ومحققين بمختلف مراتبهم كقطع في ماكينة القمع تؤدي وظيفتها وتستهلك وتتلف ثم تستبدل بغيرها، وهو يرثي لحالهم وينعي موتهم: ففي قصة (خط) يُعدم المحقق ويبقى المعتقل كريست حياً فينعي شالاموف موت رفاق كريست وينعي موت المحقق معه، وتبقى حياة كريست رهن الصدفة؛ وفي قصة (مؤامرة الحقوقيين) يُعتقل النقيب ريروف ويُطلق سراح المعتقلين؛ وفي (فيشيرا) يُعدم الرائد تشيرتوك بعد أن يكافأ على مكافحته المعارضة، ويُعدم أيضاً بوبوف مدير سجن بوتيرسكي.. وشالاموف عندما يذكر موت هؤلاء لايذكره بلغة التشفي والشماته، بل يأتي حديثه بسيطاً في سياق الحزن العميق البارد على عذاب جميع الضحايا وموتهم، واندهاله أمام الضلال العظيم الذي يعمي العيون عن رؤية الحقيقة، وأمام سطوة الخوف التي تحوّل الإنسان إلى كائن يُرثى لحاله وإن توحش وافترس.

وهكذا فإن شالاموف من خلال تأكيده على وحدة الشر وشموليته الزمانية والمكانية، ووحدة أدواته ومواضع تأثيره، ووحدة ضحاياه على اختلاف أعراقهم وعقائدهم وأزمانهم يأخذ بيدنا نحو فهم فلسفي شمولي يرقى بنا فوق خصوصية الوضع الراهن سعياً نحو معرفة الحقيقة الأم للشر والخير، ليكون الاختيار على مستوى الذات بين الوقوف ضد الشر كائنة ماكانت طبيعته وأقنعته وزمانه ومكانه على الأقل بالامتناع عن ممارسته، أو الارتباط بسلسلته لتستمر بنا وتطال الآتين بعدنا. أمّا الاختيار بين المشاركة في الأعمال الشريرة أو الامتناع عنها ومعارضتها فيكون ثمرة عمل يومي يعي كل خطوة يقوم بها وأدب شالاموف يسعى لأن يكون وقوفنا في صف المناهضين للاضطهاد والقمع مؤدياً بذلك وظيفة تربوية أخلاقية.

* * *

إضافة إلى الوظيفة الأخلاقية التربوية التي تؤديها قصص شالاموف، فإنها تؤدي وظيفة توثيقية تأريخية فهي تؤرخ لجوانب في القاع لا تشغل بال المؤرخين المشتغلين بأضواء السطوح. يؤرخ فارلام شالاموف في كتابه (فيسشيرا) لنمو القمع السوفييتي في أطواره المختلفة (الطفولة والشباب والنضج)، ويؤرخ في قصصه

لحيوات الملايين الذين كانوا معه في الجحيم باختزال مأساوي: حلم بالشبع، بالتدفوء، بالنوم، بسكوت ولو قصير الأمد للآلام المبرحة التي تنهش الجسد،... وتأتي القهقهة الساخرة للموت الذي لا يسمح بتحقيق حتى آخر الرغبات الإنسانية البسيطة، وحتى في الحالات التي يختزل فيها الحلم إلى رغبة بالموت بين أناس عاديين ينظرون ولو بقليل من الاهتمام إلى عيني المحتضر، يأتي الموت حيث الجسد قطعة تلقى على مزابل الجثث المكّومة على تخوم مزرعة الجلاّد، وتأتي أسباب الموت بصقة في وجه الراغبين بالحياة الذليلة.

* * *

«لم ير شالاموف إلا قصائده منشورة وهو حي، بينما نشرت قصصه بعد موته، باستثناء (قصص كاليمية) التي نشرت خارج البلاد، وسببت له من المتاعب، أكثر مما سببت من السعادة(*). قصص شالاموف أقرب ما تكون إلى صور وثائقية خام (بلا رتوش) مأخوذة من جحيم المعتقلات» كل قصة من قصصي صفعة للستالينية، وهي ككل صفعة تملك قوانينَ من طبيعة عضلية [...] الصفعة يجب أن تكون قصيرة، رنانة [...] لكل قصة من قصصي مصداقية مطلقة، إنها مصداقية الوثيقة»(**). وقد قدم شالاموف من هذه الوثائق ـ الصفعات الكثير (نشر بعضها في مجموعات: قصص كاليمية، انبعاث الشربين، فيشيرا،...).

هنا، لا بد من الوقوف عند مفهوم الصورة الوثائقية الخام (الموضوع) وطريقة إظهارها (الأسلوب) فنحن نلاحظ أن الشكل الفني للصور المأخوذة جاء أيضاً بحالته الخام وهذا يعود إلى جملة من الأسباب منها: تبعية أداة التعبير للمعبَّر عنه؛ الحرص على عدم تشويه البشاعة بجماليات الأسلوب، فجمال البشاعة في بشاعتها؛ تضاؤل الشخصيات إلى نويات بشرية تشعر بالجوع والبرد وعذاب الموت... وما يقابل ذلك عند الجلاد جعل التعبيرعنها ينكمش ويتكثف إلى حالة تجريدية تبدو كأنها بدئية متروكة في ذهن القارىء الذي يبعث النسغ فيها لتتمظهر بأشكالها الحية.

(*) ـ أوليغ فولكوف: مقدمة فيشيرا. ص، بالروسية

(**) ـ من مخطوطة (ي. سيروتينسكايا ـ مذكرات عن شالاموف) مصدر سابق.

إضافة إلى المبررات الفنية لتقديم الصورة الخام (الموضوع) بشكل فني خام فإن هناك مبررات نفسية للمعبِّر لاتقل أهمية عن سابقاتها وأهمها أن الكاتب قبل كل شيء معتقل يقدم الأشياء التي لا نملك إلا تصوراً بسيطاً عنها، يقدمها باليد ذاتها التي لا تنبسط أصابعها، والذهن ذاته الذي تعوّد الصمت الصارم كضرورة من ضرورات البقاء، وقواعد السلوك ذاتها التي تقتضي الاسراع في إنجاز الأشياء الخاصة في المعتقل حيث ينعدم الزمن الخاص (والخاص عامة) والكتابة كما نعلم فعل شديد الخصوصية.

وإن جاءت كتابة القصص خارج المعتقل الصغير (معسكر الاعتقال) فإنها تمت في المعتقل الكبير (الوطن) الذي صار يعيش وفقاً لقواعد المعتقل الصغير ذاتها، وهنا تبدو حالات السرد التقريري في بعض القصص مبررة (فما أشبهها بسرد الوقائع السياسية والتعليق عليها في زاوية مطبخ روسي مغلق في ظروف كمّ الأفواه) لذلك نرى شالاموف يُضحّي أحياناً بجانب فني ما ليبوح ببعض مما تريد الروح.

هذا إضافة إلى اللغة الخاصة بعالم مملكة المعتقلات، التي وإن تشابهت مع لغة العالم الخارجي بالمفردات، إلا أن المفردات ذاتها تحمل أبعاداً تعبيرية أخرى هناك ومن هنا تنبع ضرورة الوقوف عند الحقل الدلالي المعتقلي، لكلمات بما في ذلك غير المعتقلية منها، والذي يجعل منها كلمات جديدة، يفقد النص في حال إعطائها دلالاتها الحياتية العادية دلالته العامة، وهذا الصعب أرجو ان اكون قد وفقت في تذليله مع الحفاظ على الخصوصيات البنائية الفنية التي ذكرتها والتي كان لابد من المرور على ذكرها قبل أن يجد القارىء نفسه أمام نصٍ غريب.

وبالفعل، فإذا نحن نظرنا إلى قصص شالاموف بمنظار النقد الأدبي تستوقفنا جملة سمات لو أخذناها كما تبدو لنا أول وهلة لأجحفنا بحق صاحبها وبحقها، فربما كانت مثل هذه القراءات تحتاج إلى تحضير مسبق على عدة مستويات فنحن عادة محكومون في قراءاتنا العادية ترانا محكومين بتصنيفات أدبية (أجناس) وبمسارات محددة لها، وأي نمط جديد يقع بين أيدينا يربكنا ويشوش فهمنا للنص المعروض (خارج الأجناس السائدة) وقد يلقى إعراضنا الذي نأسف عليه فيما بعد، حين نكتشف أنه كان ناجماً عن نقص في معارفنا وأحاسيسنا.

قصص شالاموف تقع بين القصة المحبوكة بطريقة كلاسيكية وبين النص

الشعري المنثور المفتوح، وبين الإخبارية الدرامية الصادمة (ذروة مقطوعة بلا بداية ولا نهاية) ومع ذلك فهي جميعاً تملك مقومات القصة، إنما الفرق هنا يقع بين التطور الخارجي للحدث عبر حركة الأشخاص الزمانية والمكانية، وبين التطور الداخلي له عبر الحركة (الصراعات) النفسية الداخلية، على أنها جميعاً قصص مكتملة رغم ما يبدو عليها من انقطاع. ولكن رؤيتها مكتملة تتطلب من المتلقي جهداً إضافياً أهمه الصياغة أو النسج الذاتي الداخلي للجزء المتروك من القصة، وهذا يتطلب مشاركة معرفية ووجدانية، ويتطلب كذلك معرفة باسقاطات الرموز المستعملة والقصص التي تنفتح بها على القصة الأم لتكملها، أو ستأتي مجزوءة، مغلقة، غير مكتملة لابنائياً ولا دلالياً، ويتطلب من جهة ثالثة التعامل مع بعض القصص كمقطوعات من قصة أم تشكيلها متروك للمتلقي.

إشكالية القطع هذه ناجمة عن عدة أسباب أهمها وحدة الموضوع، الوحدة الأساس، المتعارف عليه في القصة القصيرة: (الموضوع الواحد في زمن واحد في الذات المبدعة الواحدة). لكننا هنا نرى ما يناقض هذا الفهم: قصص متعددة في الزمن ذاته وبالموضوع نفسه تخرج من ذات واحدة. لذا يبدو مبرراً غياب المقدمات في بعض القصص فالمقدمات واحدة وهي واضحة ومعروفة جيداً، وهي مقدمات بعيدة الغور في التاريخ البشري عامة و التاريخ الروسي خاصة «انتظروا... تحت راية العلم والفن وحرية الفكر المضطهَدة ستسود عندنا في روسيا ضفادع وتماسيح لم تعرفها حتى أسبانيا في زمن ديوان التفتيش. انتظروا وسترون! إن ضيق الأفق والادعاءات الكبيرة والغطرسة الخارقة والانعدام الكامل للضمير الاجتماعي والأدبي ستفعل فعلها»(*). لكن المقدمات العامة المشتركة (الاستراتيجية) لا تصلح للتكرار في كل قصة ولا يجوز التسليم بها كواقع نهائي على واقعيتها لأن ذلك يعني نهاية الصراع، أي نهاية الحياة، في حين هي فنّياً تشكل أساساً لوحدة الموضوع التي ذكرناها، لذلك تأتي مقدمات الأزمات الفردية (القصص مستقلة)

(*) ـ لقد أخضع الموروث الأدبي لما قبل الثورة للمقياس الإيديولوجي وللرقابة الأمنية قبل إعادة طباعته. ومن المقاطع التي حذفتها الرقابة من الأعمال الكاملة لتشيخوف (1860 ـ 1904) المقطع المذكور المأخوذ عن فلاديمير لاكشين. مقالة «آداب سلوك تشيخوف». أبناء موسكو، ع7، 1990، ص16.

تأكيداً لحالة عدم التسليم، وعدم التصديق، وعدم القبول وبذلك تأتي غالباً مكثفة تعتمد أسلوب الواقعة الصادمة. كذلك يبدو غياب ذروة الأزمة (العقدة) مبرراً في قصص أخرى تظهر فيها النهايات الفاجعة المفاجئة، فالقدر الشخصي عندما يغدو بالمعنى المباشر جزءاً من قدر عام، يطغى الهم العام فيه على الشخصي، الذي يغدو (فنياً أيضاً) جزءاً منه. الهم العام هنا تعالجه مجموعة القصص مجتمعةً، بينما تعالج الهم الشخصي المنسوب إليه قصص مفردة، وبالتالي ما يختفي في الجزء يظهر في الكل. كذلك نرى غياب النهايات (الحلول) مبرراً في قصص ثالثة، ذلك أن الفاجعة وقعت وانتهت بمجرد دخول الشخص هذا العالم، وأهمية الحلول على مستوى شخصيات كل قصة نسبية للغاية، فما هي رغم تنوعها إلاّ تأكيد على حالة القهر والعجز. النهاية غير المكتوبة نهاية حيوات تجري خارج قوانين الألواح المحفوظة والدساتير، نهاية بحاجة إلى ألواح جديدة يأتي بها أنبياء جدد لتكتب عليها. إنما تأتي النهاية فنياً حصيلة إجمالية للقصص مجتمعة، فقد تستند قصة على أخرى لتكتمل فيها وبها، وهذا مايلاحظ بوضوح في قصص شالاموف.

الحالات الثلاث المذكورة تؤكد ليس فقط الوحدة الموضوعاتية، بل والبنائية، الأمر الذي يجعل قصص مجتمعة شالاموف أشبه برواية مجزأة إلى فصول، كل فصل منها قصة مكتملة تعبيرياً، لكنها لا تكتمل فنياً ولا دلالياً إلاّ بالقصص (الفصول) الأخرى. ثمة في قصص شالاموف نقاط عدة تدعم هذا الزعم منها إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه عن وحدة الموضوع: وحدة الزمان (الزمن الستاليني والستالينية هنا تُكسِبُ الزمن سيرورة خاصة تميزه عن الزمن العام. الخصوصية هنا تجعل الزمن يستوعب وحدات زمنية منفصلة خاصة بزمن القياصرة الروس والأباطرة الرومان قابلة للالتحام بالزمن الستاليني لقابليتها للتجسد فيه مكانياً)، وحدة المكان (أرخبيل المعتقلات في الكاليما)؛ اضمحلال الشخصي والخصوصية الفردية وبروز العام الذي يسمح بتحريك الشخصيات واستبدالها دون أن يتأثر الموضوع كبير تأثر (قد يكفي لتحويل قصص شالاموف إلى رواية واحدة استبدال بعض الأسماء بأخرى، فخط الأحداث المباشر المحلي يعبر جميع الشخصيات الموجودة معاً في المكان والزمان ذاته وهذ لاينفي أن الخط العام غير المباشر يطال المحبوسين خارج الأسلاك الشائكة بغض النظر عن الزمان والمكان)؛ وحدة التعبير

فالإنسان مثلاً على مدى جميع القصص: بضاعة حيّة، خبث منجمي، ممثل أموات، فتيل محتضر، مخلفات إنتاج، منهك، مستنزف، بقايا آدمية، مخلفات بشرية، مخلفات كاليمية، هيكل عظمي؛ وحدة الحمل فالسرد والخطاب السياسي المباشر يبدو ثقيلاً على مستوى القصة الواحدة، لكنّه يبدو عادياً على مستوى الكل الروائي إذ تنتقل الحالة من الخطاب السياسي المباشر، الذي يبدو غريباً فنياً على جسم القصة إلى خلفية اجتماعية سياسية (عند تجميعه) لا غنى عنها لشبكة القص الروائي.

إذن حتى لا نظلم قصص شالاموف التي تعرضت وصاحبها للظلم قد يكون من الأصح التعامل معها كنسيج كلي لعمل واحد نحوّله بقراءتنا إلى رواية يمكن أن نطلق على أي من أبطالها اسم شالاموف، ويمكن أن نسميها بجحيم المعتقلات أو بـ شهادات ضحيّة موّتها الجلاّد ولم تمت، أو (القادم من الجحيم).

بغض النظر عن الشمولية الإنسانية للقيم التي يطرحها شالاموف فإن قصصه تضج بالخصوصية المحلية لأدق التفاصيل في حيوات أشخاصها. قصص شالاموف شهادات ضحية موّتها الجلاد عشرين عاماً ولم تمت. التجويع، والجلد، والبرد والعمل المنهك، والإذلال، والقتل... أوراق موقعة باسم شالاموف، تلهو بها الريح المغبرة على مهب الموت، لتصفع وجوه الباقين على ذمة العبودية والصمت، الموقعين على صك خلود الجلاد من أجل حفنة عيش مهين.

* * *

الموت في مملكة الشر ضيف دائم في حضرة الطاغوت يتفانى الجميع في خدمته، ويقدمون له ما يشاء من الأرواح. لكن الإنسان عندما يحتضر، وهو لا يدري لماذا يموت، يرتسم تساؤل طفولي في عينيه المفتوحتين إلى الأبد.. لا ذعر، ولا حقد، ولا حزن، بل سؤال تبقيه الروح في مقلتين تنظران إلى الله، وهي راحلة لا تدري إلى أين.

في قصص شالاموف أوراق رهيفة تستنجد بنا، حاضنة آلام البشر المحتضرين. في كل قصة من قصصه مصنع يحوّل الأنبياء إلى أشخاص يتعاركون

على اللقمة، والخرقة البالية، وإغماضة عين، وثانية دفء. ويحول الناس العاديين إلى خنازير تنبش ما حولها بحثاً عن أي شيء يبقيها حية. وبين هذا وذاك يموت الآلاف، كل يوم، وتلقى جثثهم على التخوم، بلا مبالاة إلا بأحذيتهم وأثمالهم التي قد تفيد الذين ما زالوا على قيد الحياة.

صحيح أن شالاموف لم يصبح نابليوناً، ولا شكسبيراً كما أراد «أنا ذلك الحذّاء، الذي خُلِقَ ليكون نابليوناً، كما عند مارك توين، كنت أستعد لأصبح شكسبيراً، لكن المعتقل حطم كل شيء(*)»، إلا أنه استطاع أن يلملم حطامه البشري ليقول مايستحق القراءة، ويوجب التفكير بصانعي تلك العوالم، «حيث من الممكن أن تظهر المشاعر الشريرة، الكامنة في الناس بصورها الأكثر قسوة وعرياً، ـ أن تتعرى أخلاقهم الذئبية، فالضوء الأخضر يفتح الطريق أمام أدنى رغبات الإنسان وأقذر مكوناته. فالإنسان إن لم يكن طيباً يصبح سادياً، والأناني يزداد حقده على جاره، الذي ينافسه في صراعه من أجل البقاء. ما يسحق الناس هنا ليس الحجز والعمل الإجباري فقط، بل ونذالة الظروف التي يرغم الإنسان على العيش فيها: الازدحام، القذارة، شح الطعام، العيش المشترك مع الأوباش والمجرمين... شروط الحياة (الخنزيرية) هذه قوضت في الناس مفهوم الكرامة الإنسانية، وأفرغت أرواحهم، وخلقت لديهم إحساساً بالنقص(**)». «من أسوأ الأشياء هو أن يحس المرء بفقدان شخصيته أن تحس، كأنهم ضغطوا على روحك بمكواة عظيمة، على كل ما فيها من طيات وتجعدات وزوايا خفية وتشكيلات، فباتت مسطحة مستوية كفيشة كرتون(***) إنما الروح التي تعتز بتفردها وحريتها تبقى عصية على مكواة الجلاد وهذا ما أكّده شالاموف منذ تجاوز عتبة بوابة الجحيم. «في الثالث عشر من نيسان من عام 1929 دخلت أول مرة بوابة المعتقل»(****). وعلى باب القبو حيث حشروا المعتقلين كان قد كتب «لقد احتضرنا في هذا القبر ثلاثة أيام متتالية ولم نمت، شدوا عزائمكم أيها

(*) ـ من مخطوطة سيروتينسكايا. مصدر سابق.

(**) ـ أوليغ فولكوف. مصدر سابق، ص 4.

(***) ـ فلاديمير بوكوفسكي. مصدر سابق، ص 16.

(****) ـ أوليغ فولكوف. مصدر سابق، ص 3.

الرفاق»(*). وقد شد شالاموف عزيمته فعلاً «ووجد في نفسه قوة ليصمد ويبقى إنساناً رغم الظروف التي تُقسّي الإنسان وتذله. لكنه دفع مقابل ذلك ثمناً غالياً. كان الثمن إيمانه بإمكانية انتصار الخير، وغربته عن الحياة(**). ورغم فداحة الثمن بقي لديه ما يورثنا إياه، فقد أورثنا إيماناً راسخاً بإمكانية الوقوف في وجه الشر مهما بلغ جبروته.

* * *

الوقوف في وجه الشر ضرورة لاستمرار الحياة. صحيح أن جدل الطبيعة لا يسمح بانتصار الخير على الشر انتصاراً نهائياً، لكنه لا يسمح في آن معاً بانتصار الشر على الخير انتصاراً مطلقاً. حتى على مستوى الذات الإنسانية عندما يحسم الصراع لصالح أحد الطرفين لا يعني ذلك زوال الطرف الآخر، بل ربما تراجعاً، أو انكفاءً مرهوناً بالزمن وبشروط واقع الحال. قد يكون أقصى ما يستطيعه الواحد منا هو أن يتماسك ويعمل على جعل ظروف الواقع غير مؤاتية لانتصار الشر، ولا حتى لسيادته وهو إذ يفعل ذلك يكون قد ناصر الخير، وأفسح أمام أنصاره مجالاً أوسع للحياة. أما وظيفة الأدب والفن في هذا الصراع فقد حاول سولجينيتسن(***) الذي خاض تجربة الاعتقال وكتب عن ذلك الكثير، أن يحيط بها في الخطبة التي أعدها لحفل تسلمه جائزة نوبل للآداب: «يسألوننا مالذي يستطيعه الأدب في مواجهة التعسف العلني الرهيب؟ يجب ألا ننسى أن الظلم لا يعيش وحده، بل لا يمكنه أن يعيش بمفرده، فهو مرتبط ارتباطاً مباشراً بالكذب، وبينهما أكثر علاقات القربى حميمية. إنهما من طبيعة واحدة. فالظلم لا يمكن أن يستتر إلا بالكذب، والكذب لا يمكن أن يعيش إلا بالقمع. كل من اختار الظلم طريقاً له سيكون الكذب مبدأه لامحالة [...].

من شأن إنسان بسيط جريء أن يخطو خطوة بسيطة، أن يرفض السير في

(*) ـ أوليغ فولكوف. مصدر سابق، ص 3.

(**) ـ أوليغ فولكوف. مصدر سابق، ص 6.

(***) ـ أنظر بحثنا «دراسة في فكر الكسندر سولجينيتسن» ـ مجلة المعرفة السورية آذار، 1995.

مسيرة النفاق، ألّا يُساند الأعمال الكاذبة! ليعم الكذب كل العالم وليسدْ كل الكون، ولكن ليس عبري أنا. أما الكتّاب والفنانون، فبإمكانهم فعل مايفوق ذلك، بإمكانهم الانتصار على النفاق! فبالصراع مع النفاق انتصر الفن، دائماً، وينتصر على الدوام!»(*). الظلم يلوث الحياة ويسممها، والحياة مادة الأدب والفن، ولا يمكن للأديب والفنان أن يتناولا مادة ملوثة ويصوغا منها أدباً أو فناً لاتبدو عليه آثار التلوث. الأدباء والفنانون كواشف فائقة الحساسية للتعسف الذي قد يمارس على أي من أشكال الحياة، والكاشف ليس مخيراً بالسكوت عما يلتقطه، فالبوح مظهر من مظاهر حياة الفن والأدب.

لم يكن ممكناً لفارلام شالاموف الشاعر والكاتب أن يتآلف مع العبودية بصفتها قبحاً، رغم سيادتها وجبروتها، فقد آمن بقدسية خصوصية كل إنسان وتفرده، وهذا ما قاده إلى الاختلاف والمعارضة والصراع وهو شاب صغير على مستوى أسرته، وهو شاب أكبر على مستوى وطنه. آمن بقوة الرفض، ومع أنه سخر فيما بعد من إيمانه هذا، إلا أنه بقي رافضاً حتى وهو يتأرجح في كيس عزرائيل. آمن بنصفه الإنساني المختلف، واندفع وراءه فقاده إلى الموت فأصغى إلى نصفه الحيواني العام ليبقى حياً. ومع ذلك انتظره (نصفه الإنساني) عند بوابة المعتقل تحت الجليد، آملاً باتحاده معه من جديد، وخرج شالاموف أخيراً بعد أكثر من عقدين من الزمن كائناً متوحشاً، لا يملك من إرادته إلا آلية جرجرة قدميه. ليعاني طويلاً قبل أن يتمكن من تدفئة روحه (التي جمدت وتقلصت أيضاً)(**) والاتحاد معها من جديد، مؤمناً إيمان المحتضر عشرين عاماً في العذاب، بأن الإنسان أشقى المخلوقات، وأقواها: «لقد بت أفهم أهم شيء وهو أن الإنسان صار إنساناً ليس لأنه مخلوق رباني [...] بل لأنه أكثر تحملاً من كل حيوانات العالم»(***)، فليس من قوة تستطيع إرغامك على قبول مالاتريد إذا كنت تعي

(*) ـ الكسندر سولجينيتسن. من خطبة نوبل في كتاب «كتّاب روس حاصلون على جائزة نوبل». موسكو، 349 1991 ص. ص61. بالروسية.

(**) ـ فارلام شالاموف. من قصة (النجارون).

(***) ـ فارلام شالاموف. من قصة (مطر).

إرادتك وتعتز بها وتدرك أن «لا البندقية، ولا الدبابة، ولا القنبلة الذرية تخلق السلطة، ولا السلطة تعتمد عليها. فالسلطة تأتي من الإذعان، من الموافقة على الخضوع، لذلك فكل من يمتنع عن الاستسلام للقمع يقلّص حجم القمع...»(*****). أما الامتناع عن الاستسلام للقمع، أي رفض الخنوع والإذعان، فيتطلب روحاً ترفض العبودية والعيش الذليل، وتمجد الحرية، وتؤمن بجمال الاختلاف عن الآخرين وأهميته، أهمية تجعل من التفرد معادلاً للحياة ذاتها، إن تنازل عنه الإنسان فقد حياته لتصير ملكاً لآخر يديرها كيف يشاء، وإن تمسك به، قد يفقد حياته أيضاً، لكنه يفقدها كريمة ولا يهبها، طائعاً لجلاده، ذليلة. والفرق كبير بين أن تمنح حياتك لطاغية يعيش بها، أو أن تقول (لا) تصير (نعم) لحقك بالحياة خارج ظله.

الأمر هنا لا يتوقف على ثنائية بسيطة بين راغب بالسيطرة وراغب بالحرية، بل يتعداه إلى علاقة بناء معقدة. فإن أنت دافعت عن حقك بالحياة، كما أرادت لك الطبيعة أن تكون، زدت من فرصة هذه الكينونة لآخرين يبحثون عن فسحة ضوء مثلك، وعلى العكس من ذلك، إن أنت تخليت عن حقك ذاك ضيقت على الآخرين، وأضعفت مقاومتهم لظالم يتربص بكل حركة يقومون بها خارج أذياله.

هي لعبة الخضرة والصحراء: كلما تراجع الخضار زحف الرمل، وكلما تماسكت نبتة في وجه ريح السموم سهلت على جارة لها الصمود والنمو، لتهزم الرمل ولو في سنتيمترات.

منذر بدر حلّوم

اللاذقية أيلول 2000

(*) - فلاديمير بوكوفسكي. مصدر سابق، ص 29.

«مختارات من فيشيرا»

سجن بوتيرسكي 1937[1]:

«اعتقلت في التاسع عشر من شباط عام 1929. وأنا أعد تلك الساعة من ذلك اليوم بداية حياتي الاجتماعية، وأول اختبار حقيقي صعب أخضع له.

كان علي بعد الصراع مع ميرجوفسكي في أول شبابي، وبعد ما كان لي من اهتمام بحركة التحرر الروسية، وبعد اضطرابات جامعة موسكو في العام السابع والعشرين، وبعد فوران مدينة موسكو.. كان علي بعد ذلك كله أن أتبيّن حقيقة نفسي.

كان الحديث يدور بيننا حين نلتقي عن الكيفية التي يجب أن نتصرف وفقها إذا ما اعتقلنا. كان من أبسط المسلّمات أن تُصّر على عدم الاعتراف بشيء، بصرف النظر عن طبيعة الظرف الذي تتعرض له. كان ذلك بمثابة قاعدة أخلاقية عامة يجب أن تراعى. وكان ذلك بالضبط ما فعلته، فقد امتنعت عن التصريح بأي كلمة.

حقق معي آنذاك الرائد تشيرتوك الذي كُوفئ بجائزة على مكافحته المعارضة ثم أُعدم في العام السابع والثلاثين كواحد من جماعة أغرانوف. أو هو ربما أعدم في العام الثامن والثلاثين.

لم يصمد الجميع، ولم يلتزموا الصمت الذي التزمته. كان ذلك ماأدركته فيما بعد. سخر رفاقي من سذاجتي: المحقق يعرف أنك تعيش في بيت الطلبة مع إيغريك، فكيف تقول له إنك لا تعرف أحداً بهذا الاسم، ولم تسمع به من قبل. لم أتبين حقيقة ما كان يجري في التحقيق إلّا بعد عودتي إلى موسكو عام 1932.

أما سنة 1929 فكنت لاأزال أظن كل شيء حقيقياً تماماً، كل ما كنا نؤمن به بكل خلجة وكل نبرة.

قام المحقق تشيرتوك بزجّي في زنزانة إفرادية بسجن بوتيرسكي؛ ليتيح أمامي فرصة لمراجعة ذاتي، لأتعقل. هناك في الزنزانة الخامسة والتسعين من الجناح الرجالي الإفرادي أقمت مدة شهر ونصف، كانت بالغة الأهمية في حياتي».

«تُرى هل لدي من العزيمة ما يكفيني لاجتياز طريقي بمفردي كواحد وحيد؟ هذا ماكنت أفكر به في الزنزانة الخامسة والتسعين.

كانت الظروف في الزنزانة رائعة للتفكير بالحياة. وكم أنا ممتن لسجن بوتيرسكي على عزلة كم كنت بحاجة إليها آن كان يشغلني البحث عن الصيغة الضرورية لحياتي..

لم أكتب هناك أية قصائد. كل مافعلته هو أنني رحت أفرح بالنهار، بمربع الطاقة الأزرق، رحت أنتظر بفارغ الصبر خروج الحارس كي أعود إلى قطع الزنزانة من جدار إلى آخر والتفكير بكل شيء وخاصة بهذا التوفيق الذي بدأت معه حياتي. لم يكن لدي أي شعور بالانسحاق.

هذه الأشياء التي تحيط بي الآن جميعها.. والأرض الإسمنتية، أيضاً، والقضبان.. كنت أعرف عنها كل شيء.. كل ما فيها كنت قد خبرته في أحلامي.. والآن هذه الأشياء تبدو لي رائعة كما كانت في أحلامي السريّة. انا هنا أمارس مزحي.».

سجن بوتيرسكي(1937)[2]:

كل شيء له خصوصية في السجن. فكيف يمكن مثلاً، أن تتصرف أثناء التحقيق؟ أتُرى النصيحة تجدي نفعاً في موضوع كهذا؟

انقضى النصف الأول من العام السابع والثلاثين، ذلك الطور «الطفولي» من السجن السوفييتي، حيث الأحكام «الطفولية» التي لم تكن تتعدى السنوات الخمس. لم يكونوا قد بدأوا يطبقون الطريقة الثالثة في التحقيق.»

«كانت تسود حتى ذلك الحين طريقتان في التحقيق: الأولى تقول بوجوب صعق المعتقل باستجواب فوري طويل، وتهديدات ممطوطة، ومباغتته باتهامات

تربكه؛ أما الثانية فتتمسك بوجهة نظر أخرى. الثانية تقول إن المعتقل يجب أن يُحبس في السجن أطول فترة ممكنة قبل أن يطلب إلى أي تحقيق. السجن يُضعف إرادته. الانتظار ينهكه. في هذه الأثناء يمكن جمع الوثائق والمعلومات المتعلقة (بالسلوك البشري). لا، لا.. ـ تقول المدرسة الأولى ـ فالمعتقل لا بُد أن يلتقي في السجن مَن يقوي مِن عزيمته، عندئذٍ سيصبح أكثر تماسكاً، لذلك فمن الأجدى دعوته إلى وجبة ساخنة.

وبدءاً من العام السابع والثلاثين تبين أن بيد التحقيق وسائل أكثر فعالية بكثير من المؤلفات الصبيانية لورثة بورفيري بيتروفيتش. فاعتراف المتهم حجر حاد الزوايا في النظام القانوني الستاليني، والحصول عليه سهل للغاية. لقد بُوشِر العمل بـ «الطريقة الثالثة» (التعذيب). الطريقة التي أفادت مع الجميع بفعالية مائة بالمائة كفعالية البنسلين».

«بأية سمات يا ترى يمكن تحديد ملامح النصف الأول من العام السابع والثلاثين، في السجن الموسكوفي ـ سجن بوتيرسكي؟ فما كان يتم في موسكو، كان بداية الحركة السيلية، لما سمي بعد ذلك بـ (التفاعل المتسلسل).

كانت تُنشر في موسكو مقالات عن (القضاء على الأعداء)، بينما كان الجناة في مناجم الكاليما يهوون بالأمخال على رؤوس العلماء. ولكن ما هو الأهم من ذلك كله!؟

لقد وسمت الحيرة وعدم فهم ما يجري معظم الناس. أقل من قلائل فهموا الأمر على حقيقته، وأدركوا الدور الحقيقي لمهندسي تلك الأعمال. وهؤلاء على الرغم مما أدركوه وفهموه آمنوا بشيء آخر ما، واعتقدوا بأن خطأً عظيماً قد وقع ويقع، وأن هناك استفزازاً مريعاً يحصل بالتأكيد. هؤلاء السذج تكفّل السجن بفتح أعينهم على الحقيقة شيئاً فشيئاً».

«على الرغم من كل شيء، كان الجميع مرحين و نشيطين لسبب ما، ولم تبد على أحد منهم هيئة عدم الرضى. قد يكون مرد ذلك الاستنفار العصبي الذي يعرفه كل من يدخل السجن؛ وهناك سبب ثانٍ هو حالة اللامعقول في الحكم على البريء، اللامعقول الذي لايمكن تقبله أو التصالح معه، الذي لايمكن تصديقه؛ أما

السبب الثالث فيعود إلى الشعور بالعجز، العجز عن تغيير أي شيء في أي حال؛ والسبب الرابع جوهره مقولة «ضمن الجماعة، حتى الموت جميل»[3]. عندما يرى الواحد أن «جرمه» الشخصي مفبرك بهذه الصورة اللامعقولة يتعامل مع مصير رفيقه بتسليم وثقة، ويكون سعيداً بمشاركته له قدره بل ويعتز بذلك، وعندما يعتقلون الكريم، يثق وهو المعتقل دون ذنب أن من يجاوره في السجن ليسوا إلّا ضحايا مثله، أما عندما يحبس الخسيس، فيفكّر بأنه الوحيد المظلوم هنا، بينما يستحق جميع من حوله السجن؛ وربما يكون هناك سبب خامس فعل فعله في حالة المرح الظاهري، سببٌ مردّه إلى صفة لا تستحق الثناء في الطبع الروسي، فالإنسان الروسي يفرحه أي شيء: حكموه بعشر سنين (ظلماً) يفرح، فهي على أية حال ليست عشرين؛ حكموه بعشرين، يفرح أيضاً، كان يمكن أن يعدموه؛ حكموه بخمسة أعوام (حكم طفولي) أفضل من عشرة، أما لو حكموه بعامين فيكون في غاية السعادة.

هذا السبب الخامس - «الفهم الخاص للشر الأصغر» قاد أشخاصاً في عداد المثقفين إلى الحكم على قادة المعتقلات وحتى الثناء على بعضهم: إيفانوف بالطبع أفضل، فضربه أقل إيلاماً، أما أنيسيموف الرئيس السابق لمنجم «بارتيزان» في الكاليما فإنه يضرب هوه... هوه...هوه... دائماً بالقفاز لا بقبضة يده ولا بالعصا.

ثمة سبب سادس أيضاً يضاف إلى ما سبقه وهو الرغبة بالخلاص بأسرع ما يمكن من حالة عدم التحديد الخاصة بالتحقيق: لتكن النتيجة أسوأ، المهم أن تكون النهاية واضحة، ظناً من المعتقلين أن كل شيء: الحراس، و الزنزانة، والمحقق... وغيرها ستتلاشى بمجرد الخروج من باب السجن ككابوسٍ عابر. السبب السادس هذا صار مقنعاً ومحترماً، بعد فترة وجيزة، عندما أدخلت أساليب التعذيب إلى التحقيق.

اعترفت تحت التعذيب، لابأس، فالمهم أن تبقى حياً، المهم أن تبقى حياً إلى ما بعد ستالين، وهنا كانت تكمن الحكمة، فقد وجد مئات آلاف «الموقعين» المقحمين في عذابات روحية وجسدية لانهائية، المحتضرين برداً وجوعاً وضرباً.. وجدوا في هذا الأمل الوحيد قوّةً للانتظار والصبر، وصبروا حتى النهاية».

«... وهكذا تصيدوا الجميع: (ساعدوا الدولة، اكتبوا شهادات كاذبة

فالدولة بحاجة إليها). والمعتقل المسكين لم يكن قادراً على التفكير «قبل أن يعذبوه» «أن الكذب لايمكن أن يكون مفيداً للدولة».

«جاء تموز من العام السابع والثلاثين وكان مصيرنا قد تقرر في مكان ما في الأعلى، وما من أحدٍ منا كان يعرف شيئاً عن مصيره كما في روايات كافكا. لكن ها هو مدير السجن بوبوف ذو الشاربين الأشقرين يتحدث فجأة في إحدى جولاته الشهيرة عن مستقبلنا: (إنكم ستتذكرون عما قريب هذا السجن. سترون المآسي الحقيقية، وستفهمون كم كانت أحوالكم هنا جيدة).

لقد كان على حق مدير سجن بوتيرسكي الأشقر الشاربين، الذي قيل إنهم أعدموه سنة ثمانية وثلاثين.. ربما، من يدري؟».

«حل أخيراً ذلك اليوم المُنتظر. صدر الحكم بعد خمسة أشهر ونصف من التحقيق، واقتادوني إلى جناح النقل، إلى كنيسة السجن السابقة».

«تحرك القطار باتجاه الشرق، تحرك نحو الشرق الأقصى...».

«الشيخ التتري والهواء النقي»

كان الهواء خانقاً في عنبر السجن خانقاً حتى أن أية ذبابة ماكان بمقدورها العيش هناك. كانت النوافذ الكبيرة المقضبة بالحديد مفتوحة على آخرها، بيد أن ذلك لم يخفف من وطأة الحر، فقد تصاعدت موجات من الهواء الساخن من إسفلت ساحة السجن اللاهب، حتى إن الجو داخل العنبر كان أكثر اعتدالاً منه في الخارج.

كان الجميع قد خلعوا ملابسهم: مائة جسد عار راحت تتنفس ذلك الحر الرطب الوبيل، وتتقلب على الأرض متصببةً عرقاً، فقد كانت الحرارة على الأسرة لا تطاق.

اصطف المعتقلون أثناء إجراء التفقد بسراويلهم الداخلية وحدها، وقف الواحد أكثر من ساعة يصب على جسده الماء البارد من المغسله، وهذا كله ماكان يخفف وطأة الحر إلا لماماً.

صارت الأرضية «تحت التخوت» من الأماكن المفضلة. كان يجب الاستعداد لـ «السفر البعيد». راحوا ينكتون متجهمين: لاشك أن تعذيباً بالتجميد ينتظرنا بعد هذا التعذيب بالبخار الساخن.

تحدّث الشيخ التتري المعتقل، قيد التحقيق، بقضية «تتاريا الكبرى»[4] الشهيرة، التي انتشر صيتها قبل أن تشير إليها الجرائد بزمن طويل، تحدث هذا الشيخ القوي الحار الطبع، ذو الستين عاماً، ذو الصدر الجبار، الذي طال شعره الأشيب، تحدث صاحب العينين السوداوين المدورتين، والنظرة الوقادة، بلا انقطاع وهو يمسح صلعته اللامعة بخرقة مبللة:

ـ لو أنهم فقط لا يعدموننا. الحكم بعشر سنوات شيء تافه، إذا كان هناك من يريد أن يعيش حتى الأربعين، فأنا أريد أن أعيش حتى الثمانين.

مع عودتنا من التنفس كان الشيخ يصعد درجات السلم راكضاً حتى الطابق الخامس دون أن يلهث.

ـ إذا حكموني بأكثر من عشر سنوات ـ تابع الشيخ مفكراً ـ في السجن أستطيع العيش عشرين سنة أخرى، أما في معسكر الأشغال الشاقة ـ صمت الشيخ ـ في الهواء النقي فلا أكثر من عشر سنوات.

تذكرت ذلك الشيخ الذكي الطيب عندما عاودت قراءة «مذكرات من بيت الموتى»[5]. كان الشيخ يعرف معنى «الهواء النقي». ماروزوف وفيجنر أمضيا في سجن قلعة شليسنبورغ في أقسى ظروف الاعتقال عشرين عاماً وخرجا من هناك قادرين على العمل. وجدت فيجنر في نفسها قوة لتساهم بنشاط في الثورة، ثم كتبت مذكرات في عشرة أجزاء عن الفظائع التي كابدتها. أما ماروزوف فقد ألّف العديد من الأعمال العلمية المعروفة وتزوج عن حب من طالبة مدرسة ثانوية.

في معسكر الأشغال الشاقة، في هواء المناجم النقي كل مايحتاجه الشاب القوي المعافى ليتحول إلى عاجز فترة لا تتجاوز في أحسن الحالات عشرين إلى ثلاثين يوماً، فالعمل الشاق الذي يستمر ست عشرة ساعة يومياً من دون أيام عطل، و التجويع اليومي المنظّم، والأسمال الممزقة، والمبيت عند درجة ستين تحت الصفر في شادر مهترىء، والتعرض للضرب من قبل رؤساء المجموعات، والعرفاء من الجناة[6] والحراس، ذلك كله يتكفل به فينهيه في ثلاثين يوماً أو أقلّ ولطالما اختبر هذا الرقم. فالمجموعات التي تبدأ موسم الذهب، حاملة اسم رئيسها لا يبقى منها حتى نهاية الموسم أي أحد باستثناء الرئيس، والأسبوعي، وربما واحد ما من أصدقاء الرئيس. بقية المعتقلين يتبدلون في غضون الصيف الواحد مرات عدة. فمنجم الذهب يلفظ بلا انقطاع مخلفات الإنتاج إلى المشافي، إلى فرق الاستشفاء، إلى مدن العجّز، إلى القبور الجماعية. يبدأ موسم الذهب في الخامس عشر من أيار وينتهي في الخامس عشر من أيلول ـ أربعة شهور. أما عن العمل الشتوي فحدّث ولا حرج. مع بداية الصيف تُشكّل مجموعات العمل في المناجم من القادمين الجدد الذين لم يمضوا الشتاء هنا بعد.

المعتقلون الذين صدرت أحكام سجنهم يسعون للخروج من السجن إلى معسكر الأشغال الشاقة. فهناك العمل، والهواء الريفي الصحي، وتخفيض مدة الحكم، وتبادل الرسائل مع الأهل والأقارب، والأجر المادي.. الإنسان دائماً يثق بالأفضل.

راح المعتقلون طوال الليل والنهار يتزاحمون عند شقوق باب العربة التي تنقلنا إلى الشرق الأقصى ، تزاحموا يستنشقون بغبطة الهواء المسائي الهادئ المنعش، المختلط برائحة أزهار الحقول، وقد أيقظته حركة القطار ليرسل نسيمه. ذلك الهواء لم يكن يشبه هواء عنبر السجن الخانق الذي تفوح منه رائحة العرق البشري والحموضة الكريهة، الهواء الذي يغدو لا يطاق خلال أشهر التحقيق الطويلة. في تلك الزنزانات خلّفنا ذكريات عن كرامتنا المهزأة المداسة بالأقدام، ذكريات تمنينا لو محتها الذاكرة. لسذاجتهم تصور الناس، أن سجن التحقيق أقسى معاناة قلبت حياتهم رأساً على عقب. الاعتقال بحد ذاته كان لهم أشد معاناة أخلاقية، أما الآن وقد خلصوا من السجن فقد أرادوا الثقة بشعورهم بالحرية ولتكن حرية نسبية، فهي حرية على أية حال من دون قضبان لعينة ومن دون تحقيقات مذلة مهينة. بدأت حياة جديدة من دون ذلك الضغط على الإرادة، الضغط الذي كان لابد منه دائماً أثناء التحقيق. شعر المعتقلون بانزياح حمل ثقيل عن كاهلهم لمجرد معرفتهم بأن كل شيء قد تقرر، وأن الحكم قد صدر، ولم تعد هناك حاجة للتفكير بالعبارات التي سيجيبون بها عن أسئلة المحقق، وليس ثمة حاجة بعد الآن للتفكير بالأهل والقلق عليهم، ولا للتخطيط للحياة، ولا حاجة للكفاح من أجل لقمة العيش... فقد باتت تسيطر على كل هذه الأشياء إرادة غريبة، ولم يعد بالإمكان تغيير أي شيء، ولايمكن الانعطاف إلى أي مكان عن سكة الحديد هذه التي تقودهم ببطء ولكن بإصرار إلى الشمال.

سار القطار لملاقاة الشتاء. كل ليلة كانت أبرد من سابقتها، أوراق الحور الخضراء الندية هناك بدت مشوبة بالصفرة الفاتحة هنا. والشمس هنا لم تعد ساطعة حارّة، فكما لو أن أوراق القيقب والحور والبتولا امتصت قوتها الذهبية وتشبعت بها فباتت الأوراق ذاتها تشع ضوءَ شمس، أما الشمس الشاحبة التي تعاني من فقر الدم فأنّى لها أن تُدفِّئ عربة القطار وهي المختبئة طوال الوقت خلف الغيمات

الرماديات الدافئات، اللواتي لا يعبقن بالثلج بعد. بيد أن الطريق إلى الثلج لم يعد طويلاً.

السَوقُ، ها هي نقلة جديدة إلى الشمال. لقد استقبلهم الخليج البحري بهبّات خفيفة من عاصفة ثلجية. الثلج لم يثبت بعد فقد كنسته الريح من الأخاديد الصفراء المتجمدة إلى حفر مملوءة بماء عكر قذر. نسيج العاصفة الثلجية بدا شفافاً. كانت ذرات الثلج المتساقط متباعدة فبدت كشبكة صياد حيكت من خيطان بيض، نشرت فوق المدينة. أما فوق البحر فما كان الثلج يشاهد. فهناك راحت الأمواج اللازوردية المزبدة تتراكض ببطء فوق صخور الشاطىء الملساء المخضرة اللون.

ربطت الباخرة في المكلأ فبدت من الأعلى أشبه بلعبة. حتى إنهم عندما راحوا ينقلون المعتقلين إلى الميناء على عبّارات، فيصعدون الواحد تلو الآخر إلى سطح الباخرة، ثم يتفرقون هناك، ويختفون في عنابرها، بدت الباخرة صغيرة على غير توقع. لقد أحاطت بها أمواه كثيرة.

بمضي خمسة أيام على ذلك أُنزِلَ المعتقلون على شاطئ التايغا الصارم المتجهم، ومن هناك حملتهم سيارات شاحنة إلى حيث كان عليهم أن يجهدوا من أجل الحياة ويكابدوا من أجل البقاء.

بقي هواؤهم الريفي الصحي وراء البحر، أما هنا فقد أحاط بهم هواء التايغا المتخلخل المشبع بأبخرة المستنقعات. كانتِ المرتفعات مكسوة بحلّة مستنقعية خضراء بدت منها صلعات التلال الحوّارية اللامعة العارية التي صقلتها الزوابع والرياح. غاصت الأقدام في أشنيات المستنقعات، وما أندر أن كانت تجف القدم طوال فصل الصيف. أما في الشتاء، فقد تجمد كل شيء. الجبال والأنهار والمستنقعات بدت جميعها شتاء أشبه بمخلوق واحد شرير، غير ودود.

الهواء في الصيف كان وبيلاً على معتلّي القلوب، وكان لا يحتمل في الشتاء على الإطلاق. لقد تقطعت أنفاس البشر في حضرة الزمهرير العاتي. لم يكن لأحد أن يتنقل هنا راكضاً، خلا الأكثر شباباً من المعتقلين، وحتى هؤلاء لم يكونوا يركضون بل كانوا يمشون ويقفزون.

سحائب البعوض غطت الوجوه. فكان محالاً أن يخطو المرء خطوة واحدة من دون ناموسية، أما أثناء العمل فكان المعتقل يضيق ذرعاً بها. كانت تخنقه، تعيقه عن التنفس، بيد أن البعوض لم يكن يترك مجالاً لرفعها على الإطلاق.

عملنا آنذاك ست عشرة ساعة في اليوم، وكان حجم العمل محسوباً لست عشرة ساعة كاملة.

إذا قلنا إن الاستيقاظ والفطور والتوزيع على المهمات والوصول إلى مواقع العمل تستهلك على الأقل ساعة ونصف الساعة، ثم الغداء ساعة، والعشاء مع الاستعداد للنوم ساعة ونصف. إذن فكل ما يتبقى للنوم، بعد يوم عمل عضلي مضن في العراء، أربع ساعات فقط. وهكذا كان المعتقل يغط في النوم بمجرد توقفه عن الحركة. صار المعتقل ينام وهو يمشي وهو يقف. قلة النوم أنهكت القوى أكثر من الجوع، ولا حيلة لديك فإذا لم تنجز حصة العمل اليومي تتعرض للعقوبة: طعام مخفض: أربعمائة غرام من الخبز فقط بلا أي طعام آخر ليوم كامل.

تلاشى الوهم الأول في الحال، وهم العمل، ذلك العمل الذي كتب عنه على بوابات جميع أقسام معسكرات الأشغال الشاقة: «العمل هو قضية عزة، قضية مروءة وبطولة». كان من شأن معسكر الأشغال الشاقة أن يُطعِّم المرء بالحقد على العمل والقرف والنفور منه، وهذا بالضبط ماكان يحصل.

مرّة واحدة في الشهر كان ساعي بريد المعسكر يحمل الرسائل المتراكمة إلى الرقابة. كانت الرسائل تستغرق حتى تصل من اليابسة إلى اليابسة نصف عام إذا وصلت أصلاً، أما الطرود فلم تكن تسلّم إلّا لمن ينجز خطة العمل، في حين كانت تصادر طرود الآخرين. كل ذلك لم يكن يحمل طابعاً مزاجياً البتة، فلقد تُليت الأوامر المتعلقة بتلك الإجراءات، وفي الحالات ذات الأهمية الخاصة كانوا يجبرون الجميع على التوقيع على الأمر الإداري. وذلك كله لم يكن أيضاً فانتازيا وحشية لمدير مُنحط. بل كان أمر القيادة العليا.

وحتى حين كان يُكتب لمعتقل أن يستلم إرسالية ما كان عليه أن يَعِدَ مرشداً ما بنصفها ليحصل على النصف الثاني، وبعد ذلك كله فليس هناك مكان تحمل

إليه ما استلمت، ففي البراكة ينتظرك اللصوص بفارغ الصبر كي يسلبوك ما ملكت أمام الجميع ويتقاسموه فيما بعد مع «فانيتشكات وسينيوتشكات»[7] البراكة. لذلك كان يجب إما أن تلتهم ما حصلت عليه في الحال أو أن تبيعه. بل وثمة طريق ثالث وهو الأكثر شيوعاً: كثيرون في السجن أو في معسكر الأشغال كانوا يودعون ماديهم للحفظ لدى معارفهم الذين يعملون في مأموريات وأشغال تتيح لهم إمكانية تخبئة الإرسالية والقفل عليها بالمفتاح، أو أنهم يسلّمونها لأحد ما من العمال الأجراء في المعتقل ليحفظها لهم. ولكن في تينك الحالتين كانت ثمة مغامرة، فليس لأحد أن يثق بنزاهة أولئك المؤتمنين ومع ذلك كان هو الطريق الوحيد لإنقاذ ما باليد.

ما كانوا يدفعون النقود لأحد على الإطلاق. كان يحصل على الأجر المتميزون فقط من عرفاء المجموعات ومع ذلك كان المبلغ سخيفاً لا يعين في شيء. كانوا في الكثير من الفرق يتدبرون الأمر، يسجلون العمل المنجز من قبل المجموع باسم اثنين أو ثلاثة من الفرقة ليظهروا وكأنهم حققوا زيادة في الإنتاج. وعلى مثل تلك الزيادات كانت تمنح بعض المكافآت. أما العشرون أو الثلاثون معتقلاً الباقون فيكون جزاؤهم عقوبة حصة طعام مخفضة. كان ذلك مخرجاً ذكياً، فلو أنهم وزعوا المُنجز بالتساوي على الجميع لما حصل أحد على كوبيك واحد ولعوقب الجميع، بينما يحصل اثنان أو ثلاثة ينتقون غالباً بالصدفة، وفي معظم الحالات من دون تدخل العريف على ما يقال عنه مكافأة.

كان الجميع يدركون أن خطة العمل غير قابلة للإنجاز على الإطلاق، لن يكون بالتالي لأحد أن يحصل على المال. وعلى الرغم من ذلك كانوا يلحقون برئيس المجموعة ويهتمون بالعمل الإضافي، ويركضون لملاقاة المحاسب، ويراجعون الدائرة للحصول على الوثائق المطلوبة.

ماذا يعني ذلك كله؟ أهو تعبير عن رغبة المعتقل بالظهور بمظهر «المجدّ» أمام القيادة ورفع الأسهم لديها، أم أن ذلك خلل نفسي ناجم عن «سوء التغذية»؟ الأخير أقرب إلى الصحة.

راح المعتقلون يتذكرون سجن التحقيق ذلك المضاء الدافئ النظيف، السجن الذي غادروه منذ فترة ليست بالبعيدة، وهي في آن معاً بعيدة بلا حدود، كمكان

لايجاريه في روعته آخر، كأفضل مكان على سطح الأرض. لقد نسوا الضيم الذي أصابهم في السجن فراحوا يتذكرون كل شيء مضخماً: كيف كانوا يستمعون إلى محاضرات علماء حقيقيين، وحكايات المسجونين، وكيف كانوا يقرأون الكتب، وكيف كانوا يأكلون وينامون حتى الشبع، ويستحمون في حمام رائع، وكيف كانوا يتسلمون الطرود من أقربائهم، وكيف كانوا يحسون بعائلاتهم بجوارهم، قريبة منهم على بعد بوابتين حديديتين لا أكثر، وكيف كانوا يتحدّثون بحرية عمّا يريدون دون خوف من المخبرين والعسس (ففي معسكر الأشغال تضاعف مدة الحكم على جرم كهذا).

بدا سجن التحقيق للمعتقلين أكثر حرية وحميمية من بيوتهم، وما أكثر من قال وهو يحلم على سرير المشفى مع أن ما تبقى له من الحياة قليل: «أنا أتمنى، طبعاً، لو أرى عائلتي، أتمنى لو أخرج من هنا. ولكنني أريد، أكثر من ذلك كله، أن أعود إلى عنبر سجن التحقيق، لقد كان أفضل من البيت، وأمتع منه، لو أنني أعود لكنت أخبر بقية السجناء ماذا يعني «الهواء النقي».

لو أضفنا إلى ذلك الشقاء كله مرض الاسقربوط الذي صار كما في عهد بيرينغ[8] وباءً وبيلاً راح يحصد آلاف الأرواح، ومعه الديزانتيريا، فقد كان المعتقل يأكل كل ما يقع تحت يده من مخلفات المطبخ، من براميل القمامة المغطاة بأسراب الذباب لإسكات معدته التي تقرقر جوعاً؛ والبيلاغرا مرض الفقراء، الهزال الذي يعقبه انسلاخ الجلد عن راحة اليدين وأسفل القدمين كما يخلع القفاز، والبقع الدائرية المتقشرة المنسلخة التي تشبه البصمات في جميع أنحاء الجسد المنهك الهزيل. وأخيراً الديستروفيا المعروفة، مرض الجوعى، الذي اكتسب اسمه الحقيقي بعد حصار لينينغراد، فقد كانت تطلق عليه إلى ذلك الحين تسميات مختلفة بدءاً من ر. ف.ي التي تترجم كهزال جسدي شديد، وصولاً إلى التسمية العالمية (بولي أفيتامينوز) - يالها من تسمية لاتينية رائعة تقول بنقص عدة فيتامينات في الوقت نفسه في جسم الإنسان، اطمأن لها بال الأطباء الذين وجدوا مصطلحاً لاتينياً قانونياً يعبّر عن الجوع، والبرّاكات الرطبة غير المسلحة ضد الزمهرير، حيث يتراكم جليد سميك من الداخل على امتداد الشقوق، لكأن شمعة عملاقة سال شمعها في زوايا البرّاكة... والملابس الرديئة، والطعام الشحيح، والتجمّد، التجمد ذلك

العذاب الأبدي، الذي يوصل المعتقل إلى حالة لا يفيد معها إلّا بتر الأعضاء التي قتلها الجليد. ذلك كله، والكريب الذي يحلو له أن ينتشر في هذه الظروف، والتهاب الرئتين، والرشح والسل في هذه التلال المستنقعية القاتلة لمرضى القلب، ووباء تفشى هنا يجب ألا ننساه هو بتر الأعضاء عن عمد تفادياً للأشغال الشاقة، ذلك كله إذا أخذناه بعين الاعتبار ومعه الضغط الأخلاقي الرهيب واليأس المطبق يكون من السهل رؤية إلى أية درجة كان «الهواء النقي» أخطر على الإنسان المعافى من السجن.

إذن، فلا حاجة بنا لحوار ديستويفسكي حول تفوق «العمل» في الأشغال الشاقة على عطالة السجن ومزايا «الهواء النقي» فزمان ديستويفسكي كان زمناً آخر، والأشغال الشاقة لم تصل آنذاك إلى تلك الذرى التي سنتحدث عنها، فمن العصي تصور ذلك العالم قبل دخوله، إذ إن كل الذي هناك فائق الشذوذ، فائق الغرابة، وليس بمقدور الدماغ البشري الفقير أن يتصور بأشكال محددة الحياة هناك، الحياة التي كان يملك عنها صاحبنا الشيخ التتري تصوراً ضبابياً مشوشاً.

«حُزْقَة»

هذا تاريخ غريب، غريب إلى درجة أن من لم يكن في معسكر الاعتقال، من لا يعرف الأعماق المدلهمة لعالم الجريمة، لمملكة الجنايات لا يستطيع فهمه.المعتقل، إنه قاع القاع. (العالم الجنائي) ليس قاع القاع، إنما شيء آخر تماماً، شيء لا إنساني على الإطلاق. هناك عبارة مبتذلة: التاريخ يعيد نفسه مرتين: مرة أولى كمأساة والمرة الثانية كمهزلة. لا، هناك أيضا انعكاس ثالث لتلك الوقائع، لتلك الوقائع نفسها، انعكاس في المرآة المقعرة للعالم السفلي.

أحداث تفوق التصور ولكنها واقعية، توجد في الحقيقة، تعيش قريبا منكم.

في مرآة الأحاسيس والأفعال المقعرة تنعكس المشانق بواقعية كاملة على (الطريقة) المنجمية، في (محاكم الشرف) الجنائية. هنا يلعبون بالحرب، يعيدون مشاهد الحرب ويتدفق الدم الحي. هناك عالم القوى الفوقية، عالم الآلهة الهومرية الهابطة نحونا لتعرض نفسها، ولتحسّن الجنس البشري على طريقتها إنما الآلهة يتأخرون.

هوميروس أثنى على أخيل، أما نحن فيعجبنا هيكتور[9]. لقد تغير المناخ الأخلاقي قليلا. الآلهة يدعون الناس أحياناً إلى السماء، ليجعلو من إنسان (الفرجات العالية) متفرجا. ثمة عالم وثمة جحيم سفلي، من حيث يعود الناس أحياناً، فهم لا يزولون إلى الأبد. لماذا هم يعودون؟ قلب هؤلاء الناس مفعم بقلق أبدي، برعب العالم المظلم الأبدي، عالم الاحتضار. هذا العالم أشدّ واقعية من سماوات هوميروس.

(شَرْغِلَ)[*] شيلغونوف إلى فلاديفوستوك، ممزقاً، متسخاً، جائعاً، مجلوداً من قِبل الحراس إلى حد الموت نتيجة عدم إنجازه المطلوب. كان عليه أن يعيش، وهناك على البواخر، كما على العربات المحمّلة باتجاه أفران أوسفينتسيم الغازية[10] حمّلوا ثم حمّلوا وراء البحر باخرة إثر باخرة، دفعة وراء دفعة. وراء البحر، من حيث لم يعد أحد قطعاً، كان شيلغونوف منذ العام الماضي، في نقاهة (وادي الموت)، ينتظر حتى يعيدوه راجعاً إلى اليابسة. لم يأخذوا العظام الشيلغونوفية إلى مناجم الذهب.

هاهو خطر جديد يدنو. أحس شيلغونوف بقلقلة حياة السجن بكل وضوح. لم يكن هناك مخرج من هذا التأرجح، من اللا أمان هذا.

المنفى بلدة هائلة، مقسمة باتجاهات عدّة إلى رقع مربعة، مشبوكة بالأسلاك الشائكة، مغطاة بالنيران من قبل مئات نقاط الحراسة، منارة بآلاف (مشترٍ)[11] مُعْمٍ للعيون المعتقلة الضعيفة. كانت أسرّة هذا التجمع الهائل ـ البوابات إلى الكاليما[12] تفرغ بصورة مفاجئة لتعود وتمتلىء من جديد بأناس معذبين، بدفعات جديدة آتية من حيث الحرية.

هاهي المراكب تعود، تتجشأ المحطة دفعة جديدة من الناس، تفرغ وتمتلئ من جديد.

في المنطقة، حيث عاش شيلغونوف، وهي أكبر مناطق المعسكر كانت كل المهاجع تنظّف باستثناء التاسع. في التاسع كان يعيش جناة. هناك تنزه الزعيم ملك الجناة بنفسه. لم يكن السجانون يقتربون من هناك، بينما رَاحَ خدم المعتقل يكومون، كل يوم، عند الجناح جثث (المتنازعين) مع الزعيم.

أمّا الطباخون فكانوا يحملون إلى هذا المهجع أفضل الأكلات وأفضل الأشياء (الأسمال) ـ (مادة المقامر) في التاسع، مهجع الملك.

شيلغونوف رجل مستقيم، سليل عائلة ريفية. والد هذا الشيلغونوف الذي كان يوماً ما حراً، أكاديمي، وأمه أُستاذة، عاش منذ طفولته مع الكتب فأحبها وأحبّ قراءتها، ويمكن القول إنه رضع الثقافة الروسية مع حليب أمه.

(*) ـ «شرغل» عوقب بالنقل من سجل إلى سجن أبعد عن منطقته.

القرن التاسع عشر، قرن الإنسانية الذهبي، هو الذي صنع شيلغونوف. علمته الثقافة الروسية العظيمة الثقة بالناس، حُبَّ الناس، تبادل المعارف. لقد أَحسَّ في نفسه منذ زمن طويل القدرة على أن يردّ للمجتمع ما ورثه عن غيره: التضحية بنفسه من أجل أي كان، الوقوف في وجه الباطل، مهما كان الباطل صغيرا، خاصة إذا كان قريبا.

كان السجن والمنفى أول جواب من قبل الدولة على محاولة شيلغونوف أن يعيش هكذا، كما علمته الكتب، كما علمه القرن التاسع عشر.

ذهل شيلغونوف من دناءة المعتقلين الذين أحاطوا به. لا أبطال في المعتقل. لم يكن يريد أن يثق بأن القرن التاسع عشر خدعه. سرعان ما حلّت محل النشاط السابق، الحماسة السابقة خيبة أمل مريرة بالناس في زمن التبعية، زمن الدفعات المساقة إلى الشمال، زمن النفي. فتش شيلغونوف، ووجد ذلك الذي أراد، ذلك الذي حلم به، وجد أمثلة حية. لقد وجد القوة التي قرأ عنها قبلاً الكثير، وانحلّ الإيمان بهذه القوة في دم شيلغونوف. إنه عالم جرائمي (عالم جنائي).

قيادة ذلك الزمان احتقرت جيران شيلغونوف وأصدقائه، واحتقرته أيضاً، وخافت من الجناة واحترمتهم. إنه العالم الذي انتصب بجرأة أمام الدولة، العالم الذي يستطيع مساعدة شيلغونوف، في تعطشه الرومانسي الأعمى للخير وتعطشه للثأر...

- عندكم حكواتي في المهجع؟

واحد ما مجهول سأل واضعاً قدمه على السرير، بربطة العنق والجوارب، في عالم، تُستخدم فيه منذ سنوات طويلة الخرق لفافات الأرجل، بدل الجوارب. حدّد شيلغونوف موقعه بدقة: إنه من المهجع التاسع.

- هوه! عندكم كاتب هنا؟

- كاتب هنا!

استدار شيلغونوف خارجاً من العتمة.

امش معي، هيا لعند الزعيم، تحكي له شيئاً.

ـ لن أذهب

ـ كيف! لن تذهب؟ أبله، لن تعيش حتى المساء.

لقد أعدَّ الأدب شيلغونوف جيداً للقاء بالعالم الجنائي. تخطى عتبة التخشيبة التاسعة باحترام. كانت كل أعصابه نزوعه إلى الخير، مشدودة، رنت كالأوتار. كان عليه أن يحقق نجاحاً، أن ينتزع انتباه المستمع الكبير المالك هنا، زعيم الجناة ـ الملك وثقته وحبّه.

لقد حقق شيلغونوف نجاحاً، انتهت كل مصائبه في تلك اللحظة التي تحركت فيها شفتا الملك اليابستان بابتسامة. مالذي يخبئه شيلغونوف في جعبته، الذاكرة يا الله؟. لم يشأ شيلغونوف أن يبدأ اللعب بالورقة الرابحة (كونت مونت كريستو)[13]. لا، لقد بعث أمام الزعيم سِفْر ستندال[14]، وسيرة تشيليني الذاتية[15]، وأساطير القرون الوسطى الإيطالية الدموية...

ـ ممتاز، ممتاز! ـ حشرج الزعيم ـ لقد هضمتم الثقافة جيدا يا أستاذ.

منذ هذا المساء ماعاد ممكنا أن يتناول الحديث أي عمل يطال شيلغونوف في المعتقل. أَحضروا له الغذاء و التبغ، وفي اليوم التالي، جاؤوا به ليقيم بصورة دائمة في المهجع التاسع، إذا كان ثمة إقامة من هذا النوع في المعتقل.

لقد صار شيلغونوف راوي الملك.

ـ آ، راوينا، ألست مبسوطاً!؟

ـ إنني أفكرُ بالبيت، بزوجتي.

ـ هاه...

ـ أجل، إنها عاقبة «المرحلة» المنفى. لا يسمحون بالمراسلة قبل مرحلة مناجم الذهب!.

ـ آخ منك، يالك من أيل. وما دورنا نحن! اكتب لحسنائك ونحن نوصل بلا صناديق بريد، بطريقتنا الخاصة. وَلوّ، أنت راوينا، أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم، وسأخدمكم دائماً.

ـ اكتب!.

صار شيلغونوف يرسل إلى موسكو رسالة كل أسبوع. كانت زوجته ممثلة، ممثلة موسكوفية من عائلة جنرال. في زمن ما، ساعة الاعتقال تعانقا:

ـ ليكن عام، اثنان من دون رسائل، سأنتظر، سأكون معك دائماً.

ـ ستأتي الرسائل أبكر ـ واثقا، هَدّأ زوجته برجولة ـ سأجد قنواتي الخاصة، وعبر هذه القنوات ستحصلين على رسائلي وتردين عليها.

ـ بلى، بلى، بلى!.

هل أُحضِر الراوي؟ أم سئمت منه؟ سأل كولا كارزوبي زعيمهم بانشغال... لو نحضر بيتونتشكا من (دفعة) جديدة... من جماعتنا أو من الثامنة والخمسين[16]. يدعو اللوطيون الجناة بيتونتشكا.

ـ لا، لا، هات الأستاذ الراوي، نحن جماعة نحب الثقافة، حقيقة.. زوّدناها، سنلعب مع هذا الأستاذ لعبة ثانية، فالوقت كاف لدينا.

* * *

ـ حلمي يا أستاذ ـ قال الزعيم، عندما كانوا قد انتهوا من طقوس التحضير للنوم، فكعباه محكوكان والصليب معلق على عنقه، وآثار القرصات بعد سحب (كاسات الهواء) مازال يحس بها على ظهره ـ حلمي أيها الراوي، أن تكتب لي واحدة مثل امرأتك. حلوه! دَعَكَ الزعيم بكفيه الصورة المجعوكة، المحكوكة، صورة مارينا زوجة شيلغونوف، الصورة التي حملها معه عبر آلاف التفتيشات والتطهيرات والسرقات.

ـ حلوه تصلح للاحتلام!. ابنة جنرال! ممثلة! محظوظون أستاذ، أما عندنا، فليس إلا المصابات بالزهري.. أما عن السيلان فلا تدقق. ها نحن ننام، لقد بدأ الحلم...

في المساء التالي لم يأتِ الراوي بروايات.

ـ يعجبني شيء فيك يا أستاذ! مسكين ومسكين.. وفيك قطرة من دم نصّاب. هيا اكتب رسالة لزوجة صديقي، كلمة واحدة. أنت كاتب ألطف وأذكى. أنت تعرف روايات كثيرة، بحظّي، لا توجد واحدة تصمد أمام

رسائلك. أما نحن فشعب جاهل!. أكتب، واحد آخر سينسخها ويرسلها. اسمك واسمه، ساشا، شيء مضحك والله، اسمه ساشا فقط في هذا الفيلم الماشي الآن. غير مهم ساشا، شورا، يعني شورتشكا[17].

تردد شيلغونوف:

- لم أكتب في حياتي رسائل من هذا القبيل. ولكن أستطيع أن أجرب.

أملى الزعيم شفاها فكرة كل رسالة، أما شيلغونوف - سيرانو فقد خلق الحياة في نوايا الزعيم. كتب شيلغونوف خمسين من تلك الرسائل. جاء في إحداها: (لقد اعترفت بكل شيء، أرجو السلطة السوفياتية العفو عني).

- عجباً.. الجناة، يعني المجرمون - سأل شيلغونوف، قاطعا الرسالة بصورة لا شعورية - يُسألون الاعتذار؟!.

- وَلَوّا - قال الزعيم - هذه وثيقة رسمية، لعبة، قناع، كذب، حنكة عسكرية.

بعد ذلك لم يسأل شيلغونوف، بل كتب كل شيء، كل ما أملاه الزعيم بإذعان.

أعاد شيلغونوف قراءة الرسائل بصوت واضح. عدّل الأسلوب. اعتز بقوة دماغه غير المستكين بعد. استحسن الزعيم، محركا شفتيه بابتسامة مَلَكِيَة.

كل شيء ينتهي، وكتابة الرسائل للزعيم انتهت أيضا، ربما كان هناك سببٌ هامٌ.. سرت شائعة كرائحة الخراء: جاء دور الزعيم لينقل إلى الكاليما، إلى حيث أرسل، خادعا، قاهراً، كثيراً من المعتقلين. أي أنهم سيقبضون على الحالم، يقيدون يديه ورجليه و.. إلى المركب.

حان وقت إنهاء المراسلة. فقد مضى قرابة العام وشيلغونوف - سيرانو يخاطب روكسانا بالحب على لسان كريستيان[18]. ولكن يجب إنهاء اللعبة بجناية، يجب أن يتدفق...

تخثر الدم على صدغي الرجل - الجثة الهامدة أمام عيني الزعيم. أراد شيلغونوف أن يُغطي وجهه وعينيه الناظرتين نظرة ملامة.

ـ أنظر إليه! إنه شورا، شورا الذي من أجله كنت تكتب أنت الرسائل. شَقّفَه اليوم رجالنا، قطعوا رأسه بالبلطة.

ـ واضح. استدار شيلغونوف مستترا بمنديل.

ـ اكتب: رفيق شورا يكتب إليكم! أُعدموا شورا البارحة رمياً بالرصاص، وأنا أسرع وأكتب آخر كلماته ...

ـ كتبت؟ ـ سأل الزعيم ـ نحن نعيد كتابتها وخلصنا. لا داع لكتابة الرسائل بعد اليوم. حتى من دونك كنت أستطيع كتابة هذه الرسالة ـ ابتسم الزعيم ـ لكن الثقافة غالية علينا. نحن جماعة جهلة.

كتب شيلغونوف رسالة النعي. شاهد الزعيم ما في الماء بوضوح: (سيقبض عليّ وأرسل إلى ماوراء البحر)، وكان ذلك.

أما شيلغونوف، غير الحاصل على أية صلات بالبيت، فقد تلاشت أخر بارقة أمل لديه. عارك في عزلته سنة.. وثانية.. وثالثة. تمزق بين المشفى والشغل، حانقا على زوجته، التي تبين أنها سافلة أو جبانة، والتي لم تستغل (قنواته الأمينة) للاتصال به، ونسيته، وداست على ذكراه.

ولكن حصل أيضاً أن جحيم المعتقل انتهى. تحرر شيلغونوف ووصل إلى موسكو. قالت له أمه إنها لاتعرف شيئا عن مارينا. والده مات. بحث شيلغونوف عن صديقة مارينا، زميلتها في المسرح، وها هو يدخل شقتها.

زعقت الصديقة مذعورة. سأل شيلغونوف:

ـ ماذا جرى؟

ـ ألم تَمُتْ، شورا...!

ـ كيف مُت! وأنا اقف أمامك هنا؟

ـ ستعيش إلى الأبد ـ خرج شخص من الغرفة المجاورة ـ هكذا يقولون، إنه فأل خير.

ـ أعيش إلى الأبد، أظن أن هذا لا يلزمني ـ قال شيلغونوف بهدوء ـ ولكن أين مارينا؟

ـ مارينا، ماتت. بعد أن أعدموك، ألقت بنفسها تحت القطار. ولكن ليس

في مكان آنّا كارينينا[19] إنما في الراسترويف. وضعت رأسها تحت الدولاب فقص عنقها تماما. أنت اعترفت بكل شيء ومارينا لم ترد سماع ذلك، لقد وثقت بك.

ـ أنا اعترفت!!!

ـ نعم، نعم أنت بنفسك كتبت كل ذلك، أما عن موضوع إعدامك، فقد كتب رفيقك. أنظر هذا هو صندوقها.

في الصندوق، كانت جميع الرسائل الخمسين، التي كتبها شيلغونوف لمارينا، وأرسلها بواسطة قنواته الخاصة، من فلاديفوستوك. عملت القنوات بصورة ممتازة، لكن ليس لصالحه.

حرق شيلغونوف رسائله قاتلة مارينا. ولكن أين رسائل مارينا؟ أين صورة مارينا، المُرسلة إلى فلاديفوستوك. تصور شيلغونوف الزعيم، قارئ رسائل الحب.. الصورة المرسلة من قبل مارينا.. جسد مارينا الناعم. وجهها الرقيق. تخيل... كيف تخدم هذه الصورة الزعيم (لعادته السرية). بكى شيلغونوف، بكى بعدها كل يوم طوال حياته.

اتجه شيلغونوف إلى أمه، راجياً أن تعثر ولو على سطر واحد، مكتوب بيد مارينا. وليكن مكتوبا لغيره. وُجِدتْ هكذا رسائل: رسالتان مهترئتان، حفظهما شيلغونوف عن ظهر قلب.

الممثلة ابنة الجنرال، تكتب رسائلَ للجاني.

توجد في لغة الجناة كلمة (انتفش) هذه الكلمة تعني تباهى، جاءت هذه الكلمة إلى الوسط الجنائي من الأدب الكبير. انتفش تعني تفاخر منفوش الريش. كان عند الزعيم ماينتفش به: الأستاذ الراوي، الذي يُميت من الضحك، شورا الحبّوب.

ـ شوفي البشر كيف يكتبون الرسائل، أما أنت، فكلبة جربانة، لا تستطيعين صف كلمتين..... قرأ الزعيم لقحبته مقتطفات من قصة غرامه الخاصة.

ـ ولكني أميّة!

ـ جاهلة، تعلموا يا مخلوقات كيف تعيشون مثل البشر.

تصور شيلغونوف، واقفا في مدخل موسكوفي معتم، كل شيء بوضوح: كريستيان وروكسانا في مسرحية سيرانو، الملعوبة في الشعبة التاسعة من جهنم،

على جليد الشمال البعيد. لقد وثق شيلغونوف بالجناة، فجعلوه يقتل زوجته بيديه.

رسالتان ترمّدتا، لكن الحبر لم يحترق، والورقة لم تتحول إلى عفار. صار شيلغونوف يقرأ هاتين الرسالتين كل يوم. ما السبيل إلى حفظهما إلى الأبد؟ بأي صمغ يدهن الشقوق الممزقة في أوراق البريد المعتمة هذه؟ ليس بصمغ سائل طبعا، فهم يحرقون الصمغ السائل، يفنونه. ولكن رغم كل شيء، يمكن لصق الرسائل بطريقة ما، بحيث تعيش إلى الأبد. فمن شأن أخصائيي الأرشفة في متاحف الأدب أن يعرفوا طريقة من هذا القبيل.

يجب جعل الرسائل تتكلم.. هذا كل ما في الأمر. ثبّت شيلغونوف الوجه الروسي اللطيف على الزجاج، بجانب أيقونة روسية من القرن التاسع عشر، أعلى قليلا من أيقونة المعذبة العظيمة ـ والدة الإله. كان الوجه الأنثوي.. كانت صورة مارينا في محلها الصحيح تماما، بل تفوقت على الأيقونة... لماذا مارينا ليست وَليّة، ليست قديسة!؟ لماذا كل تلك النساء طاهرات، قديسات، أما مارينا فمجرد ممثلة، ممثلة وضعت رأسها تحت عجلات القطار!؟ أم أن الدين الأرثوذكسي لا يقبل المنتحرين في صفوف الملائكة!؟

ضاعت الصورة وسط الأيقونات وهي نفسها كانت أيقونة.

يستيقظ شيلغونوف في الليالي، أحياناً، يتحسس بأصابعه، في الظلمة، باحثاً على الطاولة عن صورة مارينا. لا تستطيع الأصابع المتجلدة في المعتقل تمييز الأيقونات عن الصورة، الخشب عن الكارتون. أو ربما يكون شيلغونوف سكراناً. صار شيلغونوف يشرب كل يوم. الفودكا، طبعا أذى، الكحول سُم، لكن السلوان خير.وما العمل إذا كانت أيقونة مارينا على الطاولة!.

* * *

ـ أَتَذْكُرُ ذلك الأستاذ الراوي، الكاتب يا جينا؟ أم نسيته من زمان؟ سأل الزعيم عندما حان وقت اللجوء إلى النوم، بعد أن كانت جميع الطقوس المعهودة قد أنجزت.

ـ كيف أنسى! أذكره طبعاً، ذلك كان مسطولا آخرَ، حماراً! وأشار جينا إلى رأسه فاتلا أصابعه المتباعدة فوق أذنه اليمنى.

«احتضار الشاعر»

احتضر الشاعر. ارتمت عظام يديه المتورمتين جرّاء الجوع، وأصابعهما المتسخة الخالية من الدم بأظافرها الطويلة المقوسة، ارتمت على صدره غير عابئة بالبرد. كان في السابق يحشر يديه في عبّه ليدفئهما على جسده العاري، أمّا الآن، فما أقل الدفء هناك. سرقوا قفازيه من زمان، فسرقة من هذا النوع كانت تحتاج للوقاحة لا أكثر. سرقوهما في عز النهار. كانت الشمس الكهربائية الكابية الموسومة ببراز الذباب، والمحبوسة وراء القضبان معلقة عالياً تحت السقف. لقد سقط الضوء على قدمي الشاعر المستلقي كما لو أنه في صندوق، في لج أخشاب التخوت السفلى المدلهم. تحركت أصابع يديه بين الحين والآخر، مفرقعة كالصنوج، متحسسة عروة أو مزقاً ما في القميص، ماسحة النثار الراقد على صاحبها لترقد بدورها من جديد. ما أطول موت الشاعر، فمن طول احتضاره بات لا يفهم أنه يقضي. فكرة بسيطة ولكنها قوية مؤلمة كانت، أحياناً، تخترق ذهنه وتومض فيه، فكرة أنهم سرقوا قطعة الخبز التي خبّأها تحت رأسه. كان ذلك مؤلماً بوحشية حتى إنه كان على استعداد لأن يجادل، يتشاتم، يتعارك، يبحث، ويثبت ولكن لا حول لديه ولا قوة وهكذا ناست فكرة الخبز في رأسه. أمّا الآن فإنه يفكر مستغرباً بشيء آخر تماماً: بأنهم سيحملون الجميع إلى ما وراء البحر، مستغربا، فالمركب تأخر لسبب يجهله و ما أروع أنه هنا. وهكذا راح يفكر باسترخاء، متأرجح الذهن، بالوحمة الكبيرة على وجه عريف المهجع.

لقد أمضى الشاعر وقتاً طويلاً من أيامه مستغرقا بالتفكير بتلك الأحداث التي ملأت حياته هنا. لم تكن الرؤى التي تراقصت أمام عينيه رؤى طفولته وشبابه ونجاحاته. لقد عاش كل حياته مستعجلاً، وما أحلى أنه لا يسرع إلى أي مكان

الآن، فهو يستطيع أن يفكر ببطء، ولذلك راح يفكر على مهل بحركة ما قبل الاحتضار الرتيبة، الوحيدة اللون، يفكر بذلك الذي فهمه وشخصه الأطباء قبل الفنانين والشعراء: الوجه الإيبوقراطي ـ قناع الاحتضار المعروف لكل طالب طب. كانت الرتابة المحيرة التي تسِمُ عملية الاحتضار سببا لأجرأ فرضيات فرويد: الرتابة والتكرار أساس حتمي للعلم. ذلك الذي لا يتكرر في الموت كان محط بحث الشعراء لا الأطباء. كان يريحه إحساسه بأنه لا يزال يستطيع التفكير. لقد اعتاد على غثيان الجوع منذ زمن طويل وكل شئ لديه الآن سواء بسواء: إيبوقراط، عريف المهجع، والوحمة على وجهه، وحتى أظافره القذرة بالذات.

ولجته الحياة، وغادرته مرات عدة وهو يقضي، وها هي تعود تزوره من جديد. تفتحت عيناه، وعاودت الأفكار تخاطرها، وحدها الرغبات لم تزره. إنه يعيش منذ زمن طويل في ذلك العالم حيث يعاد الأموات إلى الحياة بالتنفس الصناعي، بالغلوكوز، بالكافور، بالكافيئين..وهكذا يبعث الميت حياً من جديد، ولم لا؟ إنه يؤمن بالخلود، بالخلود الإنساني الحقيقي، وغالبا ما كان يفكر بغياب أية أسباب حيوية تمنع الإنسان من أن يعيش إلى الأبد... الشيخوخة، إنها مرض قابل للعلاج فحسب، ولولا هذا الإشكال التراجيدي غير المحلول إلى الآن لعاش هو إلى الأبد أو حتى يسأم الحياة، أمّا هو فلم يملّها بعد، لا قبلا ولا الآن في مهجع (معسكر النقل) (الترانزيت) كما يسميه بتحبب قاطنوه.

كانت حياته على شفى الهول، ولكنها لم تكن بذاتها هولا، إنما على العكس فلقد حومت هنا روح الحرية، وهذا ما أحس به الجميع. ففي الأمام تربُّص معسكر الأشغال الشاقة وفي الخلف كان السجن، أمّا هنا فإنه (عالم في الطريق) وهذا ما فهمه الشاعر جيدا.

كان هناك أيضا طريق آخر للخلود، طريق تيوتشيفي[20]:

(طوبى لمن وطئ الحياة
والوقت يدعو إلى الممات.)

ولما كان من الواضح أن الخلود لن يشمله كإنسان، كوحدة فيزيائية مستقلة، فإنه يستحق الخلود الإبداعي عن جدارة. لقد نادوه بملك شعراء القرن العشرين، وغالبا ما يفكّر بأن هذه هي الحقيقة، فهو يؤمن بخلود قصائده. لم يكن لديه

تلامذة، وأي شاعر يطيق أن يكونوا لديه؟ كتب إضافة إلى الشعر النثر (السيء) والمقالات، ولكنه في القصائد فقط أبدع شيئا ما جديدا للشعر، شيئا هاما كما كان يخيل إليه دائما. كانت كل حياته التي مضت حياة أدبية، حياة كتب حكايات وأحلام، وحده هذا اليوم الأخير صار حياة حقيقية دون سواه. كل هذه التخاطرات لم تظهر على الملأ، بل تعاقبت في السر هناك في قرارة النفس. كان ينقص تفكيره الحماسة، فاللامبالاة كانت قد تملكته منذ أمد طويل، أمّا هذه الأشياء كلها، فكانت تفاهات (جلبة فئران) قياساً بوطأة الحياة الشريرة. لقد أدهشته نفسه فكيف يستطيع التفكير بالشعر وقد قضي الأمر، وهو يعرف ذلك جيدا، بل وأعرف الناس به، فمن بحاجة إليه هنا؟ أو ماذا عساه يساوي هنا؟ ولماذا كان عليه أن يفهم هذه الأشياء كلها! ومع هذا انتظر... وفهم.

في تلك اللحظات، حينما أمّت الحياة جسده من جديد بدأت عيناه الكابيتان نصف المغمضتين تريان، بدأت الآماد تهتز، والأصابع ترتعش، وعادت ثانية تلك الأفكار التي لم يحسب أنها الأخيرة.

زارته الحياة مختارة كسلطانة حرّة لا يعرفها، ومع ذلك اقتحمت عوالم جسده وذهنه. زارته مثلها مثل قصيدة، مثل طيف وحي، لتنشر معاني هذه الكلمات أول مرّة أمام إدراكاته. كانت القصائد قوة خلق عاشها كما هي بالضبط، فهو لم يعش من أجل القصائد بل عاشها. ولكم هو يحس ويرى بوضوح الآن أن قوة الخلق تلك إنما كانت هي الحياة بذاتها. لقد كُتب له أن يدرك ذلك وهو على حافة الموت، أن يدرك أن الحياة كانت ومضة وحي... كانت وحيا لا شيئا آخر. ولقد أنشته فرحة وصوله إلى هذه الحقيقة الأخيرة.

كان معيار كل شيء، كل ما في الدنيا لديه قصائده: عمله، ووقع حوافر الخيل، والبيت، والعصافير، والصخور، والحب، والحياة بكل ثوانيها دخلت قصائده وهجعت هناك بأمان. هكذا كانت الأمور وهكذا كان يجب أن تكون لأن القصيدة كانت كلمة.

والآن أيضا تدفقت موشحات الشعر بسهولة واحدا إثر آخر، ومع ذلك لم يكتب، بل ولم يستطع أن يدون قصائده منذ زمن طويل، إلا أن الكلمات كانت تنساب بيسر، شاغلة مكانها على أوتار موسيقا شعره الجديد المبدع كل مرة،

فالقافية لديه هاو شغف، مغناطيس سحري يلاحق الكلمات والعبارات ويلتقطها. كل كلمة تشكل جزءاً من العالم يعانق القافية، وما الكون إلا ومضة كهربائية تتراقص أمامه كلمح البصر. كل كلمة تنادي خذني! لا خذني أنا.

لاداعيَ للبحث فكل ما عليه أن يختار. فكأنما عاش فيه شخصان معا: واحد يؤلف وقد ترك العنان لـ (دولابه) يدور، وثان يختار، موقفا دوران الآلة المسترسلة بين الفينة والأخرى. وقد فهم الشاعر أن هذين الشخصين يسكنان داخله بالذات، مدركاً أنه إنما يكتب الآن شعراً حقيقياً. وأي ضير في أن قصائده غير مكتوبة؟ الكتابة، النشر كل هذا بهرج باطل، وكل ما يولد لغاية مسبقة ليس هو الأفضل قطعا. أفضل الكلمات تلك التي لم تكتب بعد، تلك التي ومضت واختفت متلاشية بلا أثر. وحده مخاض الإبداع، الذي يؤججه، والذي لا يمكن أن يختلط عليه بأي شيء آخر يؤكد أن القصيدة تم خلقها وانتهى. أوَليس من المحتمل أن يخطئ؟ وهل فرحة الإبداع لديه حقيقية فعلاً؟ ها هو يتذكر كم كانت رديئة ومهزوزة شعريا قصائد الكسندر بلوك[21] الأخيرة، وكيف أن بلوك ربما لم يع هذا... لقد أجبر الشاعر نفسه على التوقف، وقد كان هذا هنا بالذات أسهل عليه بعشرات المرات منه في أي مكان آخر كموسكو أو لينينغراد مثلا. وهكذا اكتشف أنه لم يفكر بأيما أمر منذ زمن طويل. ومن جديد راحت الحياة تغادره.

بعد رقوده ساعات طويلة دون حراك تراءى له فجأة شبح دريئة، أو هي خارطة جيولوجية، خارطة خرساء حاول فك رموزها بلا جدوى.

مرّ وقت طويل قبل أن يعي أن تلك الخارطة لم تكن سوى أصابعه بالذات، وقد دُمغت على بصماتها الآثار البنية لأعقاب السكائر المدخنة والممصوصة حتى آخر نتفة فيها. كانت تلك الخطوط غاية في الوضوح كخارطة تضاريس الأرض. كان الرسم على الأصابع العشر متشابها، أمّا الدوائر المتحدة المركز عليها، فكانت تشبه مقطعا في جزع شجرة. تذكر الشاعر كيف أن رجلا صينيا خارجا من قبو تلك البناية حيث ترعرع، أوقفه ذات مرة ممسكا بيده ثم بالأخرى ثم ما لبث أن قلب راحتيهما إلى الأعلى معبّراً ببعض الكلمات الصينية عن شيء ما. ولقد تبين فيما بعد أنه قرأ طالع الصبي، وقال إنه طيب الحظ يملك مؤشرات حسنة. وما أكثر المرات التي تذكر فيها الشاعر فيما بعد علامة السعادة تلك، خاصة عندما نشروا له

أول كتبه، أمّا الآن، فإنه يتذكر ذلك الصيني بلا حقد ولا سخرية فالأمر عنده سيان.

أهم ما في الأمر أنه لم يمت بعد، وماذا يعني بالمناسبة أن يموت شاعر؟ يجب أن يكون في هذه الميتة شيء ما طفولي بريء، أو شيء ما مسرحي مفتعل كموت يسينين[22] أو ماياكوفسكي[23]. مات كممثل هذا يمكن فهمه، أمّا مات كشاعر؟!.. بلى لقد استطاع أن يحدس بكثير مما كان ينتظره في المستقبل، كما وتسنى له أن يفهم أشياء أخرى كثيرة في معسكر النقل، ويخمّن أشياء ثالثة أيضا، ولقد فرح، فرح بهدوء بلا حوله ولاقوته آملا أن يموت. هاهو يتذكر جدالاً قديماً من أيام السجن عن الأفظع والأبشع: أهو معسكر الأشغال الشاقة، أم السجن؟ لم يكن هناك من يعرف أي شيء، فالأدلة والبراهين كانت مفترضة، ولكم كانت قاسية ابتسامة الإنسان المساق من المعسكر إلى السجن! لقد علقت بذهنه تلك الابتسامة القاسية إلى الأبد، حتى أنه كان يخشى تذكرها. تخيلوا لو أنه يموت الآن فلكم سيخدع أولئك الذين اقتادوه إلى هنا ليمضي عشر سنوات كاملات. إنه في المنفى منذ عدة سنوات، ولقد أدرك جيدا أنه أضيف إلى قوائم خاصة إلى الأبد. أوَهل فعلا إلى الأبد؟ لقد تزحزحت المقاييس لديه وغيرت الكلمات معانيها.

إنه يشعر من جديد بمد قوته، بلى مدٌّ كما يحصل في البحر بالضبط. مدٌّ لساعات طويلة، يبدأ بعدها الجزر. لكن البحر لا ينحسر عنا إلى الأبد، إنه يستجمع نفسه من جديد.

أراد فجأة أن يأكل، ولكن لم تكن لديه القوة ليتحرك. تذكر ببطء وصعوبة أنه أعطى اليوم حصته من الحساء لجاره وأن كوب ماء مغلي كان طعامه الوحيد في يومه الأخير هذا، عدا الخبز طبعا. لكنهم وزعوا الخبز من زمن بعيد، بعيد جداً، أمّا خبز البارحة فقد سرقوه. كانت لا تزال لدى بعضهم قوة للسرقة.

استلقى بعدُ، مسترخيا، لا يفكر بشيء حتى الصباح. صار ضوء المصباح الكهربائي أكثر اصفرارا مما كان عليه قبلا، وقد جاؤوا بالخبز على صواني خشب كبيرة، كما كانوا يفعلون كل يوم. أمّا هو، فلم يعد يقلق، لم يعد يتملى طرف رغيف الخبز المشوي، ولم يعد يبكي إذا لم يكن من نصيبه، لم يعد يحشر في فمه

بأصابعه المرتجفة (كسرات) الخبز المفروطة التي كانت من نصيبه، ويذيب هذه الرجحة في فمه حالا. تفتح ثقبا أنفه على آخرهما وشعر بكل أحاسيسه برائحة الخبز الأسمر الطري وطعمه، ولكن الكسرات تلاشت في فمه وهو لم يكد يبتلع ريقه أو حتى يحرك فكّه. ذابت فرطة الخبز وتلاشت، وكانت هذه أعجوبة.. واحدة من الأعاجيب المحلية. لا، إنه الآن لا يقلق. عندما وضعوا في يده حصة الخبز، أمسكها بأصابعه الشاحبة، وضغطها إلى فمه ثم عضها بأسنانه الاسقربوطية، التي تتأرجح دون أن يشعر بألم، كانت لثته تنزف دماً، بينما هو يضغط الخبز بأقوى ما يستطيع إلى فمه، وكان أخيراً أن حشر الخبز فيه ومص ونتف وقرض...

أوقفه جيرانه:

ـ لا تأكلها كلّها، الأفضل أن تترك شيئاً منها تأكله فيما بعد...

أمّا هو، فلقد فهم وفتح عينيه واسعا، متمسكا بقطعة الخبز بأصابعه المتسخة المزرقة:

ـ إلى متى؟ قال ذلك بكل وضوح ثم أغمض عينيه.

وفي المساء قضى نحبه.

لكنهم (سجلوا وفاته) بعد يومين من ذلك، إذ إن جاره المبدع تمكن عند توزيع الخبز ليومين متتالين، من الحصول على حصة الميت، الذي رفع يده كلعب الأطفال. أي أنه مات قبل تاريخ وفاته.. أمر ليس قليل الأهمية لمن سيدون سيرة حياته مستقبلاً.

«انبعاث الشربين»

نحن نؤمن بالخرافات، ونطالب بالمعجزات، ونختلق لأنفسنا رموزاً لنعيش بها.

إن الإنسان في الشمال الأقصى يبحث عن منقذ لحساسيته التي لم تتحطم، ولم تتسمم رغم العيش عشرات السنين في الكاليما. هاهو يرسل بالبريد الجوي طرداً: لاكتب، ولا صور، ولا قصائد فيه، بل غصن شربين.. فرع ميت من الطبيعة الحيّة.

يضعون هذه الهدية الغريبة، هذا الفرع الإبري البني، الجاف، المسفوع بريح الطائرات، المدعوك والمكسّر في عربات البريد، ابن تلك الشجرة الشمالية يضعونه في الماء. يضعونه في قطرميز مملوء بماء معقم، مُكَلْور، شرير من شبكة مياه موسكو. كان ربما سيسعده لو يُميت جميع الأحياء، ماء الشرب الموسكوفي الميت ذاك.

يوجد في هذه الغرفة الكثير من الأزهار.. الأزهار الزاهية الألوان. يضعون هنا باقات من بطمة الشمال، وباقات أخرى من أزهار البنفسج في ماء ساخن. إنهم يفصلون الأفنان بعضها عن الآخر ويغطسونها في الماء الحار. أجل يوجد هنا الكثير من الأزهار، إنما غصن الشربين أكثر جدية منها جميعاً. إنه يقف في الماء البارد المدفأ قليلاً فحسب. فلقد عاشت أمه الشربينة في مكان أقرب إلى النهر الأسود من بقية الأزهار، أقرب إليه من البنفسج ومن بطمة الشمال. هذا ما تعرفه ربة المنزل، وهذا ما تعرفه الشربينة أيضاً.

نزولاً عند الرغبة الإنسانية الشديدة، يستجمع غصن الشربين قواه الجسدية والروحية كلها، فالقوى الجسدية وحدها غير كفيلة يبعثه من جديد. لابد من قوى

أخرى، قوى سريّة ما تستيقظ فيه، فلا الدفء الموسكوفي، ولا الماء المكلور، ولا المطربان كافية لأن تحييه.

انقضت ثلاثة أيام بلياليها وإذا بربّة المنزل تستفيق على رائحة جديدة، عطرية، رقيقة، غريبة. لقد بزغت إلى الحياة من شقوق القشرة الصلبة أوراق إبرية فتية، خضراء فاتحة، تشع بالحياة. إن الشربينة حية، الشربينة خالدة. لم يكن لأعجوبة الانبعاث هذه إلاّ أن تحدث، ألم توضع الشربينة في ماء المطربان في الذكرى السنوية لموت الشاعر زوج ربّة المنزل في الكاليما. لابد وأن ذكرى موت الشاعر قد ساهمت أيضاً في بعث الشربينة وإحيائها.

هذه الرائحة اللطيفة، هذه الخضرة الندية بداءات ضرورية للحياة، للبرعمات الواهنة، إنما الحيّة، المنبعثة بقوة روحية ما، الخارجة نحو الضوء.

كانت رائحة الشربين ضعيفة، ولكنها كانت حاضرة، وما كان باستطاعة قوة في الدنيا أن تطغى عليها، كما لايمكن لقوة أن تمحو هذا اللون الأخضر، هذه الحياة.

كم من الأعوام، مع حلول كل ربيع جديد، ترفع هذه الشربينة المهشمة بالريح والصقيع، السارحة مع الضوء أوراقها الخضراء الفتية نحو السماء. كم من السنين؟ مائة، مائتان، ستمائة... عمر بلوغ الشربينة ثلاثمائة عام.

عمر الشربينة أم الغصن، الذي يتنفس الآن على طاولة موسكوفية ثلاثمائة عام بعمر نتاليا شيرميتيفا دولغوروكوفا[24] وهي يمكن أن تُذكِّر بقدرها المأساوي، بتقلبات الحياة، بالإخلاص وبالصلابة، بالثبات الروحي، وبالعذاب الجسدي والقهر الأخلاقي، الذي لايختلف بشيء عن تعذيب وقهر عام السابع والثلاثين في الطبيعة الشمالية الزاخرة التي لا تطيق الإنسان، ذات الخطر المميت الناجم عن فيضانات الربيع وزوابع الشتاء الثلجية، والدسائس والوشايات، وشناعة فلتان القيادات، والموت وتقطيع الأيدي والأرجل، وشلع وتمزيق أعضاء الزوج، والأخ والابن، والأب الذين وشى بعضهم ببعضهم الآخر، والذين خان بعضهم بعضهم الآخر. فكيف يمكن ألّا يكون أزلياً هذا المدار الروسي؟

بعد بلاغة الواعظ تولستوي، ومواعظ دوستويفسكي الثرة[25] كانت

الحروب، والثورات وهيروشيما، ومعسكرات الاعتقال، والوشايات، والإعدامات. أما الشريينة فقد اكتسحت مقاييس الزمن، وأخجلت الذاكرة الإنسانية، وذكّرت بذلك الذي لا ينسى. تعيش تلك الشريينة التي رأت موت نتاليا دولغوروكوفا، ورأت ملايين الجثث الخالدة في الجليد الأبدي، في مكان ما في الشمال، لكي ترى وتصرخ بأن شيئاً لم يتغير في روسيا. لا القدر، ولا الحقد الإنساني، ولا الاستهتار واللامبالاة. وما زالت نتاليا شيرميتيفا تكتب وتروي لنا كل ذلك بحزن وإيمان. رغم أن الشريينة أم الفنن الذي انبعث على طاولة موسكوفية تعيش الآن، فإن شيريميتيفا رحلت في طريقها الحدادي إلى بيريوزوف[26] الشبيه بالطريق إلى ماغادان، إلى ما وراء بحر أوخوتسكي[27]. أجل لقد سكبت رائحتها كما يسكب العصير. صارت الرائحة إلى لون وتلاشت بينهما الحدود.

تنفست الشريينة في الشقة الموسكوفية لتذكُر البشر بواجبهم الإنساني، كيلا ينسوا جثث ملايين المقتولين في الكاليما. لقد كانت تلك الرائحة الضعيفة، الراسخة صوت الأموات، وباسم هؤلاء الأموات تشجعت الشريينة على التنفس، والنطق، والحياة.

يلزم للانبعاث قوة وإيمان، فوضع الغصن في الماء ليس كل شيء على الإطلاق. أنا أيضا وضعت غصن شريين في قطرميز ماء، لكن الغصن جف، تلاشى، ولم ينبعث. بينما انبعثت الشريينة في شقة الشاعر في ماء القطرميز.

نعم، هناك أزهار البنفسج وبطمة الشمال برقتها التي تشغف القلوب، بينما الشريينة لا تصلح للرومانس، فالشريينة شجرة جدّية للغاية. إنها شجرة لتمييز الخير عن الشر، فهي ليست بتولى ولا تفاحة! الشجرة التي كانت في الجنة قبل طرد آدم وحواء منها. الشريينة شجرة الكاليما، شجرة معسكرات الاعتقال.

لا تزقزق العصافير في الكاليما. وأزهار الكاليما فاقعة، عجولة، حادّة، لا رائحة لها. الصيف فيها قصير وهواؤه باردٌ خالٍ من الحياة، وحرّه جاف، ولياليه قارسة البرد.

في الكاليما تنفح رائحة الورد الجبلي وأزهار الروبين فحسب، فلا تفوح هنا رائحة سوسن الوادي الزهري، ولا أزهار البنفسج الكبيرة، ولا العرعر، ولا الستلانيك الدائم الخضرة.

الشريين وحده يملأ الغابات برائحته العطرية. يخيل إليك أول الأمر أن هذه الرائحة رائحة التفسخ، رائحة تحلل جثث الموتى، رائحة الموت. ولكن حين تعبُّ هذه الرائحة بعمق أكبر تفهم أنها رائحة الحياة، رائحة مقاومة الشمال، رائحة النصر. فإن أية رائحة لا تنبعث هنا من الموتى فهم ممصوصو الدماء، ضامرون جداً، ومحفوظون بالتجميد في الجليد الأبدي.

كلا، فالشريينة شجرة لا تصلح للرومانسيات. لايمكن أن تغني لغصن شريين، لايمكن أن تؤلف فيه لحناً شاعرياً، فالكلمة هنا ذات عمق آخر، راقٍ آخر من الأحاسيس الإنسانية.

حين يرسل الرجل غصناً كاليمياً بالبريد الجوي، فهو يريد أن يذكّر ليس بنفسه. هو لايرسل الغصن ذكرى عنه، بل ذكرى عن ملايين المعذبين، المعدومين، المرميين في المقابر الجماعية شمال ماغادان. يُرسل هذا الغصن القاسي واللين في آنٍ معاً لمساعدة الآخرين على التذكُّر، لإزاحة ذاك الحمل الثقيل عن الروح: حمل أن ترى ذلك كله، وتجد في نفسك القوة على أن تسكت عنه، وألا تنساه في الوقت نفسه. يتبنى رجل وزوجته طفلة.. طفلة معتقلة لأم معتقلة ماتت في المشفى، ليأخذا على عاتقهما قسطاً من المسؤولية، ليؤديا بعض الواجب من منطلق ذاتي.

عندما أرسل الرجل الغصن لم يفكر، ولم يفهم، ولم يعرف أنه سينبعث في شقة موسكوفية، وأنه سيفوح كاليما، وسيزهر في واحد من شوارع موسكو، وأن الشريينة ستثبت قوتها، وستؤكد خلودها. إن حياة ستمائة عام يعيشها الشريين لخلود حقيقي في عمر الإنسان.

سيلامس الناس في موسكو هذا الغصن الإبري، القاسي، المتواضع، وسيمسدّون بأيديهم خضرته الباهرة، وانبعاثه، وسيستنشقون رائحته ليس كذكرى عن الماضي، بل كبداية لحياة جديدة.

«مطــــر»

لليوم الثالث على التوالي تابعنا التنقيب في مكان جديد. كان كل منا يحفر حفرته الخاصة به، وما من أحد تجاوز النصف متر في العمق، رغم أن الحدادين، على غير العادة، شحذوا أمخالنا وأزاميلنا دون إبطاء، فلم يكن لديهم ما يطرقونه من أدوات فمجموعتنا وحدها كانت تعمل دون الأخريات.

سبب كل ذلك كان المطر، الذي ما انفك يهطل بلا انقطاع لليوم الثالث على التوالي حتى ما عاد الواحد منا يعرفَ منذ متى ينهمر المطر على هذه الأرض، أمنذ ساعة أم منذ شهر! هذا المطر البارد الناعم كالرذاذ جعلهم يصرفون من العمل جميع المجموعات ـ مجموعات الجناة، لاعلينا، فمن منا لديه العزم ليغار ويحسد.

في هذه الأثناء، نادراً ما كان يأتي المراقب لتفقّدنا، المراقب ذو المعطف الشادري المطري العملاق بقبعته الحادة كما الهرم... فقد عقدت إدارة المعتقل آمالاً كبيرة على المطر، وعلى جداول الماء البارد المتدفق على ظهورنا. أجل، فقد بللنا الماء عن آخرنا، تبلل حتى لباسنا الداخلي منذ وقت طويل! لا، لايحق لي أن أقول ذلك، فمن منا كان يملك لباساً داخلياً حتى يتبلل.

لقد كان حساب الإدارة بسيطاً وهو أن المطر والبرد سيرغماننا على الحركة والعمل، لكن فاتهم أن كرهنا للشغل كان أقوى من كل ذلك.

كالعادة عند حلول المساء، يأتي مراقب العمل مع خشبته المدرجة إلى حفراتنا، ينزلها فيها لاعناً أمهاتنا، بينما الحارس يترصدنا من تحت قبعة الفطر الشهيرة كمحرس في معسكر الاعتقال.

لم يكن ممكناً أن نغادر حفراتنا، نرمى بالرصاص لو فعلنا، أن يتحدث بعضنا

مع الآخر، نرمى بالرصاص لو فعلنا.. وحده المراقب كان يحق له التجول بين الحفر. أما نحن فنقف صامتين في تلك الحفر، غارقين فيها حتى خصورنا، كأننا سبّحة ممتدة على طول المجرى الذي كان يوماً ساقية.

لم يتسن لنا أن ننشف معاطفنا، أما بدلاتنا فتركنا لأجسادنا أن تجففها ليلاً، وهي بالفعل تكاد تجف علينا مع حلول الصباح.

بت أدرك وأنا الجائع الحانق أن شيئاً في الدنيا، كائناً ما كان، لا يمكنه إرغامي على الانتحار. صرت أفهم غريزة التمسك بالحياة، الغريزة الجبّارة المتجذرة في الإنسان القوي الإرادة. لقد رأيت بأم عيني كيف كانت خيولنا تنهار وتخر صرعى. بلى، أقول خيولنا كانت تخر صرعى وأجد نفسي عاجزاً عن التعبير بصورة أخرى، أو استخدام أفعال بديلة، فالخيول لم تختلف بشيء عنا نحن البشر. لقد قتلها زمهرير الشمال، والعمل المجهد فوق الاحتمال، والطعام الشحيح الرديء، والضرب.. على الرغم من أن ذلك كله كان أخف عليها مما علينا نحن البشر بآلاف المرات، ومع هذا كانت تموت قبلنا.

بت أدرك الأهم. فالإنسان صار إنساناً ليس لأنه مخلوق رباني، وليس لأنه يملك أصابع طويلة رائعة في كلتا يديه، بل لأنه الأقوى عضلياً والأكثر تحملاً بين حيوانات العالم كلها، ومن ثم لأنه استطاع إرغام روحه على خدمة قواه العضلية بنجاح.. بلى، كنت أفكر بذلك كله مئات المرات وأنا في حفرتي، وأدرك كل مرة أنني لن أنتحر، لأنني أؤمن بغريزة التمسك بالحياة.

في حفرة كهذه، أو أعمق بقليل، نكشت منذ فترة وجيزة صخرة، ورحت أياماً متتالية أُحرِّر بعناية ثقلها الفظيع. أردت خلق شيء ما خيِّر من هذا الثقل الشرير. أردت إنقاذ حياتي بسحق قدمي. كان يجب أن تسقط الصخرة وتسحق قدمي، وإذا بي عاجز إلى الأبد.

خططت لهذا الحلم المخيف، حددت، بالضبط، المكان الذي يجب أن أضع قدمي فيه وجهزته، تصورت كيف أنني سأدير المخل على مهل،... وتهوي الصخرة. اليوم، الساعة، الدقيقة.. كانت كلها محددة وها هي قد أزفت. وضعت قدمي اليمنى تحت الصخرة المعلقة ممتدحاً أعصابي على هدوئها. رفعت يدي،

ودفعت طرف المخل المحشور تحت الصخرة. سقطت الأخيرة محاذية لجدار الحفرة في المكان المحدد بالضبط.. لكن شيئاً ما حصل، لست أدري كيف! لقد نترت قدمي جانباً، فإذا بها تنحصر بجدار الحفرة الضيقة، وإذا بهذا العمل المعد بإتقان يثمر عن رضين وثلاثة خدوش لا أكثر.

هكذا بت أدرك أنني لا أصلح للانتحار ولا حتى لتعوير أطرافي... فما بقي لي إذن إلا أن أنتظر حلول نجاح صغير محل هذا الفشل الصغير، وتلاشي الخيبة الكبرى. كانت الفوز الأقرب انتهاء يوم الشغل، وثلاث جرعات من حساء ساخن، وإن لم يكن ساخناً أسخنه على موقد الحديد، فلدي هنا علبة تنك تسع ثلاث ليترات. وربما لو رجوت ستيبان مناوب مهجعنا لهذا اليوم لأعطاني سيجارة أو عقباً أكمل تدخينه بدلاً عنه.

هكذا رحت أفكر بهدوء ـ مُبلَّلاً حتى آخر خيط ـ خالطاً في ذهني التساؤلات التافهة و(التساؤلات النجوم). ترى أكانت هذه التساؤلات والمحاكمات تمارين من نوع ما يقوم بها دماغي؟ لا، هي لم تكن كذلك بحال من الأحوال، بل كان كل ما جرى فيه طبيعياً، أليست هذه هي حياتنا! فالقصة وما فيها أن الإنسان... أن خلايا الدماغ... خلايا دماغي أنا لا تحصل على الغذاء الضروري، وهي تخضع للتجويع منذ زمن طويل، وأن هذا حتماً يؤدي إلى الجنون.. إلى ضعف مبكر في الذاكرة.. أو إلى شيء ما لست أدري ما قد يكون. لكن لابأس فإنما يُفرحني أن أفكر بأنني لن أبقى على قيد الحياة حتى تنوس ذاكرتي. لم يتوقف المطر عن الهطول.

رحت أتذكر تلك المرأة التي عبرت يوم أمس درباً ضيقاً قربنا، غير آبهة بصراخ الحراس. لوحنا لها محيين وخيل لنا أنها حسناء. كانت أول امرأة نراها منذ ثلاث سنوات. لوحت لنا بيدها مشيرة إلى السماء، إلى ماوراء الأفق صائحة: قريباً ياشباب، قريباً. كان ردنا عليها هياجاً فرحاً. لم أر تلك المرأة بعد ذلك اليوم. كيف تُراها استطاعت أن تدرك أحلامنا بذلك العمق وتهدئنا على ذلك النحو؟! مازال السؤال يشغلني إلى الآن. هي عندما أشارت إلى السماء لم تكن تقصد الخلاص. قطعاً، لا، إنما كانت تشير إلى الشمس المتوارية باتجاه الغرب، إلى أن نهاية يوم العمل توشك على الأزوف.

رحت أفكر على خلفية رذيذ المطر بحكمة تلك المرأة البسيطة بائعة الهوى، فما من امرأة سواها في هذه الأصقاع. رحت أفكر بقلبها العظيم... أفكر والشاطئ الصخري الرمادي اللون، والجبال الرمادية، والمطر الهاطل الرماي، والسماء الرمادية، والمعتقلون في ألبستهم الممزقة الرمادية.. كل هذه الاشياء كانت رخوة منسجم بعضها مع بعض انسجاماً شيطانياً. انسجام اللون الواحد الرمادي.

وأنا غارق في لجة أفكاري دوت صرخة مكبوتة من الحفرة المجاورة لحفرتي. حيث كان يعمل جاري رازوفسكي المهندس الزراعي، المتوسط العمر، ذو المعرفة العميقة التي كمعارف غيره من الأطباء والمهندسين والاقتصاديين لاحاجة بأحد إليها في المعتقلات. ناداني باسمي فسألته صائحاً ما الأمر؟ غير مكترث بحركات الحارس المتوعد من بعد، من تحت الفطر.

ـ اسمع، اسمع ـ صاح رازوفسكي ـ فكرت طويلاً.. وأخيراً فهمت.. فهمت أنه لا معنى للحياة... لامعنى لـ.. وما أن سمعته يقول ذلك حتى قفزت من حفرتي، وركضت إليه قبل أن يَنقضَّ على الحارس. تحرك نحونا على عجل كلا الحارسين فبادرتهما:

ـ إنه مريض.. إنه يتألم.

وإذا بصفير بعيد خنقه صوت الهطول يُنبئ بانتهاء يوم العمل، تناهى إلى سمعنا فبدأنا نعد العدة للانصراف.

بعد تلك الحادثة اشتغلت فترة أخرى مع رازوفسكي، انتهت بإلقاء نفسه تحت عربة ثقيلة تندفع منحدرة من أعلى التل. ورغم أن رجله حشرت تحت الدولاب إلّا أن العربة نطت فوقها دون أن تترك حتى أثراً لكدمة زرقاء. قُدِّم رازوفسكي للمحاكمة على محاولته تلك، وافترقنا منذ ذلك الحين، فهناك قانون يحظر إعادة المُحاكَم إلى منطقة عمله السابقة خشية أن ينتقم من المحقق والشهود، والحديدةُ حامية. إنه كان قانوناً حكيماً، لكن بالنسبة لرازوفسكي كان يمكن الاستغناء عنه.

«الصليب»

خطا القسيس الأعمى عبر فناء الدار، متحسساً بقدميه الدرب الخشبي الضيّق، الأشبه بممر باخرة مفروش على الأرض. سار القسيس ببطء، دون أن يتعثر أو تزل قدمه، واطئاً بنعل جزمته العملاقة البالية طريقه الخشبي، حاملاً في كل من يديه دلو ماء يتصاعد منه البخار لعنزاته المحبوسات في الحظيرة المظلمة الواطئة.

كانت لديه ثلاث عنزات، اختيرت ألقابها بمهارة، بأحرف ساكنة مختلفة: إيلا، وتونيا، وماشكا. تجاوبت مع ندائه عادة تلك العنزة التي يناديها دون غيرها، أمّا صباحاً، ساعة تقديم الفطور فكانت العنزات تمأمىء معاً، بصورة فوضوية، بأصواتها الحادة، حاشرة أبوازها في شق باب الحظيرة المطل على الفناء.

من نصف ساعة قام القسيس الأعمى بحلب عنزاته في دلو الحلابة الكبير، ثم أخذ الحليب الدافئ إلى البيت. كان، غالباً، يخطئ في عتمته الأبدية أثناء الحلابة، فتأتي ترعة الحليب النحيلة خارج الإناء، دون أن تشخب فيه، فتنظر العنزات بحسرة إلى حليبها المهدور على الأرض.. أو لعلها لا تلقي إليه بالاً. كان القسيس يخطئ أثناء الحلابة ليس لأنه أعمى، فقد كانت تأملاته تعيقه ربما أكثر من عماه. غالباً ما كانت الضغطات الرتيبة لأصابعه الدافئة على الحلمات الفاترة تجعله ينسى نفسه، وينسى عمله، ويسرح مع هموم عائلته.

فقد القسيس بصره بعد أن سمع بموت ولده، المقاتل في الجيش الأحمر، الذي قتل على الجبهة الشمالية. منذئذ اشتد عليه الماء الأزرق فما عاد يرى. كان لدى القسيس أولاد آخرون: صبيان وبنات، لكنه كان مولعاً بهذا الوسطاني الذي مات، وكما لو أنه كان ولده الوحيد.

العنزات ورعايتها، وعلفها، وحلابتها، وتنظيف الحظيرة من حولها.. وأشياء أخرى كان القسيس الأعمى ينهض بها بنفسه. كان هذا العمل اليائس غير المجدي محاولة لإثبات الذات في هذه الحياة. فلقد اعتاد الأعمى أن يكون معيلاً لعائلته الكبيرة.. اعتاد أن يمارس عملاً، ويشغل مكاناً في الحياة لا يتعلق بأي كان، لا بالمجتمع ولا حتى بأولاده.

أمر القسيس زوجته أن تُدوِّن بدقة مصاريف عنزاتهم والدخل الناتج عن بيع حليبها في فصل الصيف. كان الناس في ذلك الزمان يقبلون على شراء حليب الماعز باندفاع، معتقدين أنه يفيد المسلولين.. ولم يكن لهذا الاعتقاد وزن طبي كبير، شأنه شأن الوجبات الشهيرة من لحم الجراء السوداء، الموصوفة، الله يعلم مِن قِبَلِ مَن، للمسلولين أيضاً.

تناول كل من الأعمى وزوجته كأس حليب، أو كأسين في اليوم، وكان يجب ألّا تنسى تسجيل قيمة هذين الكأسين أيضاً في دفتر الحسابات. منذ الصيف الأول بات واضحاً أن سعر العلف أعلى بكثير من قيمة الحليب، ناهيك عن ضريبة هذه الحيوانات الصغيرة التي لم تكن صغيرة بتاتاً، ورغم ذلك كانت الزوجة تخفي عن زوجها الحقيقة، وتقول له إن العنزات تُؤمِّن لهما بعض الدخل.

حمد القسيس الأعمى الله على ما وهبه إياه من قدرة على إعانة زوجته بطريقة ما.

كان الجميع ينادون زوجته قبل عام 1928 بـ «ماتوشكا» ثم ما لبثوا أن كفّوا عن ذلك في العام التالي حين فُجرّت جميع كنائس المدينة تقريباً. بينما حُوّلت كنيسة «خولودني» التي كان يصلي فيها إيفان الرهيب[28] في وقت ما إلى متحف.

كانت زوجة القسيس سمينة في ذلك الحين، حتى إن ابنها الصغير، الذي لم يكن يتجاوز الستة أعوام، كان يبكي ويتشاقى رافضاً السير معها صارخاً: «لا أريد الذهاب معك.. أخجل من السير معك وأنت سمينة إلى هذا الحد» أما الآن، فلم تعد سمينة كما كانت من زمان.. مع أن السمنة المرضية لمعتلي القلوب لم تفارق

جسدها، فهي بشق النفس تتنقل في أرجاء الغرفة مجرجرة قدميها من الموقد إلى المطبخ إلى النافذة.

كان القسيس في البداية يرجو زوجته أن تقرأ له بضع صفحات.. بيد أن شيئاً ما كان دائماً يشغلها عن القراءة. كانت تجد لنفسها ألف شاغل وشاغل في البيت: تحضير الطعام لزوجها ولنفسها وللعنزات.. أما إلى الحوانيت فكانت لاتخرج إلاّ ما ندر، إذ إن أولاد الجيران كانوا يشترون لها الأشياء القليلة التي تحتاجها، وهي مقابل ذلك تحشر في أيديهم قنداً ما.

هناك على طرف الموقد الروسي يرقد (كوتيول) فولاذي، هكذا يسمون هذا الوعاء في الشمال. كان القدر المعدني مثني الحافة. كانت حافته قد (طعجت) منذ أن تزوجا. من هذا الطرف المثني كان يسكب الشراب الساخن للعنزات فيسيل على طرف النافذة، ويزرب منها إلى الأرض.

إلى جانب هذا الوعاء يرقد قدر عصيدة صغير فيه غداء القسيس وزوجته. حاجات الناس كانت أقل بكثير من حاجات الحيوانات، ومع هذا كان هناك ما يحتاج إليه الناس. كانت أعمال المنزل قليلة، ورغم ذلك كان على زوجة القسيس أن تتنقل من مكان إلى آخر في الغرفة.. وهي تفعل ذلك ببطء شديد متكئة على قطعة أثاث هنا وأخرى هناك. وما أن يأتي المساء حتى يتملكها التعب، فلا تجد في نفسها القوة لتقرأ لزوجها شيئاً مما يريد. يستولي عليها النعاس، فيستولي عليه الغضب. كان القسيس رغم سعيه إلى النوم طوال الوقت يغط في النوم ساعات قلال فحسب. ذات مرّة سأل الابن القادم في إجازة قصيرة أباه، قلقاً عليه، مقهوراً من حالته البائسة:

ـ لماذا تنام طوال الوقت في الليل والنهار ياأبي؟!

ـ يالك من أحمق ـ أجاب القسيس ـ أنا عندما أكون نائماً أرى.. وما استطاع ابنه بعد ذلك نسيان هذه الكلمات.

عاش البث الإذاعي طفولته آنذاك. زعقت أجهزة المذياع عند الهواة. سمع القسيس بوجود المذياع، لكنه كان يدرك جيداً أن أولاده، المشتتين في أصقاع البلاد، لن يستطيعوا جمع ما يكفي من المال لشراء حتى السماعات من أجله.

لم يستطع الأعمى أن يفهم لماذا كان عليهم منذ سنوات أن يغادروا تلك الغرفة التي آوتهم أكثر من ثلاثين عاماً. حينذاك همست له زوجته بشيء ما غامض ومضطرب، محركة فمها الأخرق العملاق الذي ينفتح وينغلق بلا انقطاع، لكنها لم تقل له الحقيقة في يوم من الأيام. لم تخبره بأن رجال الشرطة أخرجوا من باب غرفتهم البائسة تلك الكراسي المحطمة، والكومود العتيق، وعلبة الصور، والطناجر والقدور، وما تبقى من مكتبتهم العملاقة من كتب قلائل، والصندوق.. ذلك الصندوق الذي يأوي آخر صليب.. لم يفهم الأعمى شيئاً مما كان يجري. لقد سحبوه إلى منزل آخر، فبقي صامتاً يُصلّي في سره للّه. جرّوا معهم إلى البيت الجديد عنزاتهم وهي تمأميء غير فاهمة هي الأخرى ما يجري من حولها. في البيت الجديد قام صاحبهم النجار بتجهيز زاوية من أجل سُكناها. فقدت في خضم فوضى الانتقال العنزة إيرا، التي كانت رابعتهن.

كان القاطنان الجديدان ـ قاضي المدينة الجديد وزوجته المتأففة يقيمان في فندق (سنترالنايا) بانتظار أن يخبروها بنبأ خلو شقة القسيس الواقعة على ضفة النهر. كانوا قد نقلوا حدّاداً وعائلته من الشقة المقابلة إلى الغرفة التي كان يشغلها القسيس ليخلوا غرفتي الحداد للقاضي الشاب، الذي لم ير في حياته لا القسيس ولا الحداد في (مكانهما الحي). لم يكن القسيس وزوجته يتذكران بيتهما ذاك إلا نادراً. هو.. لأنه أعمى، وهي.. لأنها رأت هناك من الويلات أكثر بكثير مما رأت من الهناء. لم يخطر ببال القسيس في يوم من الأيام أن زوجته كانت تخبز الفطائر وتبيعها في السوق، وكانت تكتب الرسائل باستمرار لجميع معارفهم، وأقربائهم كي يعينوها ويعينوه بما يقدرون. كان أحدٌ ما يرسل أحياناً بعض المال.. القليل من النقود، وعلى قلتها كان يمكن أن تشتري بها التبن والكسبة للعنزات، وتدفع أجرة الراعي، وتسدد ضريبة هذه الحيوانات.

كان يجب أن تباع العنزات منذ أمد طويل، فلا طائل منها إلاّ الشقاء. لكن المرأة كانت تخشى حتى التفكير بهذا الأمر، فلا شيء يشغل زوجها إلاّها.. كيف لها أن تخوض معه إذن في مثل هذا الموضوع.. وهي تعرف أي رجل نشيط همّام كان قبل عماه الرهيب. وهكذا بقيت الأمور على ماكانت عليه.

أبردت العجوز رسائلَ لأولادها الذين كبروا وتزوجوا من زمان. وهم

بدورهم أبردوها رسائل الجواب. بيد أنه كان لدى كل منهم مايكفيه من المشاغل.. والأولاد.. في الحقيقة لم يكونوا جميعاً يكاتبون أمهم. فقد تخلى الابن البكر عن أبيه منذ العشرينات. فعندما كان دارجاً التخلي عن الأهل صار العديد من الكتّاب والشعراء المشهورين يبدأون حياتهم الأدبية بتصريحات من هذا القبيل.أما ابنهم، فلم يكن لاشاعراً ولا نذلاً.. هو فقط أصابه الخوف عندما صاروا يضيقون عليه في عمله، متسائلين عن منبته الاجتماعي، فكتب تصريحاً إلى الجريدة يتخلى فيه عن أبيه. بيد أن التصريح لم يأت بالثمار المرجوة، فحمل الابن وصمة قابيل معه حتى القبر.

بنات القسيس تزوجن من زمان، وعاشت البكر منهن في مكان ما في جنوب البلاد. ابنته هذه كانت تخاف زوجها ولاتملك حق التصرف بالمال، لكنها لم تكن تبخل بالرسائل الدامعة، المليئة بالمآسي. كانت والدتها تجيبها على رسائلها، ساكبة بدورها الدموع فوق أوراق المكاتيب، مهدئة من روع ابنتها التي كانت ترسل إلى أهلها، عدا عن المكاتيب، عشرات الكيلوغرامات من العنب كل عام. إنما الجنوب بعيد، والزمن اللازم لوصول الطرود طويل. لم تخبر الأم ابنتها في يوم من الأيام بأن العنب يصل مهترئاً كل عام..وبالكاد تستطيع إيجاد بضع حبات صالحة للأكل في الصندوق. على العكس من ذلك كانت تشكرها بمذلّة، كل مرّة، وتحجم خجلة عن طلب المال.

أما البنت الثانية فكانت تعمل ممرضة، وقد قررت بعد زواجها توفير راتبها الضئيل وإرساله لأبيها الأعمى. لم يعارض زوجها، الذي كان يعمل ممثلاً نقابياً، رغبتها، وبالفعل أرسلت البنت ما تقاضته لثلاثة شهور متتالية.. إنما ما أن أنجبت طفليها التوأمين حتى اضطرت إلى ترك العمل لتدور حولهما ليل نهار. ولم ينقض وقت طويل حتى تبين أن زوجها النقابي سكير مدمن راح ينحدر في السلم الوظيفي إلى أسفل فأسفل، فما انقضى عامان حتى صار مجرد موظف تموين بسيط... وهنا أيضاً لم يستطع التمسك بوظيفته أكثر من عام. وهكذا بقيت زوجته وطفليهما من دون معيل، فما كان أمامها إلاّ الرجوع إلى عملها من جديد لتكدح قدر ما تستطيع، وتعيل نفسها وطفليها براتب التمريض الضئيل.. فهيهات لها أن تعين أمها العجوز وأباها الضرير.

كان ابنهما الصغير عازباً، ولا شيء يضيره لو يعيش مع أمه وأبيه، لكنه قرر تجريب حظه في الحياة بعيداً عنهما. كان ابنهما الأوسط قد خلّف إرثاً هو بارودة صيد تكاد تكون جديدة. أمر القسيس زوجته أن تبيعها، فباعتها بتسعين روبلاً. فصّلا لابنهما قميصين جديدين من الساتان السميك بعشرين روبلاً، قبل سفره إلى بيت عمته في موسكو، ليعمل شغيلاً في أحد مصانع المدينة. صار ابنهما الأصغر هذا يرسل نقوداً لوالديه.. مبلغاً صغيراً من خمسة إلى عشرة روبلات وهذا القليل أيضاً انقطع، فلم يطل الوقت حتى اعتقل إثر مشاركته في اجتماع سري، ونفي فضاع له كل أثر.

ينهض القسيس وزوجته في السادسة صباح كل يوم. تشعل العجوز النار في الموقد، ويذهب الأعمى لحلابة العنزات. لا نقود لديها، غير أنها كانت تستطيع بُعَد استلاف بضع روبلات من الجيران.. إنما هو دين، ويجب أن يعاد إلى مانحيه، وليس في البيت ما يصلح للبيع. كل ما يملكونه من ملابس، وأغطية، وشراشف، وكراسي.. كل شيء كان قد بيع من زمن طويل، واستبدل بكسبة للعنزات، وحبوب للحساء. حتى خاتما الزواج بيعا مع سلسلة العنق الفضية من العام الماضي في محل المجوهرات. لا الحساء يطبخ باللحم إلاّ في الأعياد الكبرى، ولا السُكّر يوضع في الشاي إلا في الأعياد، أيضاً، فلا مال يشترون به أي شيء.

أحياناً كان يعّرج شخص ما من معارفهما، حاملاً رغيف خبز أبيض، أو قطعة سكاكر فتأخذها الأم العجوز وتحشرها بين أصابع زوجها الأعمى العصبية، الجافة، المرتجفة بلا انقطاع. يضحكان معاً حينذاك ويقبّل واحدهما الآخر. يقّبل القسيس أصابع زوجته المتورمة، المتشققه، المتسخه، المشوهة، جرّاء العمل المنزلي اليومي المرهق فتبكي العجوز مقبلّة رأسه، ثم يشكرها وتشكره على كل طيب قدمه الواحد منهما للآخر في حياته، وعلى ما يقدمه الآن.

كان القسيس يقف قبالة الأيقونة كل مساء، مصلياً بحرارة، حامداً الله على زوجته. كان يفعل ذلك كل مساء، إنما كانت وقفته لا تأتي أحياناً قبالة الأيقونة بالضبط، فتجرجر العجوز جسدها عن السرير، وتمسكه من كتفيه، وتدير وجهه ليقابل رسم يسوع المسيح. أما هو فكان ذلك يغضبه.

كانت العجوز تتهرب من التفكير بالغد. لكنه جاء أخيراً ذلك الصباح الذي

لم يعد لديهم فيه ما يطعمونه للعنزات. كان القسيس قد نهض وبدأ يرتدي ثيابه ساحباً جزمته من تحت السرير، وإذا بالعجوز تنشج مجهشة بالبكاء، كما لو أنها المذنبة في عدم وجود الطعام.

احتذى الأعمى جزمته، وجلس في كرسي الجلد الصناعي.. الكرسي الوحيد المتبقي، لم يكن الأعمى يعرف أن بقية الأثاث بيعت، فالعجوز كانت تقول إنها أهدتها لبناتها المتزوجات. جلس صامتاً، ملقياً برأسه إلى مسند الكرسي، دون أن ترتسم إشارات الحيرة على وجهه، وقال ماداً يديه محركاً أصابعه باتجاهها:

ـ هاتي الصليب.

ما إن سمعت ذلك حتى جرجرت قدميها باتجاه الباب، ودربسته. تعاونا معاً على رفع الطاولة وسحب الصندوق من تحتها. أخرجت العجوز مفتاحاً من علبة الخيطان فتحت به الصندوق. كان الصندوق مليئاً بأشياء وأشياء: قمصان ولاديه للصبيان والبنات، رزم رسائل اصفرّ ورقها كُتبتْ منذ أربعين عاماً، شمعات العرس المزخرفة بشريط من الشمع تفتت من زمان، كرات صوف متعددة الألوان، لفافات خرق للرقعات... وأسفل كل هذه الأشياء علبتان صغيرتان، كالعلب التي تحفظ فيها الميداليات، والساعات، والمجوهرات.

تنهدت العجوز تنهيدة عزّة ثقيلة، ثم نهضت وفتحت العلبة، التي كان يرقد فيها على وسادة جديدة من الحرير صليب ذهبي نُحِتَ عليه يسوع مصلوباً. كان الصليب مائلاً للحمرة، من الذهب الخالص تحسسه القسيس الأعمى بأصابع يديه، ثم قال بصوت منخفض:

ـ اعطني البلطه.

ـ لا، لا تفعل، همست العجوز معانقة زوجها الأعمى، محاولة تخليص الصليب من بين يديه. لكنه نتره من بين أصابعها المكبتله، المتورمة، خادشاً يدها خدشاً مؤلماً.

ـ هاتي البلطة، هاتها قلت لك، وهل الله في هذا؟!

ـ لن أجلبها، قم بذلك بنفسك إن أردت..

ـ بلى، بلى، سأقوم بذلك بنفسي، أجل.. وحدي.

جذّفت زوجة القسيس نصف المجنونة من الجوع باتجاه المطبخ، حيث ترقد البلطة في العادة قرب كومة القرم الجافة المقطّعة لإضرام النار، وتسخين السماور. وهاهي قد جاءت بالبلطة إلى الغرفة، وتأكدت من قفل الباب، وبكت زاعقة بلا دموع.

ـ لا تنظري. قال لها، واضعاً الصليب على الأرض. لكنها لم تستطع إلاّ أن تنظر. رقد الصليب مطبوباً على تمثال المسيح. تحسسه القسيس الأعمى بأصابعه وهوى عليه بالبلطة. قفز الصليب من مكانه، ورن رنة خفيفة عند سقوطه على الأرض. لقد أخطأ الأعمى هدفه. فتش عنه، فعثر عليه، ووضعه من جديد على الأرض حيث كان، ثم رفع البلطة وهوى بها. انثنى الصليب هذه المرّة، وصار بالإمكان فصله بأصابع اليد إلى قطعتين. الحديد أقسى من الذهب لذلك لم يكن من الصعب بتر الصليب.

لم تعد زوجة القسيس تعول ولم تعد تبكي، فلكأن الصليب المقطّع لم يعد مقدساً، بل صار ببساطة معدناً ثميناً، صار ذهباً. قامت العجوز متلهّفة، ولكن ببطء شديد، بلّف قطع الصليب في خرقة، ثم وضعته في علبة الميداليات، ليرقد على وسادته من جديد. ثم وضعت نظارتها و تفحّصت شفرة البلطة بإمعان فلربما علق بها بعضٌ من فتات الذهب.

بعد ذلك، أُعيدت الأشياء إلى مكانها في الصندوق، وحشر الأخير حيث كان. لبس القسيس معطفه المطري وخطا عبر فناء الدار، بجوار الدرب الخشبي لحلابة العنزات. مضى وقت طويل، ولم يعد القسيس من الحلابة بعد. لقد انتصف النهار، وفتحت المحلات أبوابها من زمان، أما محلات المجوهرات، حيث كان الذهب يبادل بالطعام فتفتح أبوابها في العاشرة من الصباح. لكن القسيس لم يعد إلى البيت بعد.

«خبز الآخرين»

كان ذلك الخبز غريباً، كان خبز رفيقي، الذي وثق بي دون الآخرين. كان قد ذهب ليعمل في وردية نهارية، وترك خبزه في عهدتي في حقيبتي الصغيرة المصنوعة من الخشب.

لا أحد يصنع مثل هذه الحقائب الآن، أما في أعوام العشرينيات فإن الحسناوات الموسكوفيات كن يتغندرن بحقائب شبيهة بها، كانت تصنع من جلد التماسيح.

لدي في الحقيبة خبز، حصة يوم كامل من الخبز. إذا حركّت الحقيبه بيدي فإن قطعة الخبز تنقلب داخلها، وتخشخش. وضعت هذه الحقيبة تحت رأسي مباشرة. لم أنم طويلاً. على أية حال، أنى للشخص الجائع أن يغفو بعمق! أما أنا، فلم أغف ليس لأنني كنت جائعاً، بل لأن ذهني كان مشغولاً بالخبز.. بالخبز الغريب.. بخبز رفيقي.

جلست على السرير... خيل إلي أن الجميع ينظرون نحوي، وأن الجميع يعلمون ما أنوي فعله. بينما كان المناوب يضع خرقة على شيء ما قرب النافذة، كان معتقل آخر، لا أعرف اسمه، يعمل مثلي في الوردية الليلية يستلقي على ظهره، في مكان ليس له، في وسط البرّاكة، قدماه باتجاه المدفأة الحديدية، الحامية وجههُ باتجاه السقف. أما أنا فلم يكن الدفء يصل إلي. خطوت نحوه... عيناه كانتا مغمضتين. نظرت باتجاه التخوت الفوقانية، كان هناك واحد ما نائماً في زاوية البّراكة، أو ربما كان مستلقياً فحسب، وكان يلتحف مزقاً بالية. عدت واستلقيت في مكاني السابق مصراً بحزم على أن أغفو. عَدَدْتُ حتى الألف علّ

النوم يسيطر علي.. نهضت من جديد. فتحت الحقيبة وأخرجت قطعة الخبز، كانت باردة، جافة، كقطعة خشب وكان وزنها ثلاثمائة غرام. قرّبتها من أنفي، فالتقطت فتحتا منخري في السر رائحة الخبز الخفيفة. أعدت الخبز إلى الحقيبة، ثم.. ثم أخرجته من جديد.

قلبت الحقيبة، ونفضت على راحة يدي ما في أسفلها من فتات الخبز الناعم. لعقته بلساني.. ملأ اللعاب فمي، وراح فتات الخبز يذوب فيه. لم أعد أستطيع التحمل. تنشت ثلاث نتف صغيرة بحجم ظفر الخنصر، ثم أعدت الخبز إلى مكانه في الحقيبة، واستلقيت.

أخذت هذه النتف ورحت أمصها بهدوء، ثم غفوت بإباء، فأنا لم أسرق خبز رفيقي.

«بيردي أونجي»

تلك المزحة التي تحولت إلى رمز.. واقعية مليئة بالحياة. فقد تعامل الناس مع الملازم الثاني كيجي[29] كإنسان حقيقي حي، أما أنا فلم أستطع تقبّل ما قصه علينا يوري طينيانوف كواقع حي. كانت تلك القصة العجيبة التي وصلتنا من أيام بافل[30]، في نظري، مزحة شريرة أطلقها أحد رجال البلاط المترفين ثم ما لبثت أن تحولت خارج رغبة مؤلفها إلى رمز هام من رموز سلطة القصر. قطار ليسكوف قصة على شاكلتها تعكس الأخلاق الموروثة للدولة الاستبدادية. لقد بقيت واقعة الخطأ الديواني القيصري موضع شكي حتى عام 1942.

كان الملازم كورشاكوف قد اكتشف عملية الفرار في محطة نوفوسيبيريسك للقطارات. قاموا بإخراج جميع المعتقلين من العربات، وصاروا يحصونهم تحت رذاذ المطر الناعم البارد. صاح كل معتقل حسب ورود اسمه في القائمة بالمادة التي حوكم عليها، ومدة حكمه، لكن هذا الإجراء لم يُجدِ نفعاً. كان هناك ثمانية وثلاثون نسقاً في كل منها خمسة معتقلين، أما في النسق التاسع والثلاثين فقد وقف معتقل واحد وليس اثنان، كما كانت عليه الحال عند شحن المعتقلين.

لعن كورشاكوف اللحظة التي قَبِلَ فيها مرافقة هذه الدفعة من دون أضابير، معتمداً قائمة الأسماء فقط، فها هو المعتقل المسجل تحت رقم 60 يختفي.

تعرضت القائمة للدعك والاحتكاك، ولم يكن ممكناً تجنب تعرضها للمطر. في خضم اضطرابه بالكاد استطاع كورشاكوف التحقق من الأسماء.. وقد كانت الكلمات تسبح بالفعل. لا أثر لصاحب الرقم 60.. وقد تجاوزوا نصف الطريق.

كان العقاب على أمر كهذا صارماً. ها هو كورشاكوف يتهيأ لوداع الكتافيات وما يرتبط بها من مخصصات.. ويمسك الخوف بخناقه من إمكانية إرساله إلى الجبهة، فالحرب مستعرة في عامها الثاني هناك فيما هو هنا يتنعم بالخدمة في حرس نقل المعتقلين.

كان كورشاكوف قد أثبت أنه ضابط دقيق منضبط بالفعل. فقد قام عشرات المرات بمرافقة دفعات المعتقلين الكبيرة منها والصغيرة، وقاد القوافل، وعمل في الحرس الخاص... ولم يحدث أبداً أن فرّ أيٍ من معتقليه في يوم من الأيام. زد على ذلك فإن كورشاكوف حصل على ميدالية لقاء «تميزه القتالي».. لقد كانوا يقلدون مثل هذه الميداليات حتى في عمق المؤخرة.

جلس كورشاكوف في عربة الحرس، وراح يدقق مغلف الأوراق اللعينة، بأصابعه الزلقة المبللة بماء المطر، المرتجفة من القلق والخوف: أوراق إطعام، رسالة موجهة من السجن إلى معسكر الأشغال الشاقة، الذي يسوق إليه دفعة المعتقلين، قائمة أسماء.. قائمة.. قائمة.. وفي كل هذه الأوراق لم تتوقف عيناه إلا عند الرقم 192. فمائة وواحد وتسعون معتقلاً كانوا محشورين في عربات بضائع لا منفذ فيها، مبللين حتى آخر خيط بماء المطر، يحاولون شاتمين، لاعنين، تجفيف ستراتهم ومعاطفهم في تيار الهواء المتسلل عبر شقوق العربات.

بدت الحيرة جلية على وجه كورشاكوف، لقد باغته الفرار. صمت رجال الحرس غير المناوبين مذعورين في زاوية عربة البضائع المخصصة للحراس، أما لازاريف مساعد كورشاكوف فقد انعكس على وجهه كل ما كان مرتسماً على وجه رئيسه من عجز وهلع...

ـ ما العمل؟ ـ سأل كورشاكوف ـ ما العمل؟

ـ اعطني القوائم

مدّ كورشاكوف باتجاه مساعده لازاريف عدة أوراق مكرمشة، مجعوكة، مغروزة معاً بدبوس.

قرأ لازاريف:

ـ رقم ستون، أونجي يبردي، المادة مائة واثنتان وستون، المدة عشر سنوات، لص.

ثم تابع متنهداً:

ـ لص، وحش...

لقد أتقن الحراس القاموس الجنائي، نتيجة تعاملهم الطويل الأمد مع عالم الجناة، حيث كان هؤلاء يطلقون كلمة وحش على مواطني آسيا الوسطى، والقوقاز، وما وراء القوقاز.

ـ وحش ـ أكد كورشاكوف ـ إنه على ما أظن لا يجيد حتى التحدث بالروسية. ثم أكمل مغمغماً متفكراً:

ـ سيسلخون جلدنا، يا أخي، على هذا الفرار

بعد ذلك قرّب قائمة الأسماء من عينيه وقرأ بنبرة تفيض حقداً:

ـ يبردي...

قال لازاريف فجأة بصوت استعاد رباطة جأشه، بينما ارتفعت مقلتاه اللامعتان، المتراقصتان إلى أعلى:

ـ بل، يمكن أن ننفد بجلدنا... لدي فكره. ثم همس في أذن كورشاكوف على عجل بما يفكر به..

هزّ الملازم رأسه بارتياب:

ـ لن تنجح خطتك...

ـ يمكن أن نجرّب، فالزمن زمن حرب.

ـ جرّب، يمكننا المكوث هنا يومين آخرين، لقد تأكدت من هذا الأمر في المحطة.

ـ اعطني مالاً.

وما أن حل المساء حتى عاد لازاريف، وقال متوجهاً إلى كورشاكوف:

ـ إنه تركماني.

اتجه كورشاكوف إلى عربات البضائع، فتح باب أول عربة باحثاً بين المعتقلين عمن يعرف ولو بضع كلمات بالتركمانية. كان الجواب لا، لا يوجد أي ناطق بها. لم يذهب كورشاكوف إلى أبعد من ذلك، بل قام بدفع أحدهم مع حاجياته إلى داخل العربة التي هرب منها المعتقل، بينما قام الحراس بحشر واحد ما، متعلّم على ما يبدو في العربة الأولى وهو يصرخ بصوت مجرّح مبحوح، بلغة غير مفهومة، بكلمات ما هامّة.. ومخيفة.

ـ الملاعين، قبضوا عليك. قال ذلك معتقل طويل القامة وهو يُفسح مجالاً لمرور «الرجل الفار» الذي قام في الحال بالارتماء عند قدمي الطويل وضمهما، مجهشاً بالبكاء. عندئذ خاطبه الطويل بصوته الأجش:

ـ روّح عن نفسك، اسمع، خلِّ عنك يا رجل.

تحدث «الفار» بسرعة عن شيء ما غير مفهوم. قال له الطويل:

ـ لا أفهم يا أخي ما تقول.. خُذ إليك بعض الحساء كُلهُ، بقي لدي منه شيئاً في القدر.

التهم الفار الحساء، وغطّ في النوم. وما أن استيقظ في الصباح حتى عاد يصرخ، ويبكي، ومن جديد اندفع إلى قدمي كورشاكوف الواقف خارج العربة وركع عندهما. جرّه الحراس إلى العربة من جديد. ومنذ تلك اللحظة وحتى آخر الطريق راح يحشر جسده تحت السرير، ساكباً الدمع بصمت، ليخرج فقط عندما يوزعون الطعام.

أخيراً تم تسليم دفعة المعتقلين على خير ما يرام. خرج القومندان المناوب قاذفاً رشقة شتائم باتجاه السجن الذي أرسل الدفعة دون أضابير خاصة بالمعتقلين. ولكنه رغم ذلك بدأ باستلام الدفعة منادياً بالأسماء حسب تسلسل ورودها في القوائم ليخرج أصحابها من العربات. خرج تسعة وخمسون معتقلاً، وبقي المعتقل الستون.

ـ هذا هو الفار ـ قال كورشاكوف ـ أفلت منا في نوفوسيبيريسك، لكننا عثرنا عليه في البازار. تمرمرنا حتى قبضنا عليه، وحش.. لا يفقه بالروسية ولا كلمة ها هو.

دفع كورشاكوف يردي من كتفه. لقّم الحراس رشاشاتهم. دخل يردي المعتقل.

ـ ما هي كنيته؟

ـ ها هي...

أراه كورشاكوف مكان كتابة الكنية في القائمة. قرأ الأخير

ـ أونجي يردي، المادة المائة والثانية والستون، المدة عشر سنوات.. وحش، شرس...

كتب القومندان بجانب اسم يردي بيد حازمة: «عنده ميول للهرب، حاول الفرار في الطريق إلى المعتقل».

لم تمض ساعة من الوقت حتى أرسلوا في طلب يردي. قفز من مكانه فرحاً، معتقداً أن كل شيء سينجلي، وسيعود حرّاً بعد قليل. مشى فرحاً، مسرع الخطو أمام الحراس، فيما هم اقتادوه إلى براكة في آخر ساحة المعتقل، محاطة بثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة، وهناك دفعوه عبر أقرب الأبواب إلى الظلمة النتنه، حيث تهدر أصوات المعتقلين.

ـ وحوش، يا إخوان...

التقيت يردي أونجي في المستشفى. كان قد تعلم التحدث بالروسية بعض الشيء. قص علي كيف حاول جندي روسي مسلح التحدث معه في السوق من ثلاثة أعوام.. كما يظن يردي. أخذ الجندي المسلح الرجل التركماني إلى محطة القطار مدعياً ضرورة التحقق من شخصيته. وهناك قام بتمزيق وثائق الرجل ودفع به إلى عربة المعتقلين. توشاييف هي كنية يردي الحقيقية، وهو فلاح من قرية نائية قرب تشاردجاو. سافر مع صاحب له يعرف الروسية قليلاً إلى توفوسيبيريسك بحثاً عن لقمة العيش، لكن هذا الصاحب ذهب إلى مكان ما في السوق...

حكى لي أيضاً إنه كتب عدة استدعاءات، وإنه لم يتلق أية ردود أو إجابات، وإن إضبارة التحقيق لم تصل إلى المعتقل حتى الآن، فقد ضُم إلى مجموعة الذين «بلا قيود»، المسجونين من دون وثائق؛ وقال إن الجو بارد جداً هنا،

وإنه طوال الوقت مريض، وإنه أرسل الكثير من الرسائل إلى أهله، لكنه لم يتلق أية إجابات.. ربما لأنهم رُحّل لا يستقرون في مكان..

تعلّم بيردي أونجي التحدث بالروسية، لكنه لم يتعلّم الأكل بالملعقة في ثلاثة أعوام، فقد أمسك القصعة بيديه. لم يكن الحساء المقدّم إلاّ فاتراً كل يوم، لذلك لم تكن القصعة لتحرق يديه أو شفتيه. شرب بيردي الحساء من حافة القصعة، أمّا ما تبقى في أسفلها فقام بلمّه بأصابعه والتهمه.. كذلك العصيدة كان يأكلها بيردي بأصابعه، تاركاً الملعقة جانباً. كان تناول بيردي للطعام يُسلّي جميع المعتقلين في البراكة. كان بيردي يأخذ قطعة الخبز ويمضغها حتى تصبح كالعجين ثم يعجنها مع شيء من الرماد يأخذه من الموقد ويصنع منها كرات من خليط ناشف، يبدأ بمصها بهدوء. كان ذلك بالنسبة له حشيش... أفيون... لم يكن هذا المشهد يُضحك بقية المعتقلين، فمن منهم لم يفرك أوراق البتولا، أو جذور عنب الثعلب الجافة ويدخنها بدل التبغ.

تعجّب بيردي من فهمي السريع لجوهر قضيته. خطأ ضاربة الآلة الكاتبة التي تجاوزت الرقم /59/ وأعطت صاحبه الرقم المتسلسل /60/.. الفوضى، والأغلاط أثناء الشحن السريع للمعتقلين في زمن الحرب.. ورعب الكورشاكوفيين واللازاريفيين العبودي أمام قياداتهم.

ولكن... ولكن كان هناك إنسان حقيقي رقمه /59/. وكان بإمكانه أن يقول إن بيردي هي كنيته! بالطبع كان بإمكانه أن يقول الحقيقة.. إنما كل يتسلى بطريقته الخاصة. كل واحد يسعده أن يرى القلق والاضطراب في صفوف القيادة. أما وضع القيادة المخطئة أمام الحقيقة فليس من شيم اللصوص. والمعتقل التاسع والخمسون كان لصاً.

«حصة إفرادية»

مساءً، بينما كان المراقب يلف شريط القياس قال إن دوغاييف سيقوم غداً بالعمل وحده. فجأة، صمت عريف المجموعة الواقف قرب المراقب يرجوه تأجيل عشرة أمتار مكعبة إلى بعد غد، وصار ينظر إلى نجمة المساء المتلألئة وراء حدبة التل. تناول بارانوف زميل دوغاييف في الثنائية، الذي ساعد المراقب في تكييل العمل المنجز، تناول المعول وبدأ يكشط المنجم المنظف من زمان.

عمر دوغاييف ثلاثة وعشرون عاماً فحسب، فكل ما كان يرآه هنا ويسمعه يدهشه أكثر مما يخيفه. التمت المجموعة لإجراء التفقد، وسلم أفرادها أدواتهم ثم عادوا في صف معتقلي متعرج إلى البراكة. لقد انتهى يوم عمل شاق. في المطعم، شرب دوغاييف حصته من حساء القمح البارد المائع من حافة القصعة واقفاً. الخبز، كان قد قدم في الصباح ليوم كامل، وكان قد التهمه منذ زمن طويل.

عَنَّ بباله التدخين. تلفت حوله مفكراً، ممن سيطلب عقب سيجارة. قام بارانوف بجمع فتات ماخوركا من كيس التبغ المقلوب على قفاه في ورقة. لمها بارانوف بعناية، ولف منها سيجارة نحيلة قدمها لدوغاييف.

ـ دخن، واترك لي. اقترح بارانوف.

أخذت دوغاييف الدهشة. فهو لا يتصادق مع بارانوف. على أية حال، في الجوع والبرد والأرق لا يمكن لأية صداقة أن تنعقد. دوغاييف رغم صغر سنه يدرك كل سخف مقولة الصداقة المجربة في الشقاء والمآسي. لكي تكون الصداقة صداقة يجب أن تكون قواعدها المتينة قد أرسيت قبل أن تصل الظروف إلى حد لا يبقى عنده في الإنسان أي أثر إنساني، لايبقى إلا الشك والحقد والكذب. لقد

فهم دوغاييف بعمق المقولة الشمالية، توصيات المعتقلين الثلاث: لاتصدُّق، لا تخف، لا تطلب...

مص دوغاييف بنهم دخان الماخوركا الحلو و بدأ رأسه يدور.

- بت أضعف. قال دوغاييف.

صمت بارانوف.

عاد دوغاييف إلى البراكة. استلقى وأغمض عينيه. صار نومه مضطرباً في الآونة الأخيرة، فالجوع لا يدعه ينام بعمق. صار يرى أحلاماً ممضة: أرغفة خبز، حساء دسماً يتصاعد منه البخار الساخن... لا يأتي النوم ثقيل الخطو إلى عينيه، إلا أنه يأتي أخيراً قبل نصف ساعة لاأكثر من بوق الاستيقاظ.

ها هو دوغاييف قد فتح عينيه.

وصلت المجموعة إلى موقع العمل. انتشر المعتلقون في أرجاء المنجم.

- انتظر أنت - قال عريف المجموعة لدوغاييف - سيعطيك المراقب مهمتك لهذا اليوم.

انهد دوغاييف على الأرض. لقد وصل إلى درجة من الإنهاك حتى إنه لم يعد يبالي معها إطلاقا بما قد يطال مصيره الشخصي.

قعقعت أولى العربات على الطريق، وحزقت المعاول على الحجارة هنا وهناك.

- تعال إلى هنا - قال المراقب لدوغاييف - هذا هو مكانك.

كعّب الموقع، وعلّم حدوده بكسرات من حجر الصوان.

- إلى هنا - قال المراقب - (الدريباتي) سيمد لك لوح خشب إلى الدرب الرئيس، انقل إلى هناك، إلى حيث ينقل الآخرون. خذ، هذا معول وإزميل ومطرقة وعربة، اعمل بها.

بدأ دوغاييف عمله مطيعاً.

«هذا أفضل»، فكر دوغاييف: لن يتذمر أحد من رفاقي لأنني لا أعمل جيداً.

الفلاحون السابقون غير ملزمين بأن يعرفوا ويفهموا أن دوغاييف لايزال صغيراً، وأنه بعد المدرسة مباشرة راح يدرس في الجامعة، وأنه بدّل بمقعد الجامعة معسكر الأشغال الشاقة هذا. هم ليسوا مضطرين لأن يفهموا أنه خائر القوى منذ زمن طويل، وأنه لا يجيد السرقة. لايعرفون ولا أحد يطالبهم بذلك. أهم فضيلة في الشمال إجادة السرقة، بكل أشكالها بدءا من خبز رفيقك، وانتهاء بخلاصة آلاف مكافآت الإدارة على إنجازات غير موجودة أصلا.

ليس يشغل بال أحد عجز دوغاييف عن تحمل ست عشرة ساعة عمل متواصلة.

كدّ دوغاييف، نقل وحفر، ورفش، وعتل.. ثم حفر ورفش وعتل...

جاء المراقب بعد استراحة الغداء، تفحص ما أنجز دوغاييف من عمل ثم ولى صامتاً...

عاد دوغاييف يحفر ويرفش. ما زال هناك الكثير الكثير جدا حتى يصل إلى كسرة الصوان.

عاد المراقب إلى دوغاييف من جديد. مد شريط القياس وكال.

ـ خمس وعشرون بالمائة ـ قال المراقب محدقا بدوغاييف ـ خمس وعشرون بالمائة، أتسمع؟

ـ أسمع. قال دوغاييف. لقد أدهشه هذا الرقم. كم هو الشغل منهك، وما أقل الحجارة التي تعلق بالرفش، وما أثقل الضرب بالمطرقة على الصخر. بدا الرقم خمس وعشرون بالمائة لدوغاييف كبيرا بلا حدود.

نقزت بطنا ساقيه. أوجعته يداه، جرّاء دفع العربة، بصورة لا تطاق. آلمه كتفاه، صدع رأسه. كان إحساسه بالجوع قد هجره من زمان. فهو يأكل لأنه يرى الآخرين يأكلون. جاءه الوحي من مكان ما: يجب أن تأكل، لكنه لم يرغب بالطعام.

ـ هكذا إذن ـ قال المراقب مغادرا ـ أتمنى لك الصحة.

مساءً اقتادوا دوغاييف إلى المحقق. أجاب هناك عن أسئلة أربعة:

الاسم، والكنية، ومادة الحكم ومدته. أربعة أسئلة تطرح على المعتقل ثلاثين مرة في اليوم.

بعد ذلك تركوا دوغاييف يذهب لينام. أما في اليوم التالي، فأمروه بالعمل في ثنائية مع بارانوف. وفي ليل ذلك اليوم اقتاده الجنود إلى ما وراء الإسطبل. ساقوه في درب بين أشجار الغابة، إلى ذلك المكان..، حيث ينتصب محيطا بفج صغير سور مرتفع تعلوه شبكة أسلاك شائكة. من ذلك المكان بالذات كان يصل في الليالي هدير جرافات بعيد. تأسّف حين فهم دوغاييف ما كان يجري هناك، تأسف على كدّه وشقائه في آخر أيام حياته.

«خط»

مع حلول آخر الليل نقلوا كريست إلى «الإسطبل» هكذا كان يسمى البيت الملاصق للتل عند سور المعسكر. كان يعيش هناك المحقق «بالقضايا ذات الأهمية الخاصة» كما نكّتوا في المعسكر، كأن هناك قضايا ليست ذات أهمية خاصة في معسكر الأشغال الشاقة! كان واضحاً أن أي خطوة مشكوك فيها يمكن أن يعاقب عليها بالموت. بالموت أو البراءة التامة. من كان يستطيع أن يتحدث هنا عن براءته التامة.

سار كريست في الطريق الضيق مستعدا لكل شيء مستهتراً بكل شيء. ها هم قد أشعلوا الضوء في المطبخ، إنهم الآن على الأغلب يقطعون «حصص» الخبز من أجل الفطور. فطور الغد. وهل سيكون هناك غد، وفطور غد بالنسبة لكريست؟ هو لا يدري، وهو فرح بعدم معرفته. أحس كريست بشيء ما تحت قدمه، لايشبه الثلج أو قطعة من جليد. انحنى ورفع قشرة متجمدة، عرف في الحال أنها قشرة لفت، قشرة لفت متجلدة.

بدأ الثلج يذوب في راحة يده، فدفع كريست بالقشرة إلى فمه. لم يكن هناك مايدعوه للاستعجال. اجتاز كريست طريقه وحيداً من أول البراكات إلى الإسطبل، مدركاً أنه أول من يسير في هذا الطريق الثلجي الطويل عند تخوم المعسكر، وأن أحداً لم يذهب إلى المحقق قبله هذا اليوم.

من بداية الطريق إلى نهايته كان على الثلج هنا وهناك قطع لفت قد تجلدت فبدت كأنها ملفوفة بالنايلون. عثر كريست على عشر منها، بعضها كبير وبعضها الآخر صغير. لم ير كريست من زمان أناساً يرمون في الثلج قشر اللفت. من رماها

ليس معتقلا قطعاً، فلابد أن يكون أجيراً حراً، ربما يكون المحقق هو الذي فعل ذلك. لاك كريست هذه القشور ومضغها. فاحت من فمه رائحة أتى عليها الزمان - رائحة الأرض الحميمة والخضار.. بمزاج طيب مد كريست يده وطرق باب غرفة المحقق.

لم يكن المحقق طويل القامة، وكان نحيلاً، لم يحلق ذقنه اليوم. كل ما في الغرفة يقتصر على مكتب خدمة وسرير حديدي مغطى بيطانية عسكرية ومخدّة مكرمشة متسخة، وطاولة خشبية من صنع محلي ذات دروج مقوسة محشوة بالأوراق والأضابير. على حافة النافذة كان يقبع صندوق مليء بالبطاقات. كانت رفوف الخزانة هي الأخرى محشوة بالأضابير. نفاضة المحقق علبة سردين فارغة. ساعة الجدار تشير إلى العاشرة والنصف. تدفأ المحقق بحرق الأوراق في المدفأة الحديد.

كان المحقق أبيض البشرة، شاحب الوجه كجميع المحققين. لاحاجب لديه ولا مسدس.

- اجلسوا ياكريست. قال المحقق، مخاطباً المعتقل بصيغة الجمع دافعاً باتجاهه مقعداً خشبياً عتيقاً بلا سنادة ظهر. أما هو فقد جلس على كرسي خشبي بسنادة ظهر عالية.

- لقد درست قضيتكم - قال المحقق - سأقترح عليكم أمراً.. لست أدري إن كان اقتراحي يناسبكم. تجمد كريست منتظراً ما سيقول بعد. أما المحقق فقد صمت

- يجب أن أعرف عنكم شيئاً آخر أيضاً.

رفع كريست رأسه ولم يستطع سوى أن يتجشأ جشأة لذيذة مفعمة برائحة اللفت الطري.

- اكتبوا استدعاء.

- استدعاء؟

- نعم استدعاء، إليكم ورقة وريشة.

- استدعاء؟ عن ماذا؟ ولمن؟

ـ لافرق، لمن.. إذن! هيا، ليس استدعاء، ليكن قصيدة ليلوك. لايهم، أفهمتم؟ أو عصفورة بوشكين[31]:

بالأمس أشرعت بوابة القفص الصغيرة
أمام عصفورتي الأسيرة
أطلقت صدّاحتي إلى البرية
منحتهـــا الحـــريـــة

أملى المحقق على كريست أبيات القصيدة

ـ هذه ليست عصفورة بوشكين. قال كريست، مستجمعاً كل قوى دماغه الذي جف هنا.

ـ إذاً عصفورة من هي؟

ـ عصفورة تومانسكي

ـ تومانسكي؟ أول مرة اسمع به.

ـ آ، فهمت. أنتم تحتاجون إلى فحص خطي؟ ربما أكون الذي قتل أحداً ما.

ـ بتاتاً، لا. اختبارات من هذا القبيل ليست عسيرة علينا. ابتسم المحقق معرياً لثته المتورمة النازفة، وأسنانه الصغيرة. ومهما تكن هذه البسمة الوامضة تافهة فقد أضافت قليلا من الضوء إلى جو الغرفة، وكذلك إلى روح كريست. لم يستطع كريست أن يمنع نفسه من النظر إلى فم المحقق.

ـ أجل ـ قال المحقق، ملتقطاً هذه النظرة ـ الاسقربوط، أجل الاسقربوط. الاسقربوط هنا لا يرحم حتى الأحرار. ليست هناك خضار طازجة.

فكر كريست باللفت فالفيتامينات في القشرة أكثر مما في اللب، ولقد كانت من نصيبه هو وليس من نصيب المحقق. أراد كريست أن يسترسل في هذا الحديث ويحكي للمحقق كيف لاك قشور اللفت المرمية من قبله في الطريق ومصّها. لكنه قرر الصمت خيفة أن ينال عقاباً على استرساله.

ـ أفهمتم الآن، أم لا؟ أريد النظر إلى خطكم.

لم يفهم كريست حتى الآن شيئاً.

ـ اكتبوا!

أملى المحقق:

«إلى مدير المنجم. من المعتقل كريست، اكتبوا تاريخ الولادة، مادة الحكم، مدة الحكم، استدعاء. أرجو نقلي إلى عمل أكثر سهولة...»

ـ يكفي...

أخذ المحقق استدعاء كريست غير المكتمل، مزّقه وألقاه في النار...

توهجت نار المدفأة لحظة.

ـ اجلسوا قرب الطاولة.

كان خط كريست خطاً جميلاً، خطاً ديوانياً، وكان هو نفسه معجباً بخطه جداً، وكان جميع رفاقه يضاحكونه: خطك لا يشبه خط بروفيسور، ولا خط دكتور، وهو ليس خط عالم أو كاتب أو شاعر. إنه خط أمين مستودع. كان يمكنك ياكريست أن تحقق نجاحاً في وظيفة كاتب قيصري، كالذي روى عنه كوبرين[32]. هذا التهكم لم يكن يزعج كريست، فقد تابع كتابة مسودات بخط ممتاز لضربها على الآلة الكاتبة. ضاربات الآلة الكاتبة بدورهن أثنين على خطه، وهن يضحكن في سرهن.

لم تستطع الأصابع التي اعتادت على المطرقة، على ذراع المعول، في البداية أن تمسك بالقلم، لكنها بعد عناء تمكنت من ذلك في آخر المطاف.

ـ كما ترون، تعم الفوضى مكتبي ـ قال المحقق ـ أنا نفسي أدرك ذلك ولكنكم تستطيعون مساعدتي بترتيبه.

ـ طبعاً، طبعاً. قال كريست. توهجت المدفأة أكثر، وكان جو الغرفة دافئاً.

ـ لو كان هناك ما أدخنه...

ـ أنا لست مدخناً ـ أجاب المحقق بخشونة ـ وليس لدي خبز أيضاً. لن تذهب غداً إلى العمل. أنا سأخبر المدير بذلك.

وهكذا، ولأشهر عدّة صار كريست يأتي إلى غرفة المحقق غير المدفأة، وغير المريحة، مرة كل أسبوع لينسخ الأوراق، ويفرزها معاً.

كان شتاء عام السابع إلى الثامن والثلاثين قد اجتاح البراكات برياحه المميته.
في الليالي كانت الدوريات تزور البراكات.. تبحث عن بعضهم.. توقظهم تجرهم، تسوقهم. لم يكن أحد قد عاد من السَوق قبل الآن، أما هنا فلم يعد أحد يفكر بهذه الأعمال الليلية «السَوق». فقد كان العمل منهكاً حتى لم يكن بمقدور أحد التفكير بأي شيء.

ضاعفوا ساعات العمل الشاق، جاءوا بالحراس، هاهو أسبوع يمضي وكريست الذي بالكاد يقوى على الحياة يجرجر جسده إلى مكتب المحقق المعروف، وينسخ، ويغرز الأوراق.

ما عاد كريست يغتسل، وما عاد يحلق ذقنه.. لكأن المحقق لم يلحظ خديّ كريست الغائرين، ونظرته الجائعة الملتهبة. أما هو كريست فقد نسخ وغرز.

كانت كمية الأوراق والأضابير تزداد باستمرار، ولم يكن تنظيمها ممكناً على الإطلاق. نسخ كريست قوائم لانهاية لها، كانت تظهر منها أسماء المعتقلين فقط، أما رؤوس القوائم فكانت مطويةً، لم يحاول كريست أبداً أن ينفذ إلى سر هذا المكتب، رغم أنه كان يكفيه لو أراد فتح الطرف المثني للورقة الملقاة أمامه على الطاولة.

كان المحقق يمسك أحياناً برزمة «أضابير» وردته في غياب كريست من مكان ما، ويملي عليه قوائم الأسماء على عجل. وكان كريست يكتب كل ما يملى عليه.

في الثانية عشرة ليلاً ينتهي الإملاء، فيذهب كريست إلى براكته لينام، ويغط في النوم في الحال فالنهوض إلى العمل غداً لا يعنيه. واحداً تلو الآخر تمر الأسابيع وكريست ينحل ويهزل مع مرور كل يوم.

في يوم من أيام العمل المعتاد أخذ المحقق إضبارة جديدة ليقرأ كنية صاحبها، وإذا به يتلعثم، ناظراً إلى كريست، متسائلاً:

ـ ما اسمكم، واسم أبيكم؟

ـ روبيرت إيفانوفيتش.

أجاب كريست مبتسماً. تُرى هل يريد المحقق مخاطبته بـ «روبيرت ايفانوفيتش» بدلاً من كريست، أو صيغة الجمع. هذه الـ «أنتم» لم تثر استغراب كريست. كان المحقق شاباً وكان كريست بعمر أبيه.

شحب وجه المحقق، شحب حتى صار أبيضَ كالثلج. كانت أصابعه لا تزال تمسك بالإضبارة، حين توقف عن تلاوة الأسماء.. . وإذا به يُخرج بحركة خاطفة أوراقاً دقيقة مغروزة هناك، أوراقاً لم تكن لاأكثر ولا أقل مما في بقية الأضابير المكدسة على الأرض، وإذا به يفتح باب المدفأة بإصرار فيعمّ الضوء الغرفة في الحال، كما لو أن الروح توهجت بالضياء حتى القاع، وهناك في القاع رقد شيء ما فائق الأهمية، شيء ما إنساني.

مزق المحقق الأوراق إلى مزق صغيرة، وقذف بها في النار. توهج اللهب ساطعاً أكثر. لم يفهم كريست شيئاً مما يحصل.أما المحقق فتمتم دون أن ينظر إليه: «روتين، لايفهمون ما يفعلون.. لا يهتمون». ثم نظر بعينين قاسيتين إلى كريست.

ـ نتابع النسخ. هل أنتم جاهزون؟

أجاب كريست:

ـ نعم، جاهز.

لقد مرت أعوام طويلة قبل أن يفهم كريست أن تلك الإضبارة كانت إضبارته بالذات.

كثيرون من رفاق كريست كانوا قد أعدموا رمياً بالرصاص، والمحقق نفسه أعدم أيضاً رمياً بالرصاص. أما كريست فكان لا يزال حياً، وهو بين حين وحين، مرة أو أكثر كل بضع سنين يتذكر تلك الإضبارة المشتعلة.. يتذكر أصابع المحقق التي مزقت «قضية» المعتقل كريست بحزم. كانت تلك هدية الحاكم للمحكوم. كان خط كريست الجميل منقذه.

«مـؤامـرة الحـقـوقـيـين»

شكّلوا مجموعة شميليوف من النفايات الإنسانية، من مخلفات منجم الذهب البشرية.

انطلقت من «المنجم الاحتياطي»، حيث ينقبون عن «الرمل الذهبي» ويكشطون التورف ثلاث طرق: الأولى «تحت التل» إلى المقابر الجماعية التي لا أسماء لها، والثانية إلى المستشفى، أما الثالثة فإلى موقع شميليوف: ثلاث طرق يعبرها المنهكون المستنزفون. عملت هذه المجموعة في الموقع ذاته حيث تعمل بقية المجموعات، لكن عملها لم يكن يسير على ما يرام. لم تكن شعارات: «تنفيذ الخطة قانون» و «إيصال الخطة إلى المنقِّب» مجرد كلمات، بل كانت تفسر على النحو التالي: إذا لم تنجز المعدّل خالفت القانون، خدعت الدولة ويجب أن تدفع ثمن ذلك زيادة في مدة الاعتقال، بل ويمكن أن يكون الثمن حياتك ذاتها.

كان طعام جماعة شميليوف أسوأ وأقل من طعام الآخرين. لكنني فهمت هنا في معسكر الاشغال الشاقة جيداً مقولة «أن حصة الطعام الكبيرة لا الصغيرة هي التي تقتل في المعسكر»، وأنا لم أسع للحصول على الحصص الكبيرة الخاصة بمجموعات التنقيب الأساسية.

كنت قد حُوِّلت إلى مجموعة شميليوف منذ فترة غير بعيدة، ولم يتسَن لي حتى الآن معرفة وجه شميليوف فالفصل شتاء ورأس عريف المجموعة محاط بشال ممزق لُفّ لفة مشربكة، والبراكة تسودها العتمة في المساء فبالكاد تضيء «الكاليمكا»[33] البنزينية باب البرّاكة. لذلك فأنا لا أذكر وجه عريف المجموعة، وكل ما أذكره هو فقط صوته الأجش المجرّح.

اشتغلنا في الوردية الليلية طوال شهر كانون الأول، كلّ ليل كان بالنسبة لنا ليل تعذيب، فخمسون درجة تحت الصفر ليست مزحة على الإطلاق. ومع ذلك كان العمل ليلاً أفضل، وأكثر هدوءاً، فحضور الإدارة في المنجم أقل، وبالتالي الشتم والضرب أقل.

اصطفت المجموعة للخروج إلى العمل. أما شتاءً فكانت المجموعة تصطف في البراكة، ومازلت إلى الآن أرتجف مزمهراً حين أتذكر تلك الدقائق الأخيرة التي كانت تسبق خروجنا إلى الليل الجليدي للعمل اثنتي عشرة ساعة بلا انقطاع.

هنا بالذات، في هذا الزحام المتردد عند البوابة المفتوحة، من حيث يزحف بخار الجليد، يتكشف طبع الإنسان. تُرى من هنا يخطو مباشرة إلى العتمة متغلباً على اصطكاك أسنانه وارتجاف مفاصله؟ ومن ذا الذي يمص على عجل عقب سيجارة، حصل عليه، الله أعلم من أين، ليس فيه حتى أثر لرائحة التبغ؟ ومن الذي يحمي وجهه من ريح الزمهرير ومن يقف فوق المدفأة ضاغطاً عليها بقفازيه يخزن الدفء في يديه؟ أما الحراس المناوبون فيدفعون من تخلّف عن الصف إلى خارج البراكة. كانوا يدفعون أضعف المعتقلين. لم أُدفع بعد في هذه المجموعة. إذن، فلقد كان هناك من هو أضعف مني، ولقد زودتني هذه الحقيقة ببعض الاطمئنان، بفرحة ما عابرة، فأنا هنا لا أزال إنساناً. أما دفعات المناوب ولكماته فخلّفتها هناك في تلك المجموعة «الذهبية» التي حوّلت منها إلى مجموعة شميليوف.

وقفت المجموعة عند باب البرّاكة جاهزة للخروج. اقترب شميليوف مني وقال محشرجاً:

ـ ابق هنا.

ـ هل حوّلوني إلى الوردية الصباحية؟ سألت بارتياب، فهم عندما يحوّلون المعتقل من وردية إلى أخرى يفعلون ذلك بملاقاة عقارب الساعة كيلا يضيع يوم العمل، ولا يحصل المعتقل على بضع ساعات إضافية من الراحة. كنت أعرف هذه الآلية.

ـ لا، رومانوف أرسل في طلبك.

ـ رومانوف؟ ومن هو رومانوف هذا؟

ـ هُسْ، سافل، لا يعرف رومانوف! تدخّل المناوب.

ـ المفوض رومانوف، أفهمت؟ هو يعيش قرب الإدارة. اذهب إليه في الثامنة.

ـ في الساعة الثامنة!

انتابني شعور عظيم بالارتياح. إذا ما احتفظ المفوض بي حتى الثانية عشرة، حتى «الغداء» الليلي، أو بعده فسيكون من حقي عدم الذهاب إلى العمل بتاتاً هذا الليل. حل التعب على جسدي حالما سمعت ذلك، لكنه كان تعب الفرحة. نقزت عظامي.

..فككتُ نطاقي، وفتحت سترتي وجلست قرب المدفأة. سرى الدفء في جسدي وبدأت القملات تسرح تحت سترتي. حككت رقبتي وصدري بأظافري المقضومة بأسناني. غالبني النعاس.

ـ حان الوقت، هيا ـ هزّني المناوب من كتفي ـ اذهب، اجلب معك دخاناً لا تنس.

طرقْتُ باب المبنى حيث يعيش المفوض. قعقعت سقاطة الباب ثم الأقفال ثم الكثير من المزاليج والدرابيس، وصاح واحد ما لاأراه من خلف الباب:

ـ من أنت؟

ـ المعتقل أندرييف، المطلوب.

قعقعت الدرابيس، وصلصلت الأُقفال ثانية، وساد الصمت من جديد.

تسلل الصقيع داخل سترتي، وصقّعت قدماي، صرت أرقص في مكاني ضارباً قدماً بأخرى، فما نحتذيه ليس جزمات لباد، إنما بقايا سراويل وسترات بالية لصقت ودرزت على شكل جزمات.

قعقعت الدرابيس من جديد، وفتح الباب المزدوج محرّراً ضوءاً ودفءاً وموسيقا. دخلتُ. لم يكن باب غرفة الطعام مغلقاً، كان المذياع هناك يعمل.

وقف المفوّض رومانوف أمامي، بل لأقل أنا الذي وقفت أمامه، أما رومانوف السمين القصير، المعطّر فصار يدور بخفة ماسحاً قامتي بعينيه السوداوين الحركتين.

وصلت رائحة المعتقل إلى منخريه، فأخرج من جيبه منديلاً أبيضَ كالثلج ونفضه. غمرتني أمواج الموسيقا، والدفء، والكولونيا. الأهم هو الدفء. فقد كانت المدفأة الهولندية حمراء كالجمر.

ـ ها نحن قد تعارفنا ـ أكد رومانوف بنبرة احتفالية، وهو يدور حولي ملوّحاً بمنديله المعطّر ـ ها نحن قد تعارفنا.

ـ هيا، ادخل. ثم فتح باب غرفة المكتب المجاورة، حيث انتصبت طاولة مكتب مع كرسيين.

ـ اجلس، فمهما حاولت لن تحزر سبب استدعائي لك. دخِّن. ثم غاص رومانوف في الأوراق الموضوعة على طاولة المكتب.

ـ ما اسمك، واسم أبيك.

أخبرته.

ـ تاريخ ميلادك؟

ـ 1907

ـ حقوقي؟

ـ أنا، في الواقع، لست حقوقياً، إنما كنت أدرس في كلية الحقوق بجامعة موسكو في النصف الثاني من الخمسينيات.

ـ يعني، أنت حقوقي. ممتاز إذاً. اجلس أنت الآن، وسأتصل أنا بمكان ما، ثم نذهب معاً.

انسل رومانوف من المكتب فصمتت الموسيقا في غرفة الطعام حال خروجه وبدأت المكالمة الهاتفية.

غفوت على الكرسي، حتى إنني بدأت أرى حلماً ما. أما رومانوف، فكان يختفي حيناً ويظهر حيناً آخر.

ـ اسمع. هل لديك حاجيات ما في البرّاكة؟

ـ لا، كلها معي هنا.

ـ ممتاز إذاً، برافو، ممتاز. الآن، ستأتي السيارة وسنرحل معاً. هل تعرف إلى أين سنذهب؟ طبعاً، لن تحزر، إلى خاتيناخ بالذات، إلى الإدارة! هل سبق أن كنت هناك؟ هاه، أنا أمزح، أمزح،...

ـ لا فرق عندي.

ـ جيد، إذاً.

خلعت حذائي، دلكت أصابع قدمي، قلبت لفافات القدمين.

أشارت عقارب الساعة على الجدار إلى الحادية عشرة والنصف. حتى لو كانت حكاية خاتيناخ كلها مزحة فعلاً، فلن أذهب اليوم إلى العمل بطبيعة الحال.

شخرت سيارة ما في مكان قريب، وانزلق ضوء مصابيحها الأمامية على درفتي النافذة ملتصقاً بسقف غرفة المكتب.

ـ هيا، لنرحل.

كان رومانوف في معطف قصير من الفرو، وفي قبعة ياقوتية، وفي جزمة مزخرفة. زررت سترتي، شددت حزامي، دفأت قفازي فوق المدفأة، ثم خرجنا باتجاه السيارة الشاحنة الخفيفة ذات الصندوق المفتوح.

ـ ميشا، كم هي درجة الحرارة اليوم؟ سأل رومانوف السائق.

ـ ستون، أيها الرفيق المفوض، سحبوا الورديات الليلية من العمل.

هذا يعني ومجموعتنا أيضاً في البرّاكة الآن. يبدو أنني لم أوفق كثيراً.

ـ هيا، أندرييف ـ قال المفوض وهو ينط حولي ـ اجلس أنت في الصندوق، رحلتنا ليست طويلة، سيسوق ميشا بسرعة، أليس كذلك، ميشا؟ صمت ميشا. صعدت أنا إلى الصندوق، تكوّرت هناك حول نفسي ممسكاً قدمي بيدي.

حشر رومانوف جسده قرب السائق في كبين السيارة، ثم انطلقنا.

كانت الطريق مليئة بالحفر، وقد تقاذفتني السيارة حتى حالت دون تجمدي من شدة البرد.

لم أشأ التفكير بأي شيء، وفي البرد عموماً، لا يمكن التفكير بشيء على الإطلاق.

بمرور ساعتين من السفر بدأت الأنوار تهرب مبتعدة إلى الوراء، ثم توقفت السيارة قرب مبنى من طابقين، مبني من جذوع الأشجار.

كانت الظلمة تلفّ المبنى كله خلا نافذة واحدة مضاءة في الطابق الثاني. وقف حارسان في فروتي خروف قرب الجناح الكبير:

ـ ها نحن قد وصلنا، ممتاز، دعه يقف هنا.

واختفى رومانوف على السلّم الكبير.

كانت الساعة الثانية ليلاً، وكانت الأضواء مطفأة في كل مكان. لمبة واحدة فحسب كانت منارة على طاولة مكتب المناوب.

لم أضطر للانتظار طويلاً، أما رومانوف فكان قد نزع معطفه في هذه الأثناء وظهر بلباس ن.ك.ف.د[34] وهبط الدرج قفزاً ملوّحاً بيده:

ـ إلى هنا، إلى هنا.

تحركّت إلى الأعلى بمرافقة مساعد المناوب، ثم توقفت في ممر الطابق الثاني أمام باب كتب عليه (كبير مفوضي ن.ك.ف.د. الرفيق سميرتين)[35]. ياله من لقب متوعد، ترك لدي أنا المهدود الحيل انطباعاً قوياً. سميرتين لا يمكن أن تكون كنيته الحقيقية.

سميرتين (إذا كان لقباً فإنه زائد عن الحد) فكّرت أنا، ولكن كان قد حان الوقت لدخول الغرفة العملاقة التي شغلت صورة ستالين جداراً كاملاً من جدرانها، والوقوف أمام طاولة مكتب هائلة الحجم، وإمعان النظر في الوجه الأشقر الشاحب، وجه الرجل الذي أمضى طيلة حياته في الغرف.. في هكذا غرف.

انحنى رومانوف باحترام قرب الطاولة.

توقفت عينا كبير المفوضين الرفيق سميرتين الزرقاوان الكامدتان عندي، توقفتا برهة قصيرة. فتش عن شيء ما على الطاولة.. قلّب بعض الأوراق. التقطت أصابع رومانوف الخدومة ما كان يجب العثور عليه:

ـ كنيتك؟ سأل سميرتين، متفحصاً الأوراق.

ـ اسمك، واسم أبيك؟

ـ مادة الحكم؟

ـ مدة الحكم؟

أجبته عما طرح من أسئلة.

ـ حقوقي؟

ـ حقوقي.

ارتفع الوجه الشاحب عن الطاولة:

ـ كتبت شكاوى؟

ـ كتبت.

ـ تنفس سميرتين مخرخراً:

ـ حول الخبز؟

ـ حول الخبز، وغيره.

ـ جيد. خذوه.

لم أقم بأية محاولة لإيضاح أي شيء، أو السؤال عن أي شيء، لو سألتموني لماذا؟ أنا لست في البرد، لست في منجم الذهب الليلي. فليسألوا عما يشاؤون.

جاء مساعد المناوب يحمل قصاصة ورق، ثم اقتادوني عبر القرية المعتمة حتى الأطراف، حيث انتصب سجن المعتقل تحت أربعة أبراج حراسة محاصراً بثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة.

كان هناك في السجن عنابر كبيرة وزنزانات إفراديه. حشروني في واحدة من تلك الإفراديات.

هنا تحدثت عن نفسي دون أن أنتظر أية إجابة من جيراني، ودون أن أسألهم عن أي شيء. وفق القواعد المتبعة حتى لا يظنونني مخبراً أستجرهم إلى الحديث.

حل الصباح، أحد الصباحات الكاليمية التي لا ضوء فيها ولا شمس، التي يصعب تفريقها للوهلة الأولى عن الليل. ضربوا على الحديد. أتوا بدلو ماء مغلي يتصاعد منه البخار. جاء الحارس يناديني. ودّعت رفاقي الذين لا أعرف عنهم أي

شيء. اقتادوني إلى ذلك المبنى نفسه. بدا لي أصغر مما كان في الليل.

لم أعد أقف أمام عيني سميرتين الفاتحتين.

أمرني المناوب بالجلوس والانتظار، فجلست وانتظرت حتى وصلني ذلك الصوت المألوف:

ـ تمام إذاً، ممتاز! سترحلون الآن! ناداني رومانوف في أرض غيره بصيغة التفخيم «أنتم».

سارت الأفكار ثقيلة في دماغي حتى كدت أشعر بحركتها. كان يجب أن أفكر بشيء ما جديد، الأمر الذي لم أعتد عليه. لا أعرف كيف. هذا الجديد، لاعلاقة له بالمنجم، فلو أنهم أرادوا إعادتي إلى منجم «الفدائي» لقال رومانوف «سنرحل الآن». هذا يعني أنهم ينقلونني إلى مكان جديد. ليكن ما يكون.

هبط رومانوف درجات السلم قفزاً فبدا كما لو كان سيعلو بين لحظة وأخرى درابزون الدرج ويتزحلق كولد صغير إلى أسفل. كان يمسك بيده رغيفاً شبه كامل من الخبز.

ـ هذه لك، زوادة طريق، إنتظر، هناك شيء آخر. اختفى في مكان ما في الأعلى ثم عاد بسمكتين مخللتين.

ـ وفق الأصول، أليس كذلك؟ أعتقد، لم يبقَ شيء.

آه، ماذا يعني ألا يكون الشخص مدخناً، لقد نسي أهم شيء.

صعد رومانوف إلى أعلى من جديد، وعاد وبيده جريدة. وضع عليها بعض الماخوركا، ثلاث علب على الأرجح. قَدّرتُ الكمية بعين خبيرة. في العلبة أمّ الثمانية ثماني علب كبريت من الدخان. إنها وحدة قياس خاصة بالمعتقل.

ـ هذه لك، للطريق. وجبة جافة كما يقال.

بقيت صامتاً

ـ هل أرسلوا في طلب حارس مرافق؟

ـ بلى، لقد استدعوه، قال المناوب.

ـ أرسلوا معلمكم إلى فوق.

ثم اختفى رومانوف على السلم.

جاء حارسان أحدهما شاب في حوالي العشرين من عمره مورّد الخدين، في خوذة الجيش الأحمر، أما الثاني فأكبر سناً وكان مجدور الوجه يرتدي «باباخا»[36] قوقازية. ـ هذا هو. قال المناوب مشيراً باتجاهي.

نظر الشاب والمجدور معاً باتجاهي نظرة فاحصة من رأسي حتى أخمص قدمي.

ـ والقائد أين؟ سأل المجدور.

ـ في الأعلى، والمهمة هناك.

صعد المجدور إلى أعلى وعاد بسرعة بصحبة رومانوف. ثم تبادلا الحديث بصوت خافت، بينما كان المجدور يشير نحوي.

ـ جيد ـ قال رومانوف أخيراً ـ لقد زودناكم برسالة.

خرجنا من المبنى. في ذلك المكان نفسه قرب جناح المبنى، حيث توقفت ليلاً شاحنتنا القادمة من «الفدائي»، تقف الآن سيارة «غُرَاب»[37] مريحة، باص سجن نوافذه مشبكة بالقضبان. أغلقت الأبواب المقضبنة. جلس الحارسان في الممر أمام السجن المتحرك، وانطلقت العربة ـ الباص في الطريق. سار الباص بعض الوقت في الطريق الرئيس الذي يقسم الكاليما إلى قسمين، ثم ما لبث أن انعطف باتجاه ما. تلوّى الطريق بين التلال، وما انفك محرك الباص يشخر بينما كان الأخير يتسلق المرتفعات والجروف المعلقة التي يندر وجود الأشجار عليها، بينما ترى أغصان الصفصاف التي انقصفت تحت وطأة الجليد ملقاة هنا وهناك، وأخيراً دار الباص عدة دورات حول التلال ليخرج من مجرى الجدول الذي سار فيه إلى ساحة صغيرة. كان هناك طريق بين الأشجار وأبراج حراسة، وفي العمق على بعد ثلاثمائة متر كانت هناك أبراج منحرفة، وحوش براكات معتم محاط بالأسلاك الشائكة.

فتح باب المحرس الصغير المنصوب على الطريق، وخرج منه الحارس المناوب متمنطقاً بمسدسه.

توقف الباص بينما بقي محركه شغالاً. قفز السائق من الكبين ومر بمحاذاة نافذتي.

ـ يا له من دوّار. هو فعلاً حلزون «سيربانتين»

كانت هذه التسمية تعني لي، أكثر بكثير من الكنية المتوعدة سميرتين.

كان ذلك سجن تحقيق الكاليما «سيربانتين»، حيث أُعدم الكثيرون في العام الماضي، ولم تتفسخ جثثهم حتى الآن. على أية حال ستظل جثثهم كما هي إلى الأبد. إنهم أموات الجليد الأبدي.

سار الحارس المجدور عبر درب يؤدي إلى السجن، أما أنا فجلست قرب النافذة أفكر: ها هي ساعتي قد أزفت، جاء دوري. كان التفكير بالموت صعباً علي، كما هو صعب التفكير بأي أمر آخر. لم أرسم في مخيلتي أية لوحة تصوّر لحظة إعدامي. كل مافعلته هو أنني جلست وانتظرت.

هاهو الغسق الشتوي قد حل. فُتح باب «الغراب». ألقى الحارس المجدور باتجاهي جزمة لباد.

ـ إلبسها! اخلع جزمة الكاوتشوك.

خلعت حذائي، حاولت إدخال قدمي: لا، لا تدخل، إنها صغيرة.

ـ لن تصل في جزمتك هذه، قال المجدور.

ـ سأصل.

رمى المجدور بجزمة اللباد في زاوية الباص.

ـ هيا بنا.

دارت السيارة، أدار «الغراب» ظهره مبتعداً عن «سيربانتين». ما أن رأيت أضوية السيارات تفر قرب نافذتي حتى أدركت أننا عدنا نسلك الطريق الرئيس من جديد.

زاد الباص من سرعته. توهجت أضواء القرية الكبيرة في كل مكان. وصل الباص مبنى إضاءته جيّدة، أُدخلت ممراً يعمّه الضوء، شبيهاً بذلك المكان حيث يعمل المفوض سميرتين. وراء حاجز خشبي قرب هاتف جداري جلس المناوب معلقاً مسدساً على جنبه.

كانت تلك قرية «ياغودني». إذن، فكل ما قطعناه في اليوم الأول من رحلتنا

لا يتعدى سبعة عشر كيلو متراً. فإلى أين سنذهب بعد؟

اقتادني المناوب إلى غرفة بعيدة، تبين أنها زنزانة تعذيب، فيها لوح خشب و «باراشا»[38] وفي بابها عين. عشت في هذه الزنزانة يومين، حتى إنني تمكنت هنا من تجفيف لفافاتي قدميَّ وأعدت لفَّهما من جديد. كان القيح يسيل من تقرحات الاسقربوط عليهما.

أطبق هدوء ريفي خاص على مبنى مديرية الناحية (م. ف. د). كنت مشدوداً في زاويتي لالتقاط أي صوت. لكنني حتى في النهار ما كنت أسمع وقع خطوات عابر في ممر السجن إلا نادراً. ونادراً أيضاً ما كان يفتح الباب الرئيس، ونادراً كذلك ما كانت تدار المفاتيح في أقفال الأبواب.والمناوب، المناوب الدائم الذي لا يحلق ذقنه العتيقة، ومسدسه المدلى على حمالته عبر الكتف، بدا هنا، كجميع الأشياء الأخرى منسياً مقارنة بـ «الخاتيخان» اللألاء حيث مارس الرفيق سميرتين سياسته العليا. والهاتف هنا أيضاً نادراً ـ نادراً ما كان يرن.

ـ نعم، إنهم يتزودون بالوقود، نعم، لا أعرف أيها الرفيق القائد.

ـ حسناً، سأقوم بإبلاغهم.

تُرى عمن كان الحديث يدور؟ أعن حارسي؟ مرّة واحدة في اليوم، قبيل المساء، ينفرج باب زنزانتي ويحمل المناوب إليَّ كسرة خبز وجفنة حساء: «كُلْ»، هذا هو الغداء، الغداء الحكومي. خذ هذه الملعقة أيضاً. كانت العصيدة مخلوطة بالحساء، مصبوبة فيه. تناولت القصعة، أكلت ما فيها، ثم لعقتها بلساني حتى لمع قاعها، كعادة المعتقلين في المناجم.

بحلول اليوم الثالث فُتِح باب الزنزانة ودخل الجندي المجدور متجاوزاً العتبة بفروة الخروف.

ـ أراك استرحت هنا، آ؟ هيا بنا لنرحل.

وقفتُ في جناح مديرية الناحية. ظننت أننا سنسافر ثانية في باص السجن «المدفأ»، لكنني لست أرى «الغراب» في أي مكان هنا. بينما تقف شاحنة عادية عند الجناح.

ـ اصعد.

ـ تسلقت صندوق الشاحنة، مطيعاً.

صعد المقاتل الشاب إلى كبين الشاحنة وجلس قرب السائق، أما المجدور فقد جلس بجواري.

تحركت السيارة الشاحنة، وما كادت دقائق قليلة تنقضي حتى بلغنا الطريق «العام» إلى أين ينقلونني؟ إلى الشمال، أم إلى الجنوب؟ إلى الغرب، أم إلى الشرق؟ لم تكن هناك ضرورة للسؤال، بل ومن واجب الحارس ألا يصرّح بشيء. تُرى هل سيسلمونني لقسم آخر؟ أي قسم؟

تقاذفتني السيارة ساعات عدة وأخيراً توقفت.

ـ ستتغدىّ هنا، هيا انزل.

نزلت.

دخلنا مطعم «عابري الطريق».

هذا الطريق، إنه شريان الكاليما وعصبها الأساسي. تحركت بالاتجاهين بلا انقطاع شحنات من معدات من دون حراسة، وشحنات غذائية بصحبة حراس طبعاً، فهذه يهاجمها الفارون وينهبونها، والحارس يحمي البضاعة ليس من أولئك فقط بل ومن السائق ومسؤول التموين أيضاً، وإن تكن الحماية غير مضمونة، إلا أنها يمكن أن تمنع وقوع السرقة أحياناً.

في مطاعم الطريق هذه يلتقي الجيولوجيون، والكشافة، والمسافرون في إجازات إلى أهاليهم مع روبلاتهم الطويلة[39] وباعة الظل الذين يتاجرون بالتبغ والشيفير[40]، هنا يلتقي أبطال الشمال وأنذاله. في هذه المطاعم دائماً يبيعون الكحول. هم يلتقون هنا، يتناقشون، يتقاتلون، يتبادلون الأخبار، ويسرعون، يسرعون،.... يتركون محركات سياراتهم تدور، وينامون في كبائنها ساعتين أو ثلاث، ليستريحوا ثم يستأنفون سفرهم من جديد.

إلى هنا، إلى التايغا ينقلون المعتقلين الجدد النظيفين، وينقلون منها بقايا الآدميين، المخلفات البشرية. تجد هنا أيضاً رجال التحري الذين يتصيدون الفارين، وتجد هنا الهاربين في الوقت نفسه وهم غالباً في الزي العسكري. وترى هنا أيضاً في سيارات «الزيس» القياديين، أصحاب حياة هؤلاء الناس وموتهم.

وقفت، هنا، محاولاً حشر نفسي في أقرب مكان إلى المدفأة، إلى الموقد الضخم، البرميل الأحمر كالجمر. لم يُقلق حراسي احتمال هربي، فأنا من الضعف بحيث لا أستطيع الفرار إلى أي مكان في درجة خمسين تحت الصفر.

ـ اجلس هنا، كُلْ.

اشترى لي جندي الحراسة صحن حساء ساخن، وأعطاني قطعة خبز.

ـ الآن سنتابع رحلتنا ـ قال الحارس الشاب ـ حين يأتي زميلي سننطلق.

جاء المجدور، لكنه لم يكن وحده، كان معه (مقاتل) (لم يكونوا يسمونهم عساكر في ذلك الزمن) تجاوز عمر الشباب في معطف قصير من الفرو ومعه بندقية.

نظر المقاتل صوبي ثم صوب المجدور وقال:

ـ ماذا أقول، ممكن.

ـ هيا بنا. قال لي المجدور.

تحركنا إلى زاوية أخرى من زوايا المطعم العملاق. هناك تكوّر قرب الجدار رجل في معطف قماش وقبعة معتقلين سوداء ذات واقيتين للأذنين.

ـ اجلس هنا. أمرني المجدور. جلست مذعناً على الأرض بجوار المعتقل الثاني الذي لم يدر رأسه نحوي.

ذهب المجدور والمقاتل الغريب، أما «حارسي» الشاب فبقي معنا.

ـ عملوا لأنفسهم استراحة، فهمت؟ ـ همس الشخص الذي يرتدي قبعة المعتقلين فجأة ـ إنهم لا يملكون الحق في ذلك.

ـ ليذهبوا إلى الجحيم... أجبته أنا... ليفعلوا ما يريدون، ما الذي يوخزك أنت؟

رفع المعتقل رأسه: أنا أقول لك هم لايملكون الحق بفعل ذلك... ـ سألته:

ـ تُرى إلى أين يسوقوننا؟

ـ إلى أين يسوقونك أنت، لست أدري، أما أنا فإلى ماغادان، إلى الإعدام.

ـ إلى الإعدام؟

ـ نعم، أنا محكوم عليّ بالإعدام، من المديرية الغربية، من سوسومان.

لم يعجبني هذا الأمر بتاتاً، لكنني لم أكن أعرف ترتيبات «الإجراءات المتبعة عند الإعدام». صمتُ أداري حيرتي واضطرابي.

جاء المقاتل المجدور بصحبة مرافقنا الجديد.

راح جنود الحراسة يتبادلون الحديث عن أمر ما. إذ ازداد عددهم صار الحراس أكثر حدّة، أكثر وقاحة. ما عادوا يشترون لي الحساء في المطعم.

أمضينا عدة ساعات أخر، جاءونا أثناءها بثلاثة معتقلين آخرين ـ صرنا «دفعة» «مجموعة» معتبرة الآن.

كان من غير الممكن معرفة أعمار الثلاثة الجدد، كمثل جميع مخلفات الكاليما: جلد أبيض متورم، وجوه متنفخة تفصح عن الجوع، عن الاسقربوط.

كانت وجوههم موسومة ببقع متجلدة ميته.

ـ إلى أين يسوقونكم؟

ـ إلى ماغادان، إلى الإعدام. نحن محكومون بالإعدام.

استلقينا في صندوق الشاحنة متكورين، رأس الواحد بين ركبتيه، وظهره لصق ظهر الآخر.

كانت نوابض السيارة بحالة جيدة، وكانت الطريق ممتازة، لم تتقاذفنا تقريباً، لذلك بدأنا نشعر بالبرد.

صرنا نصيح، نئن، غير أن الحارس كان عديم الرحمة. كان يجب الوصول إلى معتقل «سبورني» قبل حلول الظلام.

توسل المحكوم بالإعدام راجياً أن «يتدفأ» ولو خمس دقائق.

دخلت الشاحنة معتقل «سبورني» بعد أن كان الضوء قد طلع.

جاء المجدور: سوف تمضون هذه الليلة في سجن المعتقل، وفي الصباح تتابع سيرنا.

لقد تجمّدت حتى العظم، تخشبت من الصقيع، خبطت بآخر ما أملك من قوة الثلج بنعل جزمتي، وذلك أيضاً لم يهبني الدفء.

تابع «المقاتلون» بحثهم عن إدارة المعتقل، وأخيراً، بعد أن كانت ساعة من الوقت قد مضت اقتادونا إلى سجن المعتقل المصقع المتروك بلا تدفئة. كان الجليد قد غلّف الجدران من الداخل كلها، أمّا أرض السجن فقد تجمّدت تماماً. أحد ما جاء بدلو ماء. قرقع القفل.

أين الحطب؟ أين المدفأة؟

في هذه الليلة بالذات، هنا في «سبورني» تجمّدت أصابع قدمي العشر من جديد، بينما رحت أحاول بلا جدوى، أن أغفو ولو دقيقة واحدة.

في الصباح، أخرجونا وألقوا بنا في الشاحنة، تراكضت التلال وشخرت السيارات في ملاقاتنا. هبطت شاحنتنا مخلفة الجبل وراءها، فأحسسنا بالدفء ينتشر في أجسادنا. تمنينا لو أننا لا نسافر إلى أي مكان، لو أننا ننتظر هنا قليلاً، لو نتمشى ولو بضع خطوات في هذه الأرض الرائعة.

كان الفارق عشر درجات لا أقل، أما الهواء هنا فكأنّما كان دافئا يشبه هواء الربيع.

ـ أيها الحارس، دعنا نقضي حاجة... كيف يمكن أن نقول للمقاتلين إن ذلك من أجل الدفء والريح الجنوبية والخلاص من التايغا المجمدة للروح.

ـ قُمْ، انزل!

كان يحلو للمقاتلين أن يتمطوا أيضاً. اقترب جاري الباحث عن الحقيقة من الحارس:

ـ أندخن، أيها المواطن المقاتل؟

ـ ندخن. عد إلى مكانك.

معتقل من الجدد لم يرغب بالنزول من الشاحنة. لكنه عندما رأى أن «قضاء الحاجة» قد طال، تحرك إلى جانب صندوق السيارة، واستدعاني بإشارة من يده:

ـ ساعدني على النزول.

مددت يدي إلى خائر القوى الناحل، فشعرت فحأة بخفة وزنه اللامعقولة، بخفة الاحتضار. ابتعدت عنه، خطا ذلك الإنسان، ممسكاً بجانب الشاحنة عدة خطوات:

ـ يا للدفء. قال، لكن عيناه كانتا مطفأتين، خاليتين من أي تعبير.

ـ هيا تحركوا، هيا نرحل.

ثلاثون تحت الصفر.

ومع كل ساعة تمضي يغدو الدفء أكثر فأكثر.

تناول حراسنا الطعام آخر مرة في مطعم قرية «بالاتكا». اشترى لي الجدور كيلو غراماً من الخبز.

ـ خذ، خبز أبيض. سنصل في المساء.

هطل ثلج ناعم، بينما راحت تتلألأ في الأسفل عن بعد أضواء ماغادان. كانت الحرارة عشر درجات تحت الصفر وكانت الريح ساكنة. سقط الثلج شبه عمودي تقريباً على هيئة ندف ناعمة، ناعمة.

وقفت الشاحنة قرب مديرية أمن الناحية. دخل جنود الحراسة المبنى. خرج شخص في بذة الخدمة من دون قبعة. كان يمسك مُغلَّفاً ممزقاً، وصاح منادياً بكنية أحدهم، صيحة رنانة معتادة. انسل واحد خفيف الجسد من بيننا ووقف جانباً.

ـ إلى السجن!

اختفى الشخص ذو البذة الرسمية في المبنى، وعاد ليظهر من جديد في الحال.

كان في يده مغلف جديد:

ـ إيفانوف؟

ـ قسطنطين إيفانوفيتش.

ـ إلى السجن!

ـ أوغريتسكي سيرغي فيودوروفيتش،

ـ إلى السجن!

ـ سميرنوف يفغيني بيتروفيتش،

ـ إلى السجن!

لم أودّع لا حارسي، ولا أحداً ممن ساقوني معهم إلى «ماغادان»، فذلك غير وارد هنا في المعتقلات.

وقفنا أنا وحارسي فقط أمام مبنى أمن الناحية.

ظهر الشخص ذو البذة قرب الباب:

ـ أندرييف!

ـ إلى المديرية، سأزودكما الآن بمهمة. توجه بحديثه إلى جندي الحراسة.

دخلت المبنى. أكثر ما يهمني المدفأة، أين هي؟ ها هو الشوفاج، تدفئة مركزية. كان المناوب وراء حاجز خشبي. يبدو أن الحال هنا أفقر مما عند الرفيق سميرتين في خاتيخان، أو ربما خُيِّل إلي ذلك لأن مكتب الرفيق سميرتين كان المكتب الأول الذي رأيته في حياتي الكاليميه؟

انتصب في الممر سلم شديد الانحدار يصل إلى الطابق الثاني.

ما انتظرت طويلاً، فقد هبط من الأعلى الرجل ذو البذة الرسمية، ذلك الذي استقبلنا أمام المبنى عند وصولنا.

ـ تعالوا إلى هنا.

صعدنا السلم الضيق إلى الطابق الثاني، وصلنا إلى باب كُتب عليه «ياء، ألف. أطلس، كبير المفوضين».

ـ اجلسوا

جلست. شغلتْ طاولة المكتب المكان الأهم في الغرفة الصغيرة وكانت هناك أوراق وأضابير، وقوائم مختلفة.

كان عمر المفوض أطلس حوالي أربعين عاماً. رجل ممتلئ الجسم، أسود الشعر، مع صلعة خفيفة.

ـ كنيتك؟

ـ أندرييف

ـ اسمك، واسم أبيك، مادة الحكم ومدته؟

أجبته.

ـ حقوقي؟

ـ حقوقي.

قفز أطلس عن كرسيه ودار حول الطاولة: «رائع! »

ـ سيتحدث معكم النقيب ريروف!

ـ ومن هو النقيب ريروف؟

ـ إنه قائد الـ س.ب.و(41). انزلوا إلى تحت. عدت من جديد إلى مكاني السابق قرب الشوفاج. قررت وأنا أُقلِّب الأمر في ذهني أن آكل كيلو «الخبز الأبيض» الذي أعطاني إياه جندي الحراسة.

يوجد هنا برميل ماء ربطت إليه باطيه. تكتكت الساعة بسلام على الجدار.

سمعت وأنا نائم وقع خطوات شخص ما يمر قربي صاعداً إلى أعلى بخطوات سريعة، وكان أن أيقظني المناوب.

ـ هيا، إلى النقيب ريروف.

اقتادوني إلى الطابق الثاني. فتح باب غرفة المكتب الصغيرة، فسمعت صوتاً حاداً:

ـ إلى هنا، إلى هنا!

هذا المكتب عادي، أكبر بقليل من سابقه، حيث كنت منذ ساعتين.

كانت عينا النقيب ريروف الزجاجيتان مصوبتين نحوي مباشرة. كان هناك على زاوية الطاولة كأس شاي مع الليمون، لم ينته النقيب من شربه بعد وصحن فيه قطعة جبن مقضومة، وهواتف، وأضابير، وصور.

ـ كنيتك؟

ـ أندرييف.

ـ اسمك، واسم أبيك، مادة الحكم ومدته؟

ـ حقوقي؟

ـ حقوقي.

انحنى النقيب ريبروف فوق الطاولة مقرباً عينيه الزجاجيتين مني، ثم سألني:

ـ هل تعرف بارفينتييف؟

ـ بلى، أعرفه.

كان بارفينتييف عريف مجموعتي في المنجم، قبل أن أُنقل إلى مجموعة شميليوف. نقلوني من مجموعة بارفينتييف إلى مجموعة بوتورايف، ثم إلى مجموعة شميليوف. وقد اشتغلت عند بارفينتييف عدة أشهر.

ـ نعم، أعرفه. إنه عريف مجموعتي، ديمتري تيموفيفيتش بارفينتييف

ـ هاه، جيد. إذاً أنتم تعرفون بارفينتييف!

ـ أجل، أعرفه.

ـ وهل تعرفون فينوغرادوف؟

ـ لا، أنا لا أعرف فينوغرادوف.

ـ فينوغرادوف، رئيس محكمة دال كراي؟

ـ لا أعرفه.

أشعل النقيب ريبروف سيجارة، ثم سحب نفساً عميقاً وهو لايزال يتفحصني، مفكّراً بشيء ما خاص به. أطفأ النقيب ريبروف السيجارة بالصحن.

ـ إذاً، أنت تعرف فينوغرادوف، ولا تعرف بارفينتييف؟

ـ لا، أنا لا أعرف فينوغرادوف...

ـ آ، نعم. أنت تعرف بارفينتييف، ولا تعرف فينوغرادوف، ليكن، لا بأس!

ضغط النقيب ريبروف زر الجرس. فُتح الباب خلف ظهري.

ـ إلى السجن!

بقيت فوامة السيجارة وقطعة الجبن قرب الدورق المملوء بالماء على يمين طاولة رئيس الـ س.ب.و. اقتادني الحارس في عمق الليل عبر ماغادان النائمة.

ـ امشِ، أسرع.

ـ أنا لست مستعجلاً إلى أي مكان.

ـ كلمة واحدة! ـ سحب الحارس مسدسه ـ وأطلق عليك النار، مثل كلب. تصفيتك أمر تافه.

ـ ألم تتسرع ـ قلت للحارس ـ ستُسأل عن هذا أمام النقيب ريبروف.

ـ إمشِ، وباء...!

ماغادان، إنها لمدينة صغيرة، فسرعان ما وصلنا إلى «بيت فاسكوف»، هكذا يسمون هنا السجن المحلي. كان فاسكوف نائباً لبيرزين، عندما تم بناء ماغادان. وكان السجن الخشبي واحداً من أوائل مباني ماغادان، وقد احتفظ باسم الشخص الذي بناه. لقد بني في ماغادان من مدة طويلة سجن حجري آخر، وهذا المبنى الجديد المزود بأحدث تقنيات التعذيب سمي أيضاً بـ «بيت فاسكوف».

بعد محادثات قصيرة في محرس البوابة، أدخلوني إلى دار «بيت فاسكوف»: هو جناح واطئ طويل مبني من جذوع الشربين الملساء يتألف من «عنبرين» خشبيين.

ـ إلى الثاني، أمرني صوت من الخلف.

قبضت على مسكة الباب، فتحت الباب وولجت.

طابقان من تخوت مملوءة بالبشر، ولكن ليست محشوة، ولا مزدحمة. الأرض ترابية، المدفأة نصف برميل يقف على سيقان معدنية طويلة. رائحة عرق بشري، وليزول[42] وأجساد قذرة. تسلقت بصعوبة إلى فوق، هناك أدفأ على أية حال، واستلقيت في مكان خال.

استيقظ جاري.

ـ أَمِنَ التايغا؟

ـ من التايغا.

ـ مع قمل؟

ـ مع قمل.

ـ نم في الزاوية، إذاً. ليس لدينا قمل هنا. هنا يقومون بالتعقيم أحياناً. «التعقيم أمر جيد، فكرت أنا، لكن الأهم من كل شيء الدفء».

في الصباح، جاؤوا بالطعام: خبز وماء مغلي. لم تكتب لي حصة خبز بعد.

خلعت جزمتي، ووضعتها تحت رأسي، أنزلت سروالي القطني لكي تتدفأ قدماي. غفوت واستيقظت بعد يوم كامل، حين صاروا يمنحونني حصة خبز. ها قد صرت من المطعمين في «بيت فاسكوف».

قدموا لنا على الغداء مرقة (غالوشكي)[43] وثلاث ملاعق عصيده. نمت حتى صباح اليوم التالي، حتى تلك اللحظة حين أيقظني ذلك الصوت الفظيع، صوت السجان المناوب.

ـ أندرييف! أندرييف! من منكم أندرييف؟

نزلت عن السرير

ـ أنا، أندرييف.

ـ أخرج من هنا، اذهب إلى ذلك الجناح.

فُتحت أبواب «بيت فاسكوف» أمامي، فدخلت ممراً واطئاً نصف معتم. أدار السجان المفتاح في القفل، سحب كتلة الدرباس الثقيلة ثم فتح باب العنبر الصغير.

كان هناك رجلان يجلسان محنيي الظهر في زاوية تخت سفلي. مشيت نحو النافذة وجلست.

هزّني واحدٌ ما من كتفي. كان هو عريف مجموعتي السابق في المنجم ديميتري تيموفيفيتش بارفيتتييف.

ـ هل تفهم، شيئاً مما يجري؟

ـ لا، أنا لا أفهم شيئاً.

ـ متى جاؤوا بك إلى هنا؟

ـ منذ ثلاثة أيام، نقلني أطلس في سيارة خفيفة.

ـ أطلس؟ هو الذي استجوبني في مركز الناحية. في الأربعين من عمره، أصلع قليلاً، في بذة رسمية.

ـ عندما كان معي، كان في بدلة عمل.

ـ وعمّ سألك النقيب ريروف؟

ـ إذا كنت أعرف فينوغرادوف

ـ أهَا؟

ـ ومن أين لي أن أعرفه؟

ـ فينوغرادوف، رئيس محكمة دال ستروي.

ـ أنت تعرف فينوغرادوف، أما أنا فلا أعرف من هو.

ـ أنا درست معه.

بدأت أفهم شيئاً ما: قبل أن يعتقل بارفينتييف، كان قاضي منطقة كاريليا في تشيليابنسك. عندما سمع فينوغرادوف أثناء سفره عبر منجم «الفدائي» أن رفيق دراسته بارفينتييف هنا في المعتقل ترك له نقوداً، وطلب من أنيسيموف رئيس المنجم مساعدته. حُوِّل بارفينتييف إلى حدّاد «مقاتل مطرقة» بينما قام أنيسيموف بإخبار الرفيق سيمرتين بطلب فينوغرادوف، وسميرتين بدوره أخبر النقيب ريروف في ماغادان، فبدأ رئيس س.ب.و التحقيق بقضية فينوغرادوف. لقد تم تجميع كل الحقوقيين المعتقلين من شتى مناجم الشمال.. أمّا الباقي فمشكلة التحقيق وآلياته...

ـ ونحن هنا، لماذا؟ أنا كنت في الخيمة...

ـ سيطلقون سراحنا، يا أبله. قال بارفينتييف.

ـ يطلقون سراحنا؟ إلى الحرية؟ يعني ليس إلى الحرية، إلى معسكر النقل، إلى الترانزيت..

ـ بلى. قال واحد ثالث، زاحفاً باتجاه الضوء، مصوباً نحوي نظرة شك

واضحة. كان وجهه محمّراً، وجه دميم شبعان. كان يلبس سترة سوداء، وكان قميصه مفتوحاً على صدره.

ـ معارف، آ؟ لم يسحقكم النقيب ريروف بعد، أعداء الشعب الـ...

ـ وأنت مَنْ، صديق الشعب؟

ـ لأكن ماأكون فأنا في أسوأ الأحوال لم أحمل نياشين، ولم أسخر من الشغيلة، أنا لست سياسياً. من ورائكم أنتم، من وراء أمثالكم نحن ندخل السجن.

ـ أنت لص، يعني؟ قلت له.

ـ عندك ـ لص؛ عند غيرك ـ أبو مقص.

ـ توقفوا، كفاية، توقفوا. أخذ عني بارفينتييف كتفاً.

ـ نذل، لا يُطاق.

قرقعت الأبواب

ـ اخرجوا

تدافع عند البوابة سبعة أشخاص. تقدمت وبارفينتييف إلى الأمام

ـ ماذا بكم، هل أنتم حقوقيون؟

ـ نعم، نعم!

ـ ما الذي حصل؟ لماذا يخلون سبيلنا؟

ـ لقد اعتُقل النقيب ريروف، وهناك تعليمات بإطلاق سراح كل من كان ريروف مسؤولاً عن قضيته، أعلن ذلك أحد السجانين بصوت منخفض وهو يقودنا جميعاً إلى الخارج.

كاليغولا[44]

وصلت الرسالة إلى إدارة المناجم مع حلول الظلام، قبل بوق نهاية يوم العمل.

أشعل القومندان مصباح البنزين، ثم قرأ الرسالة، وخرج مسرعاً لإعطاء الأوامر. لم ير القومندان أية غرابة في الأمر. سألهُ الحارس المناوب فاتلا سبابة يده اليمنى عند الصدغ:

- ألم يفقد عقله؟

نظر القومندان بيرود إلى جندي الحراسة، فأصاب الأخير الذعر جرّاء مزحته الخرقاء وفي هذه الأثناء أزاح نظره باتجاه الطريق وقال:

- إنهم يقودونها، أرداتيف بذاته قادم.

كان يُرى خلال الضباب جنديا حراسة يحمل كل منهما بندقية، وكان وراءهما سائس يجر فرساً رمادية هزيلة من لجامها. إلى جوارهم، في الثلج مباشرة، خارج الطريق كان يسير رجل كبير القد، ثقيل الجسد. كان معطفه القصير، المصنوع من فرو الغنم مفتوحاً، وكانت قبعته مزاحة إلى الخلف، وكان يمسك بيده عصا يضرب بها جانبي الفرس النحيلين، الضامرين، القذرين، اللذين تبرز منهما عظامها بحدّه. انتفضت الفرس مع كل ضربة، متابعة جرجرة حوافرها، غير قادرة على المشي أسرع.

أوقف الحارسان الفرس عند محرس البوابة. تقدم أرداتيف مضطرب الخطو إلى الأمام، متنفساً كحصان منهك، زافراً رائحة الكحول في وجه القومندان المشدود الصدر مباشرة، وحشرج متسائلاً:

ـ مستعدون؟

أجابه القومندان:

ـ أجل، مستعدون.

عندئذ، صاح أرداتيف:

ـ قدها إلى هنا إذاً، أدخلها في السجلات أنا الذي أعاقب البشر لن أرحم الخيول.. سوف أرغمها على فعل ما أريد ـ ثم تذمّر متمتماً، ضارباً بقبضة يده صدر القومندان ـ إنها لا تعمل لليوم الثالث على التوالي، كنت سأحبس السائس فالخطة لا تُنفّذ، الخطة لا تتحقق أتفهم.. لكن السائس أقسم لي «ليس أنا، بل الفرس هي التي لا تعمل»، أنا أف.. ف.. منهم ـ تأ تأ أرداتيف ـ أنا واث.. ث.. ث ق. قلت له: أعطني الرسن. أخذت الرسن لكنها لم تتحرك، ضربتها، لا تمشي، أعطيتها سكّراً أخذته من البيت خصيصاً من أجلها لم تأكله.. يا لك من حقيرة ـ فكرت ـ كيف سأخرج أيام العمل الخاصة بك، إلى أين سأذهب بهذه السافلة؟ إلى جميع التنابل، إلى جميع أعداء الإنسانية، إلى الزنزانة، على الماء فقط دون طعام لثلاثة أيام على مخالفتها الأولى.

جلس أرداتيف على الثلج، خلع قبعته، تدلّى شعره الرطب الأشعث فوق عينيه. نظر إلى أعلى محاولاً الوقوف فتأرجح وسقط على ظهره فارشاً ذراعيه. تعاون الحارس والقومندان على حمله إلى داخل المحرس.

ـ إنه مخمور، يغط في النوم، أننقله إلى البيت؟

ـ دعنا لا نفعل، فزوجته لا تحب ذلك.

ـ والفرس؟

ـ يجب إدخالها إلى السجن، إذا استيقظ ورأى أننا لم نحبسها سيقتلنا، إحبسها في الزنزانة الرابعة عند المثقفين.

* * *

حمل اثنان من المعتقلين القرم إلى غرفة المناوبة، وكوّماها قرب الموقد.

سأل أحدهما، محولاً نظره نحو الباب الذي يشخر وراءه أرداتيف:

ـ ما رأيكم بيوتر غريغوريفيتش؟

ـ هذا ليس بجديد عليه... كاليغولا...

ـ أجل، أجل، كما عند ديرجافين[45] ـ أكمل الثاني ـ وألقى منتصباً قصيدة ديرجافين بإحساس: كاليغولا!

أنّى لحصانك المكلل بالتبر أن يلمعْ

فالأعمال الطيبّات وحدها التي تسطعْ

دخّن المعتقلان العجوزان. فراح دخان الماخوركا الأزرق يسبح في فضاء الغرفة ويحوم قبل أن يتبدد.

«البطّة»

كان الجليد قد احتل مياه الجدول الجبلي، أما على المنحدرات، فلم يكن هناك جليد بعد. تجمد الجدول بدءاً من الشلالات، ولكن لم ينقض شهر حتى لم يبق من الماء الصيفي الراعد المتوعد أي شيء. حتى الجليد ديس وسحق وكبس بالحوافر والعجلات والجزمات. ومع هذا كان الجدول لايزال حيّاً يتنفس الماء فيه، فقد تصاعد البخار الأبيض فوق البرك الذائبة، وفوق نقر الماء غير المتجمدة بعد. وإذا بيطة خائرة القوى تحط على سطح الماء. كان السرب قد طار نحو الجنوب منذ زمن طويل، وبقيت هذه البطة وحدها. لم يبرح الضوء بعد والثلج الأبيض يغدو كل شيء معه أضوأ وهو يغطّي جُلَّ وجه الأرض حتى حدود الأفق. أرادت البطة أن تستريح، أن ترتاح قليلاً فحسب، ومن ثم تنهض وتعلو وتطير إلى هناك لاحقة بالسرب. بيد أنها لا عزم لديها لتطير. لكأن جناحيها الثقيلين مائة بود تشدها إلى الأرض، ومع ذلك ها هي تجد في الماء سنداً ومنقذاً لها فقد بدا لها ماء البركة نهراً حياً.

لم تكد البطة تأخذ نفساً، تتلفت حولها، حتى التقط سمعها المرهف صوت الخطر. لم يكن صوتاً بل كان قصفاً. من الأعلى، من جبل الثلج، رجل ما هبط راكضاً، متعثراً بأنياب الجليد المتصلبة مع حلول المساء. كان قد رأى البطة وهي تطير، وراقبها محتضناً في سره أملاً، وها هو الأمل يتحقق فقد حطت البطة على الجليد. تسلل نحوها وهوى متعثراً. رأته البطة. عندما ركض (هو)، لم تستطع (هي) الطيران. إنها منهكة. كان عليها أن ترتفع فقط إلى أعلى فما أحاق بها إلاّ التهديد والوعيد. لكن لابد لها من قوة في جناحيها لكي ترتفع إلى السماء بينما هي خائرة القوى. كل مافعلته البطة كان أن غاصت في عمق الماء. أما الرجل

المسلح بغصن ثقيل فقد توقف عند حافة نقرة الجليد، حيث غاصت البطة، منتظراً أن تعود إليه من جديد.

كانت هناك نقرة أخرى على بعد عشرين متراً من الأولى. وقد رآها لاعناً شاتماً كيف سبحت تحت الجليد وطفت هناك. إنما هناك أيضاً لم يكن بمقدورها أن تطير فأمضت بضع ثوانٍ تستريح.

حاول الرجل أن يحطّم الجيد ويسحقه، لكن جزمته كانت من اللباد وهي لاتصلح لذلك. خبط بعصاه على الجليد الأزرق. تفتت الجليد قليلاً غير أنه لم ينكسر. خارت قواه فانهدّ على الجليد يتنفس بصعوبة، أما البطة فقد عامت في ماء النقرة. ركض الرجل يقذفها بالشتائم والحجارة فغاصت لتطفو في النقرة الأولى. هكذا تصارع الرجل والبطة حتى هبط الظلام.

لقد حان وقت العودة من الصيد غير الموفق، من صيد الصدفة. تأسف الرجلِ لأنه أهدر قواه في تلك المطاردة المجنونة. لم يتركه الجوع يفكر كما يجب، ويضع خطة مضمونة لخداع البطة. إنها لهفة الجوع طرحت الأسلوب الخاطىء، الخطة الرديئة.

بقيت البطة في نقرة الجليد. آن أوان العودة إلى البرّاكه. طارد الرجل البطة لا لكي يطبخ لحم الطير ويأكله. البطة طائر من لحم، أليس كذلك؟ يمكنْ سلقها في القدر المعدني، لكن الأفضل من ذلك تغليفها بالطين، وطمرها في الرماد الليلكي المتوهج. تتوهج النار ويتشقق غلاف الطين المشوي. وهناك في الداخل سيكون الدهن الساخن اللزج. سيسيل الدهن على اليدين، ويفتر على الشفتين. لا، ليس من أجل ذلك كله طارد البطة. دماغه بنى بغموض وضبابية خطته المتقلقلة. سيقدم هذه البطة هدية لعريف المجموعة، ليشطب العريف اسمه من القائمة اللعينة التي وضعت ليلاً. كانت كل البراكة قد علمت بوجود تلك القائمة، وكل واحد حاول ألا يفكر بالمستحيل، باللاممكن، بالتملص من النقل إلى مكان جديد والبقاء هنا. فما زال بالإمكان تحمل الجوع هنا، والإنسان لم يبحث أبداً عما هو أفضل من الجيد. لكن البطة بقيت في الماء.

كان من العسير عليه اتخاذ قرار، عمل شيء، التحرك، فالحياة اليومية هنا لم تعلمه مثل هذه الأشياء. لم يعلّموه كيف يطارد بطة.

..وهكذا جاءت حركاته واهنة مرتبكة. لم يعلموه التفكير بإمكانية مثل هذا الصيد. لم يحسن دماغه حل الأسئلة الطارئة التي طرحتها الحياة. لقد علمّوه الحياة، حيث لايكون عليك أن تقرر أي أمر، حين تحرّك إرادة غريبة، إرادة واحد ما كل أحداث حياتك، حين يكون من الصعب للغاية أن تتدخل فيما يتعلق بقدرك الشخصي، ربما يكون ذلك أفضل: البطة تموت في البركة، والإنسان في البرّاكه.

بالكاد تمكن من تدفئة أصابعه المتجمدة المجرّحة بنتوءات الجليد في عبّه. لقد حشر كلاً من يديه، بل يديه معاً في الوقت ذاته في عبه، متفضاً من تقزان أصابعه المتجمدة إلى الأبد. كان الدفء ضئيلاً في جسده الجائع. هاهو قد عاد إلى البراكه ليحشر نفسه قرب المدفأة، إلّا أن ذلك كله لم يشعرهُ بالدفء. لقد ارتجف جسده ارتجافاً شديداً عصياً على الاسترخاء.

كان عريف المجموعة يتابع ما يحصل من خلال باب البراكة. هو كذلك شاهد البطة. رأى مطاردة الرجل المحتضر للبطة المنازعة. العريف أيضاً لايرغب بمغادرة هذه (القرية). من يدري، ما الذي ينتظره في المكان الجديد. لقد بنى العريف خطته على الهدية السخية: بطة حيّة ولك الحرية. تستعطف قلب المدير النائم بعد، وهو حين يستيقظ يمكن أن يشطب اسمك من القائمة، اسم العريف لا اسم الذي اصطاد البطة.

فرك مدير المنجم سيجارة «راكيتا» بحركة معتادة من أصابع يديه. هو أيضاً رأى عبر نافذته بداية المطاردة. إذا أمسكوا بالبطة فسيصنع النجار لها قفصاً، وسيأخذ هو البطة إلى رئيس المعتقل، بل الأصح سيأخذها إلى زوجة الرئيس آغنيا بيتروفنا، وبذلك يكون قد ضمن مستقبله.

لكن البطة بقيت لتموت في نقرة الجليد. لقد سار كل شيء كما لو أنها لم تطر في هذه الأنحاء.

«رجل أعمال»

الأباترة كثيرون في المشفى. الأبتر ـ إنه لقب، علامة: هذا يعني أن اليد هي التي تضررت وليس الأسنان هي التي طارت. أي واحد من الأباتره؟ اليوناني؟ الطويل من المهجع السابع؟ هل هو كولا الأبتر، رجل الأعمال؟

تفتّت كف يد كولا اليمنى بانفجار. عوَّر كولا نفسه إنه (معورجي) من آفات الأطراف. في الحسابات الطبية يضعون من يشوهون أطرافهم بإطلاق النار عليها في القوائم ذاتها مع الذين يبترون أطرافهم بأيديهم، ويمنع استقبالهم في المشفى إلا إذا كانت حرارتهم عالية «حمى». كانت حرارة كولا الأبتر عالية إلى هذا الحد.

صارع كولا مدة شهرين كاملين التئام الجرح، لكن الشباب أخذ حقه في نهاية المطاف، واستراحة كولا في المشفى شارفت على الانتهاء. لقد آن أوان العودة إلى المنجم ومع هذا فكولا لايخاف، وماذا يهمه هو أبو اليد الواحدة في منجم الذهب؟ لقد ولّى ذلك الزمن حين كانوا يجبرون الأباترة على العمل أيام عمل كاملة في الثلج العميق البللوري الهش في رصف الطرقات طرقات الناس والجرارات لتقطيع الأخشاب ونقلها. قاومت إدارة المعتقلات مهشمي الأطراف قدر ما استطاعت، حينذاك صار المعتقلون يبترون أرجلهم، بوضع كبسولات في جزماتهم مباشرة وإشعال طرف الفتيل عند الركبة، فصار ذلك يربك الإدارة أكثر، كفوا عن إرسال الأباترة لـ «رصف الطرقات»، لكن أجبروهم على غسل الذهب تحت المزاريب بيد واحدة؟

لابأس، في الصيف سيكون ممكناً تجريب ذلك يوماً واحداً، إذا لم يهطل المطر.

أطلق كولا السباب ملء فيه ذي الأسنان البيض، فلم يكن الاسقربوط قد استولى على أسنانه بعد.

أمّا أن يلف كولا سيجارة بيده اليسرى وحدها، فها هو قد تعلّم ذلك وانتهى منه.

يبتسم كولا شبه الشبعان، كولا المرتاح في المشفى، يبتسم... فهو رجل الأعمال كولا الأبتر. كولا، إنه دائماً يقايض شيئاً ما، يأتي بالسمك المخلل إلى مرضى الإسهالات المحظر عليهم تناوله قطعاً، ويأخذ منهم الخبز بدلاً منه، (فالمسهَّلون) أيضاً يريدون البقاء في المشفى، التشبث بأمكنتهم هنا ما أمكن. يبدل كولا بقصعة الحساء قصعة عصيده، ومن ثم بقصعة العصيدة قصعتي حساء. كولا يجيد «مناصفة» وجبة الطعام المؤتمن عليها ليبادل بما أختلسه التبغ.

كان كولا يحصل عادة على هذه الأمانات من طريحي الفراش، من مرضى الاسقربوط المتورمين ومن أصحاب الكسور الكبيرة، في مهاجع المعطوبين، أوكما ينعتهم بافل بافلوفيتش فيلدشر دون سخرية بأصحاب «الأمراض الدرامية».

بدأت سعادة كولا الأبتر في ذلك اليوم حين نسف الانفجار يده. فهو الآن كاد يكون شبعاناً وفي مكان يكاد يكون دافئاً. أما شتائم القيادة، وتهديدات الأطباء فلا يلقي إليها كولا بالاً فهي لا تتعدى أن تكون أشياء تافهة، وهي فعلاً ترهات.

أشياء غريبة مرعبة عاشها كولا خلال هذين الشهرين من استجمامه في المشفى . لقد آلمته كفه غير الموجودة، كفه التي بترها الانفجار، آلمته كما كانت تؤلمه من قبل. شعر بها كولا بكل أجزائها: آلمته أصابع الكف المعقوفة كالكلابات، المثنية في المنجم على مقاس ذراع المعول أو المطرقة لا أكثر ولا أقل. كان من الصعب الإمساك بالملعقة بيد كمثلها، لكن ذلك لايهم فالملعقة لم تكن ضرورية أصلاً في المنجم فكل شيء كان يمكن التهامه من حافة القصعة: الحساء والعصيدة والسحلب والشاي. أما حصة الخبز فكان يمكن التقاطها بهذه الأصابع التي لا فكاك له من تقوسها دام حياً، لكن كولا الأبتر نسفها، فجّرها لتذهب إلى الشيطان. إذاً لماذا هو يشعر الآن بأصابعه المثنية التي طارت مع الانفجار؟ أوَ لم تبدأ

كف يده اليسرى منذ شهر تتفتح، تنبسط من جديد كمفصل صدىء تم تزييته قليلاً! وقد بكى الأبتر من شدة فرحه لانبساطها. حتى وهو مستلق الآن على بطنه مستنداً إلى راحة يده اليسرى يمكنه فتح أصابعها، بل ويستطيع فردها بحرية، أما راحة يده المبتورة، فلا تنبسط. لقد كان ذلك يحدث في الليل غالباً، والأبتر يتجمدّ فزعاً، يستيقظ ويبكي ولا يجرؤ على سؤال أحد عن الأمر حتى من أقرب جيرانه، فماذا لو أن ذلك عنى لهم شيئاً؟ فربما بدأ كولا يُجن.

صار كولا يشعر بالألم في راحة يده المبتورة أندر فأندر من ذي قبل، حتى صار العالم عادياً في نظره. فرح الأبتر بالتوفيق الذي أصابه. راح يبتسم مسترجعاً السهولة التي تم فيها كل شيء.

خرج بافل بافلوفيتش فيلدشر من «خلوته» يحمل بيده لفافة ماخوركا لم تشتعل بعد وجلس قرب الأبتر: نار، بافل بافلوفيتش؟ انحنى الأبتر أمام فيلدشر: لحظة واحدة! ثم اندفع إلى الموقدة فاتحاً بابها بيده اليسرى، ملقياً على الأرض بعدة جمرات صغيرات، قلب جمرة منها لم تمت النار فيها بعد بمهارة، ووضعها في راحة يده، وبدأ يدحرجها وقد كمد لونها، لكن النار كانت لاتزال في قلبها، ثم نفخ فيها مستقتلاً كيلا تنطفىء نارها، وقرّبها من وجه فليدشر الذي انحنى لإشعال لفافة التبغ.

راح فليدشر يشفط الهواء بقوة ضاغطاً على السيجارة بشفتيه وهاهو يبدأ أخيراً يدخن. وهاهي ندف الدخان الأزرق تسبح فوق رأس فليدشر، فينفتح منخرا الأبتر عن آخرهما. يستيقظ المرضى في المهاجع على رائحة التبغ ويشفطون الهواء باحثين بلا أمل عن الدخان، مستنشقين ليس دخاناً بل ظلاً راكضاً لذلك الدخان...

من الواضح للجميع أن عقب السيجارة سيكون من نصيب الأبتر. أما هو فيخطط لأكثر: سيمق مقتين، ثم بعد ذلك يحملها إلى قسم الجراحة ويعطيها لـ «الفراير» المحطم الظهر، وستنتظره هناك وجبة غداء، وجبة غداء ليست مزحة. أما إذا ترك بافل بافلوفيتش من اللفافة أكثر، فيمكنه تحويل الفوامة إلى سيجارة جديدة، ستساوي عندئذٍ أكثر من وجبة غداء

ـ اقترب موعد رحيلك أيها الأبتر ـ خاطبه بافل بافلوفيتش على مهل ـ «تشقلبت» هنا على كيفك، وتنفنفت على هواك... قل لي، كيف تجرأت وفعلت ذلك؟ ربما تصلح قصتك حكاية لأولادي، هذا إذا كنت سألتقيهم ثانية.

ـ بلى، وأنا لن أخفي عنك شيئاً يا بافل بافلوفيتش. أجابه الأبتر بينما كان يفكر: يبدو أن سيجارة بافل بافلوفيتش مخلخلة، فهو ما أن يسحب نفساً حتى تشتعل النار في الورق. سيجارة فليدشر لا تدخن، بل تشتعل كفتيل التفجير. هذا يعني يجب أن أقص عليه حكايتي بسرعة.

ـ هات؟

ـ أنهض صباحاً، أحصل على حصتي من الخبز، أضعها في عبي، كانوا يعطوننا حصتنا اليومية من الخبز دفعة واحدة في الصباح، أذهب لعند ميشكا عامل التفجير: كيف؟ أسأله

ـ يوجد.

أعطيه حصتي كاملة وأحصل مقابل ذلك على كبسولة وقطعة فتيل. أذهب إلى زملائي في البراكة. هم ليسوا زملائي طبعاً، إنما هكذا يقال. فيديا وواحد آخر اسمه بيترو

ـ على استعداد؟ أسالهما

ـ مستعدان. يجيبان.

ـ هاتوهما إذن. يعطيانني حصتيهما من الخبز، أضع الخبز في عبي فنمشي معاً لإنجاز عملنا.

بينما كانت مجموعتنا تستلم الأدوات في موقع العمل، أخذنا جمرة من الموقد، ثم ذهبنا إلى خلف الجروف، التحمنا بعضنا ببعض نحن الثلاثة، وضع كل منا كفه اليمين فوق كف الآخر ضاغطين على الكبسولة، أشعلنا الفتيل... ثمّ تناثرت أصابعنا في الهواء.

يصرخ عريف المجموعة: ما الذي تفعلونه؟ يصيح رئيس الحراس: هيا إلى النقطة الطبية!

هناك في النقطة الطبية قاموا بتضميدنا، ثم صرفوا زميليَّ لا أدري إلى أين، أما أنا، فقد ارتفعت حرارتي وأرسلت إلى المشفى.

دخن بافل بافلوفيتش السيجارة عن آخرها تقريباً، بينما كان الأبتر قد اندمج مع قصته وكاد ينسى الدخان.

ـ وحصتا الخبز، الحصتان اللتان بقيتا معك، هل أكلتهما؟

ـ طبعاً، ما أن ضمدوا يدي حتى التهمتهما. جاء زميليَّ: أعطنا نتفة، لتذهبا إلى الشيطان...، قلت لهما، هذه تجارتي أنا.

«ويسماني»(46)

كانت آثار مخالب ديبه لاتزال واضحة على الأرض أمام عتبة باب المستوصف.

كان القفل اللولبي المحتال الذي أوصد الباب مخلوعاً مع مساميره، مشلوعاً مع اللحم كما يقال... ومرمياً في الأجمات.

كانت الحوجلات والقارورات والمطربانات في الداخل مكنوسة عن الرفوف، محطمة على الأرض، محالة إلى جريش من الزجاج. لاتزال رائحة قطرات الفاليريان النفّاذة تفوح في المبنى، أما دفاتر أندرييف التي سجل عليها دروس دورة التمريض فقد مزقت وبعثرت إلى أشلاء.راح أندرييف طلة ساعات عدة يجمع بعناء أوراق مخطوطاته الثمينة ورقة ورقة، فلم تكن هناك أية كتب في دورة التمريض. كان الممرض أندرييف مسلحاً فقط بهذه الدفاتر لمعالجة الأمراض في أعماق التايغا. واحد من الدفاتر تأذى أكثر من البقية، إنه دفتر التشريح. كانت يد أندرييف غير المتمكنة، التي لم تتعلم الرسم يوماً، قد رسمت على صفحته الأولى مخطط انقسام الخلية وعناصر النواة والصبغيات السرية، إلا أن مخالب الدب مزّقت هذا المخطط بغيظ محتدم، مزّقت الدفتر ذي الغلاف السللوزي إلى أشلاء، فما كان أمام أندرييف إلاَّ إلقاؤه في نار الموقد. كانت خسارته لاتعوض فقد احتوى الدفتر على محاضرات البروفيسور أومانسكي.

كانت دورة التمريض التي أُخضع لها بعض المعتقلين تابعة للمشفى، أما أومانسكي فكان بروفيسوراً في التشريح المرضي، بل كان مدير المشرحة. لكأن المشرِّح المرضي رقابة عليا من عالم الأموات على عمل الأطباء المعالجين. عند ظهور

شكّ يتم على طاولة تشريح الجثث الحكم على صحة تشخيص المرض، وصحة معالجة الأطباء له. إنما مشرحة المعتقلين فليست كبقية المشارح. يهيء إليك أن ديمقراطية الموت العظيمة يجب ألا تميز بين الأشخاص الممددين على طاولة التشريح، يجب ألا تتحدث مع الجثث بلغات مختلفة. معالجة طبيب معتقل لمريض معتقل أمر غير هيّن أبداً، خاصة إذا لم يكن الطبيب سافلاً.

كل شيء يُجرى للمعتقلين في المشفى، وفي المشرحة حسب قواعد العمل في أي مشفى في العالم. ولكن المقاييس هنا مزحزحة، والمحتوى الحقيقي لإضبارة تاريخ مرض المعتقل شيء آخر تماماً، مغاير لتاريخ الشخص الحر المتعاقَد معه للعمل هنا.

القضية هنا ليست في أن المشرح ممثل الموت لا يزال إنساناً حياً، برغبات حيّة، بإحباطات، بميزات، وبنواقص، وبخبرات مختلفة، إنما القضية هنا في شيء آخر أكبر من ذلك، فجفاف خلاصة التشريح الرسمي يجعلها غير كافية لا لإيضاح سبب الموت، ولا لإمكانية المحافظة على حياة الميت المهدورة. إذا مات المريض من حالة شخّصت على أنها سرطان، وتبين أثناء التشريح عدم وجود ورم خبيث، وكل ما عثر عليه كان فقط حالة استنزاف جسدي شديد أدت إلى الموت، فإن أومانسكي كان يمتعض، ولا يعذر الأطباء الذين لم يستطيعوا إنقاذ المعتقل من الجوع. لكن إذا تبين أن الطبيب يعرف حقيقة الأمر، ولا يملك الحق بالتصريح بالتشخيص الحقيقي (الهزال الشديد الناجم عن الجوع)، وأنه يبحث محموماً عن مرادفات مقبولة (جوع فيتاميني، نقص فيتامينات عديد، بيلاغرا...)، فإن أومانسكي يساعد الطبيب بمحاكماته الواثقة. زد على ذلك، إذا ما أراد الطبيب الاكتفاء بتشخيص وقور بما فيه الكفاية (التهاب رئوي) أو (نقص تروية قلبية)، فإن إصبع المشرّح توجه انتباه الطبيب إلى الخصوصية المعتقلية لأي مرض هنا.

كان الضمير المهني للطبيب أومانسكي محكوماً، ومقيداً معه أيضاً. فقد وضع أول تشخيص رسمي لهزال الجوع بعد حصار لينينغراد، آنذاك سمي الجوع حتى في المعتقل باسمه الحقيقي.

يفترض بالمشرح أن يكون قاضياً، أما أومانسكي فطبيب مشارك... وفي

الحقيقة كان يمكن له أن يكون قاضياً، لأنه، بالضبط، كان طبيباً مشاركاً. ورغم ارتباط أومانسكي بالتعليمات والعادات والأوامر والتفسيرات... فإنه كان ينظر إلى الأمور نظرة أكثر عمقاً، وأكثر مبدئية. لم ير أومانسكي مهمته الأساسية في اصطياد أخطاء الأطباء الصغيرة التافهة، بل في رؤية وإيضاح أشياء أخرى كبيرة وقفت وراء هذه الصغائر: ذلك الهزال الناجم عن الجوع الذي غيّر أعراض الأمراض التي قرأ عنها الطبيب في الكتب الدراسية.

أما كتاب أمراض المعتقلين، فلم يكتب حتى الآن، وهو لم يكتب قبلاً في يوم من الأيام. التجمد هنا في معسكر الاعتقال ذلك الفاجع للجراحيين القادمين من جبهة القتال، ومعالجة الكسور أشياء تتم رغماً عن إرادة المريض.

كي يتمكن المريض من دخول جناح مرضى السل يأخذ «قشعات» من مسلول ويضعها في فمه قبل إجراء التحليل. يخلط المرضى البول بالدم، بعد أن يجرحوا أصابعهم على الأقل كي يدخلوا المشفى، كي يتخلصوا من العمل المهين، القاتل، المريع في معسكرات الأشغال الشاقة ولو يوماً واحداً، ولو ساعة واحدة.

عرف أومانسكي هذا كغيره من أطباء الكاليما العتق، ووافق عليه، وغض النظر عنه.. أما كتاب تدريس أمراض المعتقلين فلم يؤلف بعد.

حصّل أومانسكي تعليمه الطبي في بروكسل، وعاد مع قيام الثورة إلى روسيا، ليعيش في مدينة أوديسا، ويعالج المرضى هناك.

في المعتقل فهم أومانسكي أن تشريح الموتى أريح للضمير، من معالجة الأحياء. وهكذا صار مسؤولاً عن التشريح المرضي، وصار مدير مشرحة.

دخل غرفة الصف عجوز في السبعين من عمره لم يهرم بعد، بفكين صناعيين متخلخلين، وبرأس فضي محلوق حلاقة معتقلين قصيرة، عجوز مزوح، ذو أرنبة أنف بارزة إلى أعلى. كانت محاضرته ذات أهمية خاصة للمعتقلين الدارسين، ليس لأنها كانت المحاضرة الأولى، بل لأن الدورة بدأت تعيش مع الكلمة الأولى التي نطقها هذا البروفيسور أومانسكي. فعلاً، بدأت الدورة وبجدية، رغم أنها كانت منذ قليل حلماً للدارسين. ولّى زمن القلق، فلقد اتُّخذ

قرار فتح دورة التمريض، ولن يكون هناك بعد اليوم للكثيرين ذلك العمل المهين في مناجم الذهب، ذلك الصراع اليومي من أجل الحياة.

بدأت الدراسة بمحاضرات البرفيسور أومانسكي «تشريح أعضاء جسم الإنسان ووظائفها». اقترب العجوز الأشيب ذو معطف الفرو القصير البالي المفتوح، معطف الفرو وليس قمصلة القطن التي على أجسادنا نحن... اقترب من السبورة، وأمسك بيده الصغيرة قطعة عملاقة من الطباشير، ثم رمى قبعته المدعوكة ذات الأذنين على الطاولة.. مع أن البرد لم يبرح بعد، فالشهر نيسان.

ـ سأبدأ محاضراتي بحديث عن بنية الخلية. هناك الكثير من الجدل العلمي حولها الآن...

أين؟ أي جدل؟.. ماأشد ما كانت حيوات هؤلاء المعتقلين الثلاثين ـ من المحقق السابق إلى البائع في مخزن ريفي ـ بعيدة عن حياة العلم، كانت أكثر بعداً عنها من بعدها عن الموت، وكل منهم كان يدرك هذا الأمر جيداً... وأية علاقة تربطهم بتلك النقاشات الدائرة في العلم؟ وأي علم من العلوم هذا التشريح؟ وهذه الفيزيولوجيا؟[47] وهذه البيولوجيا؟ وهذه الميكروبيولوجيا؟ لم يكن أي من الدارسين يستطيع في ذلك اليوم أن يعرّف «البيولوجيا»، فالدارسون الذين كانوا أكثر تحصيلاً علمياً من سواهم عانوا من الجوع ما عانوه، حتى فقدوا الإهتمام بهذه المناقشات الدائرة في ـ الله يعلم ـ أي علم..

.. ـ هناك الكثير من الجدل في العلم،.. من المتعارف عليه الآن إعطاء معلومات أخرى في هذا القسم، لكنني سأزودكم بما أراه مناسباً. لقد اتفقت مع إدارتكم على تقديم هذا الجزء من المقرر بطريقتي الخاصّة.

حاول أندرييف أن يتخيل تلك القيادة التي اتفق معها البروفيسور خريج بروكسل: مدير المشفى الذي راحت نظرته ـ نظرة البواب تخترق كل معتقل في امتحان القبول، أم القائم بأعمال مدير الإدارة الصحية، الأحمر الأنف، المحوزق، الذي تفوح منه دائماً رائحة الكحول.. عداهما، لم يستطيع أندرييف أن يتصور أحداً من الإدارة.

ـ سأعطيكم هذا الجزء بأسلوبي الخاص، ولا أريد أن أخفي عنكم وجهة

نظري الشخصية. «إخفاء وجهة نظره الشخصية»! أعاد أندرييف هذه العبارة هامساً، مأخوذاً بهذه الكلمات غير العادية، من هذا العلم غير العادي.

ـ لا أريد أن أخفي وجهة نظري الخاصة، أنا ويسماني يا أصدقائي...

توقف أومانسكي عن الحديث، حتى نتمكن من تثمين شجاعته ولطفه.

ويسماني؟ كان ذلك للدارسين سواء بسواء. لم يكن هناك أحد من المتدربين الثلاثين يعلم ما هو الإنقسام غير المباشر للخلايا، وماذا تعني خيوط نيوكليوبروتيئيديه، أو صبغيات حاوية على حمض نووي ريبي منقوص الأوكسجين ولن يعرفوا ذلك أبداً. وإدارة المشفى أيضاً لم يكن يعني لها شيئاً هذا الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين. ولكن ما أن انقضى عام، أو اثنان حتى اخترقت الأشعة القاتمة للمناقشات القائمة في علم الأحياء المجتمع في شتى اتجاهاته، وباتت كلمة «ويسماني» مفهومة بما يكفي للمحققين ذوي التحصيل الحقوقي المتوسط، وللناس العاديين المجروفين بعاصفة القمع السياسي.

كانت كلمة «ويسماني» تشع بالنذير والوعيد والشرور، ككلمة «تروتسكي»[48] أو «كوسموبوليتي»[49]. وبعد مرور عام على المناقشات «البيولوجية» تذكر أندرييف شجاعة العجوز أومانسكي ولطفه، وأعطاه حقه.

* * *

كان ثلاثون قلماً يرسمون على ثلاثين دفتراً أشكال الصبغيات. وهذا الدفتر بالذات من دفاتر أندرييف مع ما فيه من صبغيات أثار حنق الدب أكثر من سواه.

لم تكن صبغيات أومانسكي المبهمة، وعفويته، ومحاضراته الذكية وحدها التي تشغل ذاكرة أندرييف عنه.

في نهاية الدورة، عندما صار الممرضون يشعرون بوجود الروب الأبيض على أكتافهم، ذلك الروب الذي يفصل جماعة الطب عن بسطاء جماعة الموت، عاد أومانسكي ليعلن شيئاً غريباً من جديد:

ـ لن أعطيكم تشريح الأعضاء التناسلية. لقد اتفقت مع إدارتكم على ذلك، كنا في الدورات السابقة نعطيهم هذا الجزء، لكننا لم نحصد من ذلك أي خير..

أرى من الأفضل أن تأخذوا بدلاً من ذلك بعض المعلومات العملية في مجال الأمراض الباطنية.. أن تتعلموا على الأقل وضع مطربانات لجمع عينات البول و...

وهكذا حصلوا على شهادات من دون أن يتعلموا ذلك الجزء الهام من التشريح. ولكن، هل كان ذلك هو الشيء الوحيد، الذي لم يعرفه ممرضو المستقبل؟

بمرور شهرين من بدء الدورة، عندما بات ممكناً إسكات الجوع مصّاص الجسد، أو إيقافه وقهره، لم يعد أندرييف يرفع كل عقب سيجارة يراه في الطريق، أو في الشارع، أو على التراب أو الرصيف، وقد بدأت تظهر على وجهه علامات إنسانية جديدة.. أو ربما هي قديمة؟ ليس فقط عينا أندرييف، بل ونظرته أيضاً صارت أكثر إنسانية، وها هو يُدعى لشرب الشاي عند البروفيسور أومانسكي.

كان الشاي هنا بالفعل شاياً، لا سكّر معه ولا خبز، ولم يكن أندرييف يحلم بشرب الشاي مع الخبز. كان الشاي يعني حديثاً مسائياً مع البروفيسور أومانسكي، حديثاً في الدفء.. حديث رجل لرجل.

عاش أومانسكي في المشرحة.. لا، بل في غرفة ديوان المشرحة، ولم يكن هناك باب يفصلها عن صالة التشريح، وكان يمكن رؤية طاولة التشريح المغطاة بمشمع من جميع زوايا غرفة أومانسكي. ليس هناك باب لغرفة التشريح، ومع ذلك تصرف أومانسكي وكأن الباب موجود، متحسساً كل الروائح التي تخطر بالبال. لم يدرك أندرييف، في الحال، ذاك الذي يجعل الغرفة غرفة، ولكنه في نهاية المطاف فهم أن أرض الغرفة أعلى بنصف متر من أرض المشرحة.

انتهى يوم العمل، وها هو أومانسكي يضع على طاولة المكتب صورة لامرأة شابة مغطاة بزجاج مائل للخضرة في إطار من الصفيح، غير منتظم ولا متقن الصنع. بدأت حياة البروفيسور أومانسكي الخاصة بهذه الحركة المعتادة، المضبوطة: أمسكت أصابع يده اليمنى بخشبة درج الطاولة، وسحبته ليستند على بطنه، بينما أخرجت اليد اليسرى الصورة، ووضعتها أمامه على الطاولة...

ـ ابنتك؟

ـ بلى، لو كان صبياً لكان الأمر أسوأ بكثير. أليس كذلك؟

كان أندرييف يفهم جيداً الفرق بين الصبي والبنت لدى المعتقل.

أخرج أومانسكي من درج الطاولة ـ أجل، كان فيها الكثير من الدروج ـ أخرج عدداً كبيراً من الأوراق المدعوكة، المحكوكة، المقسمة بخطوط عمودية، وخطوط أفقية كثيرة إلى مربعات. وفي كل مربع من المربعات كانت ترقد كلمة مكتوبة بخط أومانسكي الناعم. كانت هناك آلاف، بل عشرات آلاف الكلمات المكتوبة بكوبيا بهت لونه بفعل الزمن، والمعلّمة بحبر جديد في بعض الأماكن. يبدو أن أومانسكي يعرف عشرين لغة...

ـ أنا أعرف عشرين لغة ـ قال أومانسكي ـ أعرفها حتى قبل الكاليما، أعرف اللغة العبرية القديمة معرفة ممتازة، وفي هذه المشرحة، هنا بجوار الجثث تعلمت العربية، والتركية، والفارسية... ووضعت جدولاً مشتركاً للغة موحّدة.. أتفهمون عما أتحدث؟

ـ يخيل إلي، نعم ـ أجاب أندرييف ـ مات (أم) «موتير»، برات (أخ) «بروتير».

ـ حسناً، حسناً، ولكن كل شيء أعقد وأهم من ذلك... فأنا اكتشفت أشياء جديدة. سيكون هذا القاموس مساهمتي في العلم، سيشكّل مغزى حياتي.

ـ أنتم لستم لسانياً، أليس كذلك؟

ـ لا، أيها البروفيسور. أجاب أندرييف وقد اعتصر الألم قلبه، فلشد ما أراد في هذه اللحظة أن يكون لسانياً.

ـ مؤسف حقاً. تغيرت هيئة تجاعيد وجه أومانسكي لحظات، ثم عادت إلى وضعها السابق:

ـ مؤسف، علم اللسانيات أمتع من الطب، ولكن الطب أضمن، وينقذ أكثر.

درس أومانسكي في بروكسل، وعاد بعد الثورة إلى وطنه، وعمل طبيباً، وداوى، وأدرك جوهر عام السابع والثلاثين، وفهم أن وجوده الطويل خارج البلاد، ومعرفته باللغات الأجنبية، وأفكاره الحرة ستكون سبباً كافياً لاعتقاله.

حاول العجوز أن يحتال على القدر فذهب للعمل في (دال ستروي)[50] تطوع للعمل كطبيب في الكاليما، في الشمال الأقصى، وجاء إلى ماغادان ليعمل أجيراً. طبّب وعاش هناك. لكن أومانسكي لم يتعلّم، للأسف، شمولية التعليمات النافذة. لم تنقذه الكاليما، ولم يكن ممكناً أن ينقذه حتى القطب الشمالي. اعتقل أومانسكي، وحوكم عسكرياً، وحكم عليه بعشر سنين. تخلت ابنته عن والدها عدو الشعب، واختفت من حياته، ليبقى منها فقط هذه الصورة المحفوظة بالصدفة على طاولة مكتب البروفيسور البروكسلي.

ها قد انتهت مدة الحكم، وحصل أومانسكي على بطاقة أيام العمل، ولشدّ ماكان يهتم بحساب أيام عمله.

جاء اليوم الذي دعي فيه أندرييف لشرب الشاي من جديد عند البروفيسور أومانسكي. انتظرت أندرييف هناك باطية مطلية ومجرّحة، ملآنة بشاي ساخن. وإلى جانب هذه الباطية انتصب كأس أومانسكي، وهو كأس زجاجي مخضر أغبش اللون، وقذر قذارة غير معقولة، حتى من وجهة نظر أندرييف المجرِّب. لم يغسل أومانسكي كأسه في يوم من الأيام. وذلك كان أيضاً اكتشافاً من اكتشافاته الخاصة، ومساهمة منه في علم الصحة، وكان مبدأ حافظ أومانسكي عليه بصلابة وإصرار وتعصّب تربوي.

ـ الكأس غير المغسول في ظروفنا أكثر نظافة من المغسول. إنه أفضل أسلوب لحماية الصحة، وربما كان الأسلوب الوحيد... أفهمتم؟

طقطق أومانسكي أصابع يديه:

ـ في المنشفة يوجد عدوى أكثر مما في الهواء. لايستحسن غسل الكأس. لدي كأس خاص من كؤوس حَمَلَةِ المذهب القديم[51]. وأفضلّ عدم شطفه بالماء، فالعدوى في الهواء أقل مما هي في الماء. إنها ألف باء الوقاية الصحية، هل فهمتم؟ ضيّق أومانسكي عينيه:

ـ هذا الإكتشاف ليس فقط للمشرحة.

بعد شرب الشاي، والتعاويذ اللسانية همس أومانسكي في أذن أندرييف، وهو يكاد يختنق:

ـ أهم شيء أن تعيش إلى مابعد ستالين. كل من سيبقى حيّاً إلى مابعد ستالين سيعيش. هل تفهمون؟ لايمكن إلاً أن تتحول لعنات ملايين البشر على رأسه إلى مادة. هل تفهمون؟ هو سيموت بلا شك من كره الجميع له. سيصاب بالسرطان، أو بشيء ما آخر مميت، أتفهمون؟ أما نحن فسنعيش.

صمت أندرييف.

ـ أنا أفهم حذركم، وأوافق عليه ـ قال أومانسكي ليس همساً هذه المرّة ـ تعتقدون أنني مخبر أستجركم إلى الكلام. أما أنا، فعمري سبعون عاماً.

صمت أندرييف.

ـ إنما بصمتكم، تفعلون الصحيح ـ قال أومانسكي ـ كان هناك بين المخبرين من هم عجائز في سن السبعين أيضاً.. كل شيء ممكن...

صمت أندرييف معجباً بأومانسكي، غير قادر على تجاوز نفسه، والنطق بأي حرف.

كان هذا الصمت الغريزي الجبّار جزءاً من السلوك الذي اعتاد عليه أندرييف خلال معايشته في المعتقل لاتهامات متنوعة، ولتحقيقات، واستجوابات، ولقواعد داخلية لم يكن من السهل الإخلال بها، أو التخلي عنها.

ضغط أندرييف على يد أومانسكي الصغيرة الجافة، الحارّة، ذات الراحة المجعدة، والأصابع المتحفزة.

عندما انتهت مدة اعتقال البروفيسور، حصل على ارتباط أزلي بماغادان.

مات أومانسكي في الرابع من آذار عام 1953 متابعاً حتى اللحظة الأخيرة من حياته بحثه في اللسانيات غير الموصى به لأحد، وغير المتابع من قبل أحد.

وهكذا لم يعرف البروفيسور أبداً أن هناك مجهراً الكترونياً، وأن نظرية الصبغيات أثبتت تجريبياً.

«الصورة المغسولة»

إن أحد أهم المشاعر في المعتقل هو الشعور بالذل اللامتناهي، ومعه الشعور بالعزاء من وجود شخص ما حاله في جميع الظروف والأحوال أسوأ من حالك. هذا التدرج متعدد الأشكال، لكن هذا العزاء منقذ، وربما يختبىء تحته أهم أسرار الإنسان. هذا الشعور.. منقذ كالراية البيضاء، إنما هو في الوقت نفسه مصالحة مع اللامقبول.

كان كريست قد تملص لتوه من الموت، تخلّص منه يوماً واحداً لا أكثر، فغد المعتقل سر لايمكن التنبؤ به. ·كريست عبد.. دودة، أجل هو دودة بلا ريب، فالدودة هي الكائن الوحيد بين الأحياء بلا قلب.

أُدخل كريست إلى المشفى؛ توسف الجلد البيلاغري الجاف عن جسده؛ رسمت التجاعيد على وجهه آخر حكم تلقّاه. لبس روب التمريض الأبيض القذر، محاولاً أن يجد في قاع روحه.. في آخر الخلايا التي لم تمت بعد في جسمه الهزيل قوة ما جسديه أو روحية ليعيش بها حتى الغد... لبس الروب القذر، وكنس مهاجع المرضى، ورتّب أسرتهم، وقاس حراراتهم، وغسل..

صار كريست إلهاً، وصار الجوعى الجدد، والمرضى الجدد ينظرون إليه نظرتهم إلى قدرهم، إلى إله يمكن أن يعينهم في شيء، يمكن أن يعفيهم من شيء هم أنفسهم لا يعرفونه. ما يعرفه المريض أن أمامه ممرض من المعتقلين المرضى يمكنه بكلمة يقولها للطبيب إطالة إقامة المريض هنا يوماً إضافياً. والأكثر من ذلك يمكنه عند إخراجه من المشفى أن يُسلّم منصبه، قصعة حسائه، روبه.. لمريض آخر ما. وإذا لم يتحقق ذلك، فلن تكون مصيبة، فما أكثر خيبات الأمل في الحياة.

لبس كريست الروب وصار إلهاً.

ـ دعني أغسل لك قميصك، أغسله ليلاً في الحمّام، وأجففه على المدفأة.

ـ لايوجد ماء، إنهم ينقلونه إلى هنا نقلاً.

ـ ولكن يمكنك توفير دلو منه.

منذ وقت طويل يتمنى كريست لو يغسل قميصه، وهو مستعد ليقوم بذلك بنفسه، ولكنه ينهد في نهاية اليوم فيسقطه الإرهاق بلا حراك. كان قميصه منجمياً مغطى بملح عرقه.. كان أشلاءَ قميص لا قميصاً، ولا عجب أن يستحيل هذا القميص من الغسلة الأولى إلى رماد، إلى عفار، إلى زوال...

كان أحد جيبي القميص مشلوعاً، بينما كان الثاني سليماً وقد رقد فيه كل ما كان مهماً وضرورياً لسبب ما لكريست.

على أية حال كان يجب غسل القميص، فقميص كريست جد متسخ.

تذكر كريست كيف أخذوه منذ عدة سنين لنسخ بطاقات مخصصات التموين وفق نسب الإنتاج في مبنى الإدارة، وكيف أن جميع من عاشوا في براكته آنذاك حقدوا عليه، وحسدوه على سهر تلك الليالي في الكتابة، التي لم تكافأ بأكثر من قسيمة طعام إضافية واحدة. ومنذ ذلك الحين باعوا كريست، تخلصوا منه متوجهين إلى واحد ما من المحاسبين الأصلاء، مشيرين بوشاية إلى ياقة كريست حيث دبت قملة جائعة كصاحبها، شاحبة كصاحبها...وهكذا لفظت يد حديدية من أيدي الإدارة كريست إلى الشارع.

بلى، إنه من الأفضل لو يغسل قميصه.

ـ نم أنت، وسأقوم أنا بغسل القميص... قطعة خبز، وإن لم يكن لديك خبز، فلا بأس، مقابل لاشيء.

لم يكن لدى كريست أي خبز، ولكن أحداً ما صاح في قاع روحه بأنه يجب البقاء دون طعام وغسل القميص المتسخ. توقف كريست عن مقاومة رغبة الرجل الجائع الغريبة.

منذ شهر حين لم يكن كريست قد رقد في المشفى بعد، بل كان لايزال

ينوس وسط قطيع الناحلين المحتضرين الكبير من المطعم إلى المستوصف، ومن المستوصف إلى البراكة في عتمة معسكر الاعتقال الرمادية، نزلت به مصيبة.. فقد سرقوا كيس التبغ من جيبه. كان الكيس فارغاً طبعاً، ولم يكن فيه أي تبغ منذ السنة الأولى هنا، لكن كريست حفظ في الكيس، الله أعلم لماذا!؟ صور زوجته ورسائلها. كان هناك الكثير من الرسائل، والكثير من الصور. ومع أن كريست لم يُعد قراءة تلك الرسائل في يوم من الأيام، ولم يتملّ الصور.. فذلك أصعب من أن يتحملّه أيٍّ كان، إلا أنه حفظ تلك الرزمة للمستقبل الأفضل.

كان من الصعب فهم السبب الذي جعل كريست يحمل معه تلك الرسائل المكتوبة بخط ولاّدي غليظ حيثما رحّلوه من معتقل إلى آخر. لم يكونوا آنذاك يصادرون الرسائل عند التفتيش. تجمّعت كدسة من الرسائل في كيس التبغ، وها هم يسرقون الكيس. ربما ظنوا وجود بعض المال فيه، فلا بد من وجود روبل رقيق بين هذه الصور، بيد أنه لم تكن هناك أية روبلات... ولم يعثر كريست على الرسائل المسروقة بعد ذلك على الإطلاق.

حسب قواعد السلب المعروفة، السائدة خارج المعتقل، والمتبعة من قبل اللصوص، ومن في صفهم يجب رمي الوثائق في حاوية القمامة، وإرسال الصور بالبريد، أو إلقاؤها في الزبالة. لكن كريست كان يعرف حق المعرفة أن تلك البقايا الإنسانية هناك مسحت عن وجه الأرض هنا في عالم الكاليما. هنا يحرقون الرسائل في لظى كومة حطب ما، أو في موقد كي تتوهج النار نائرة الضوء حولها على غير انتظار... ولا يعيدون الرسائل هنا طبعاً.

ـ ولكن الصور، لماذا يحتفظون بهذه الصور الغريبة؟

ـ لن تعثر عليها ـ قال جار كريست ـ أخذها الجناة.

ـ ولكن لماذا؟

ـ يا لك من ساذج! صورة امرأة؟

ـ وماذا في ذلك.

ـ للعادة...

توقف كريست منذ تلك اللحظة عن طرح الأسئلة.

احتفظ كريست في كيس التبغ المسروق بالرسائل القديمة، أما الرسالة والصورة الجديدتين فقد احتفظ كريست بهما في جيب قميصه الأيسر الوحيد.

نام كريست ساهياً كالعادة ولم يغف بعمق. استيقظ ولديه إحساس بأن شيئاً ما حسناً سيحدث اليوم. تذكر كريست، برهة، قميصه النظيف... ألقى بقدميه الثقيلتين عن السرير، وخرج مسرعاً إلى المطبخ. هناك استقبله مريض الأمس.

ـ أُنشّفه، أنشفه على المدفأة.

أحس كريست فجأة بالعرق البارد يتصبب منه

ـ والرسالة؟

ـ أية رسالة؟

ـ في جيب القميص.

ـ أنا لم أقلب جيب القميص.. وهل أملك أنا الحق بالنظر في جيوبكم!؟

مد كريست يده إلى القميص. كانت الرسالة في مكانها مبللة بالماء. كان القميص قد جفّ تقريباً، أما الرسالة فكانت لا تزال مبللة بقطرات ماء أو دموع.

كانت الصورة المغسولة مَطموسة المعالم، ممحية، وكانت تُذكِّر لا أكثر بملامح الوجه المعروفة من قِبَل كريست. كانت أحرف الرسالة ممحية، ضائعة، مغسولة.. إنما كريست يحفظ هذه الرسالة عن ظهر قلب، وها هو يستطيع قراءة كل جملة فيها.

كانت تلك آخر رسالة حصل عليها كريست من زوجته. لم يكن عليه حمل هذه الرسالة طويلاً، فلم يمض وقت طويل حتى بهتت كلماتها واختفت نهائياً. وما عاد يتذكر نص الرسالة كما كان قبلاً. أمحّت الرسالة والصورة تماماً، فنيت وتلاشت بعد ذلك التعقيم الخاص في ماغادان، في دورة التمريض، التي أعادت كريست إلى حقيقته، وليس إلى إله كاليمي.

كل خسارة، مهما كبرت، تهون أمام دورة التمريض تلك. إنه القدر ينتقم من كريست. وقد اعترف كريست بعد تأملات ناضجة، بمرور عدة أعوام على الحادثة أن القدر كان محقاً، فكريست لم يكن يملك الحق بتسخير الآخرين لغسل قميصه.

«النجارون»

طوال أيام بلياليها حل ضباب أبيض كثيف، حتى ما كان يمكن أن ترى الشخص الواقف على بعد خطوتين منك. لا همّ، فليس لأحد أن يسير بمفرده بعيداً في أي اتجاه. الأماكن المحددة: المطعم، المشفى، الوردية كان يمكن الذهاب إليها بعينين مغمضتين بالغريزة المكتسبة القريبة من إحساس الحيوانات بالاتجاهات، تلك الغريزة التي تستيقظ عند الضرورة في الإنسان أيضاً. لم يكن وارداً أن يرى العامل ميزان الحرارة، ولم يكن ذلك ضرورياً أصلاً فالخروج إلى العمل يتم تحت كل الدرجات كائنة ما تكون. إضافة إلى ذلك فإن قدماء المعتقلين يستطيعون تقدير درجة الحرارة بدقة بلا أي ميزان: إذا كان ثمة ضباب حقيقي فذلك يعني أن درجة الحرارة أربعون تحت الصفر؛ إذا أحدث الهواء المزفور ضجيجاً عند التنفس، ولم يكن التنفس صعباً بعد فذلك يعني خمس وأربعون تحت الصفر، أما إذا خرج الهواء بصخب مع ضيق واضح في التنفس فالحرارة خمسون تحت الصفر. عند أكثر من خمس وخمسين درجة تحت الصفر تتجمد البصقة (على الطاير) قبل أن تصل إلى الأرض.

منذ أسبوعين والبصقة تتجمد (على الطاير).

يستيقظ بوتاشنيكوف كل صباح آملاً ارتفاع درجة الحرارة، فلقد عرف من تجربة الشتاء الماضي أن درجة الحرارة مهما تكن منخفضة يكفي لكي تشعر بالدفء حدوث تغير مفاجيء حاد فيها. إذا ارتفعت الحرارة إلى أربعين ـ خمس وأربعين تحت الصفر فستشعر بالدفء مدة يومين كاملين، أما ما بعد هذين اليومين، فليس من الحكمة أن تخطط لأكثر من ذلك.

لكن الزمهرير لم يتراجع، ولقد فهم بوتاشنيكوف أنه لم يعد يستطيع التحمل. كان الفطور يكفي في أحسن الحالات لساعة عمل واحدة. بعد ذلك يحل التعب وينخر الزمهرير الجسد كله «حتى العظم». هذا التعبير الشعبي ليس مجازيا هنا على الإطلاق.

كان يمكن التلويح بأداة العمل لا أكثر، والقفز من قدم إلى أخرى هرباً من التجمد ريثما يحين موعد الغداء. الغداء الساخن «الغالوشكي» اللعينة وملعقتا العصيده ما أهزل القوة التي يمدان الجسد بها، لكنها تدفيء على أية حال. ها نحن نملك من القوة مايكفينا ساعة أخرى لا أكثر. بعد ذلك تملّكت بوتاشنيكوف رغبة لا هي بالتدفؤ، ولا هي بالاستلقاء على الحجارة المتجلدة الوخّازة والإستسلام للموت. ومع ذلك فقد انقضى اليوم، وبعد العشاء شرب بوتاشنيكوف الماء مع الخبز، الذي لم يأكله أي من المعتقلين مع الحساء في المطعم بل كان الجميع يحملونه إلى البراكات، شرب واستسلم حالاً للنوم.

نام بوتاشنيكوف على سرير في الأعلى طبعاً. فقد تراكمت هناك في الأسفل طبقة من الجليد، وكان علي أصحاب «التخوت» السفلى أن يمضوا أنصاف الليالي عند المدفأة يعانقونها بالدور، فالمدفأة كانت فاترة لا أكثر.هناك نقص أزلي في الحطب. كان يجب المشي لأربعة كيلومترات بعد يوم العمل الطويل لتقطيع القرم، وكان الجميع يتهرّبون بشتى الوسائل من هذه اللعنة. في الأعلى أكثر دفئاً، رغم أن الجميع كانوا ينامون، طبعاً، في ملابس الشغل ذاتها، في قبعاتهم، وستراتهم وجزماتهم. في الأعلى أدفأ، ولكن حتى هناك يتجلد شعر المعتقل على مخدته أثناء الليل.

أحس بوتاشنيكوف بقواه تخور يوماً بعد يوم. بات من الصعب عليه وهو شاب في الثلاثين من عمره، الصعود إلى السرير العلوي، والنزول عنه صار صعباً أيضاً.

جاره مات البارحة، أجل مات، إنه ببساطة لم يستيقظ، ولم يهتم أحد بأمر موته، بسبب موته، لكأن سبب الموت كان هنا واحداً وكان هذا السبب معروفاً جيداً من قبل الجميع. فرح عريف البراكة لأن الموت حصل مساءً، فغداً في الصباح ستكون حصة طعام الميت من نصيبه. الجميع أدركوا طبعاً هذا الأمر، أما

بوتاشنيكوف فقد تشجع ودنا من العريف: «إكسر لي قرطة خبز»، لكن العريف جابهه بشتائم من العيار الثقيل، لا يجروء عليها إلا من صار من ضعيف إلى قوي، ويعرف جيداً أن شتائمه ستمر دون عقاب. في حالات استثنائية فقط يمكن للضعيف أن يشتم القوي وهذه الجرأة جرأة يائسة. أما بوتاشنيكوف فقد صمت مبتعداً عن العريف.

كان يجب أن يفعل شيئاً ما، أن يبتدع ذهنه الواهن حلاً ما وإلا فإنه سيموت.

لم يكن بوتاشنيكوف يخاف الموت. إنما كانت لديه رغبة سريّة قوية، عناد يائس بالموت في مكان ما في المشفى، على السرير، في فراش وسط اهتمام الآخرين، وليكن هذا الإهتمام حكومياً، فهو على الأقل أفضل من الموت في العراء، في الزمهرير، في البراكة تحت الأقدام بين الشتائم والقذارات، وسط لامبالاة الجميع. هو لم يعتب على الناس على لامبالاتهم. لقد فهم منذ زمن طويل من أين تأتي هذه البلادة الروحية، هذا البرود الروحي. ذلك الزمهرير بعينه، الذي يحوّل ريق الإنسان إلى جليد (على الطاير)، ينفذ إلى روح الناس. إذا كانت العظام تتجمد، والدماغ يتجمد ويتبلد، فالروح أيضاً يمكن أن تزمهر. في الزمهرير لايمكن التفكير بأي شيء. بكل بساطة، في البرد والجوع يتغذى الدماغ تغذية رديئة، وتجف خلاياه. هذه عملية مادية واضحة، والله وحده يعلم، إن كانت هذه العملية عكوسة، كما يقولون في الطب. كان ذلك التجمد والخراب أبدياً، وهكذا هي الروح أيضاً تجمدّت، تقلصت، وربما ستظل باردة إلى الأبد أيضاً. هذه الأفكار كلها راودت بوتاشنيكوف قبلاً، أما الآن فلم يبق لديه ما يشغله سوى الرغبة بالتحمل، بالبقاء على قيد الحياة إلى حين حلول الدفء.

كان يجب، قبل الآن طبعاً، البحث عن طريقة ما للخلاص. بيد أن مثل هذه الطرق لم تكن كثيرة.

كان يمكن أن يصبح عريفاً لمجموعة عمل، مراقب عمل، البقاء بطريقة ما قرب الإدارة، أو قرب المطبخ. لكن هناك مئات المنافسين على المطبخ. أما مهمة عريف مجموعة، فقد اعتذر بوتاشنيكوف عن قبولها منذ عام، قاطعاً على نفسه عهداً بألا يقهر إرادة إنسان هنا على الإطلاق، حتى ولو كان ذلك في سبيل حياته

بالذات، فهو لايريد أن يقذفه رفاقه المحتضرون بلعنة ما قبل الموت، وهم يفارقون الحياة.

انتظر بوتاشنيكوف الموت مع مجيء كل يوم جديد، وهاهو يشعر أن ساعته قد أزفت الآن.

وصل بوتاشنيكوف شارب قصعة الماء الدافيء، ماضغ كسرات الخبز، إلى موقع العمل، بالكاد يكفيه ما لديه من عزم لجرجرة قدميه. صُفت المجموعة قبل بدء العمل، بينما تمشى رجل سمين أحمر الوجه في قبعةٍ من فراء الغزلان أمام الصفوف، ناظراً إلى وجوه المعتقلين الضامرة المتسخة اللامبالية. خبط المصفوفون أقدامهم بالأرض صامتين، بانتظار انتهاء هذه الوقفة المفاجئة. هنا أيضاً كان يقف عريف المجموعة، وكان يقول شيئاً ما للشخص في قبعة الغزلان.

ـ وأنا أؤكد لكم يا الكسندر يفغينيفيتش، أن لاأحد لدي ممن تريدون. اذهبوا إلى سوبليوف، إلى مجموعات الجناة. أما هؤلاء المثقفون، فعذاب فارغ.

كفَّ الشخص ذو قبعة الغزلان عن النظر إلى المعتقلين والتفت إلى العريف.

ـ عرفاء مجموعات ولايعرفون عناصرهم، لايريدون المعرفة، لايريدون مساعدتنا. قال الرجل بصوت أجش.

ـ لكم الأمر، ياالكسندر يفغينيفيتش،

ـ سترى الآن بأم عينك، ماهي كنيتك؟

ـ إيفانوف، هي كنيتي، يا الكسندر يفغينيفيتش.

ـ أنظر، لنرى.

ـ إنتباه ياشباب. وقف الشخص ذو قبعة الغزلان أمام المجموعة

ـ الإدارة بحاجة إلى نجارين لصنع صناديق لنقل التربة

صمت الجميع

ـ ألم أقل لكم يا الكسندر يفغينيفتش. همس عريف المجموعة.

وفجأة سمع بوتاشنيكوف صوته الداخلي يقول.

ـ بلى يوجد، أنا نجار. وخطا خطوة إلى الأمام.

ومن الصف اليميني خطا معتقل آخر خطوات عدة صامتاً. لقد عرف بوتاشنيكوف ذلك الشخص إنه غريغورييف

ـ أترى ـ التفت الرجل ذو قبعة الغزلان إلى عريف المجموعة ـ أنت خرقة، أنت خرا. امشوا معي ياشباب.

جرجر بوتاشنيكوف وغريغورييف أقدامهما وراء قبعة الغزلان. توقف الرجل فجأة.

ـ إذا كنا سنسير على هذه الحال، فلن نصل إلى هناك قبل الظهر.

سأسبقكما على أية حال، عليكما أن تأتيا إلى ورشة النجارة، إلى عند المعلم سيرغييف، أتعرفان أين هي الورشة؟

ـ نعرف، نعرف ـ صاح غريغورييف ـ ضيّفنا سيجارة من فضلك.

ـ طلب معروف. قال قبعة الغزلان من بين أسنانه، وهو يخرج من جيبه سيجارتين دون أن يخرج العلبة.

سار بوتاشنيكوف في المقدمة مشغول الذهن، فهو سيمضي اليوم في دفء ورشة النجارة يسن البلطة وينجر لها مقبضاً، ويسن المنشار، لا داعي للاستعجال.

قبل الغداء «سيستلمان» الأدوات، سيخرجونهما من السجلات، وسيبحثان عن أمين المستودع، وبحلول مساء اليوم عندما سيغدو واضحاً أنه لايجيد صناعة مقبض للبلطة، ولا يعرف كيف يسن المنشار سيطردونه، ويعود غداً إلى مجموعته. أما اليوم، فإنه سيبقى في الدفء، وربما يبقى غداً أيضاً. وسيصبح بعد غدٍ نجاراً. إذا كان غريغورييف نجاراً فإنه سيعمل تحت يد غريغورييف.

هاهو الشتاء يشارف على الانتهاء. الصيف قصير، وهو بطريقة ما يستطيع البقاء على قيد الحياة حتى نهاية الصيف.

توقف بوتاشنيكوف بانتظار غريغورييف، و قال غاصاً، بأمله المفاجىء:

ـ هل تجيد أنت هذه.. أعني النجارة.

ـ أنا، ماذا أقول لك ـ قال غريغورييف مرحاً ـ معيد في معهد موسكو للدراسات الأدبية. وأنا أعتقد أنّ على كل إنسان يحمل شهادة عليا، خاصة في

الأدب، أن يجيد سن البلطة، وفلج أسنان المنشار. لاسيما وأن ذلك سيكون قرب المدفأة الحامية.

ـ يعني، وأنت أيضاً...

ـ لايعني شيئاً. نستطيع خداعهم يومين، وبعد ذلك.. ماذا يهمك مما سيكون بعد ذلك...

ـ نخدعهم يوماً واحداً. غداً يعيدوننا إلى المجموعة.

ـ لا، لايمكنهم تسجيلنا في يوم واحد في سجلات ورشة النجارة. فعليهم تقديم نشرات معلومات وقوائم، وبعد ذلك عليهم تحويلنا من جديد...

بالكاد تمكنا معاً من دفع باب الورشة المتجمد. تأججت في وسط ورشة النجارة مدفأة حديد حتى الإحمرار. كان يعمل هناك خمسة نجارين على مناجرهم دون سترات أو قبعات.

ركع القادمان أمام باب المدفأة المفتوح، أمام إله النار، أقدم آلهة الإنسان. خلعا قفازيهما، ودفعا بأيديهما إلى الدفء، حشراها في قلب النار. لم تشعر الأصابع، التي تجمدت مرات عدة من قبل حتى فقدت حساسيتها، بالدفء مباشرة. بعد دقيقة من ذلك خلعا قبعتيهما، وفتحا سترتيهما دون أن ينهضا عن ركبتيهما.

ـ ما الذي تفعلانه هنا؟ سألهما أحد النجارين بفظاظة.

أجاب غريغوريف:

ـ نحن نجاران، سنشتغل هنا.

ـ من قبل الكسندر يفغينيفيتش. أضاف بوتاشنيكوف مستدركاً.

ـ هذا يعني، عنكما تحدث المعلم، سنعطي كلاً منكما بلطة.... قال أرنشتريم، الأدواتي المعمر كاشطاً الأذرع من أجل المعاول.

ـ عنا، أجل عنا...

عندئذ قال أرنشتريم ناظراً إليهما بارتياب:

ـ خذا، إليكما هاتين البلطتين ومنشاراً وفلاجة أسنان. أعيدا الفلاجة فيما بعد. ها هي بلطتي، جرِّبا أن تخرجا ذراعها من مكانه.

ابتسم أرنشتريم ثم أردف:

ـ المعدل اليومي من المقابض ثلاثون قطعة

ـ أخذ غريغورييف الزند من يد أرنشتريم وبدأ ينجر. ضرب بوق الغداء.

نظر أرنشتريم، دون أن يرتدي سترته، صامتاً، إلى غريغورييف ثم قال لبوتاشنيكوف:

ـ إبدأ أنت الآن.

وضع بوتا شنيكوف الزند على القرمة، أخذ البلطة من يد غريغورييف وبدأ يُنجّر

ـ يكفي. قال أرنشتريم

كان النجارون قد ذهبوا لتناول الغداء، ولم يبق في الورشة سوى الرجال الثلاثة.

ـ خذا هذين الذراعين من عندي.

أعطى أرنشتريم الذراعين الجاهزين لغريغورييف.

ـ ركبا النصل عليهما. سنا المنشار، تدفآا اليوم وغداً قرب الموقد. وبعد غد عودا من حيث أتيتما. إليكما قطعة الخبز هذه للغداء.

تدفأ بوتا شنيكوف وغريغورييف يومهما وماتلاه قرب المدفأة، وبعده ارتفعت درجة الحرارة إلى ثلاثين تحت الصفر. لقد انتهى الشتاء.

«معركة الرائد بوغاتشوف الأخيرة»

لابد وأن يكون قد مضى على بداية تلك الأحداث وعلى نهايتها وقت طويل، أوَليست الشهور في الشمال النائي تعادل سنين! بلى، إنها لعظيمة إلى هذه الدرجة تلك التجربة الإنسانية المكتسبة هناك. حتى الدولة تعترف بذلك مزيدة من رواتب العاملين في الشمال، موسعة من امتيازاتهم.

أي حدث في بلد الآمال هذا، بلد الأقاويل والحزازير والفرضيات والظنون.. يحاط، بلمح البصر، بأسطورة قبل أن يدرك تقرير الزعيم المحلي عنه واحدة من «السلطات الأعلى». تناقلت الألسنة أنه عندما امتعض الضيف الكبير من كون الأنشطة الثقافية الاجتماعية في المعتقل تعرج على ساقيها معاً، بادر الرائد بوغاتشوف الزائر قائلاً:

ـ لاتقلقوا أيها المواطن القائد، إننا نُعِدُّ لكم حفلةً ولا أحلى، ستحكي عنها كل الكاليما.

يمكن أن نبدأ القصة من بلاغ الدكتور الجرّاح براوديه الذي أرسل بمهمة من المشفى المركزي إلى مركز العمليات الحربية، كما يمكن أن نبدأها من رسالة ياشكا كوتشين، الممرض المعتقل، الراقد في المشفى. رسالة ياشكا كتبت باليد اليسرى، فكتفه الأيمن كان ممزقاً برصاصة بندقية خرجت من الطرف الآخر، كذلك يمكن أن نبدأ من حديث الدكتورة بوتانينا التي لم تر شيئاً ولم تسمع شيئاً، بل كانت مسافرة عند وقوع تلك الأحداث غير المنتظرة. تلك السفرة بالذات رأى فيها المحقق غياباً مصطنعاً مقصوداً، أو غياباً جنائياً مشبوهاً، أوما شابه من تسميات في اللغة الجنائية.. عن ساحة الفعل.

كانت اعتقالات أعوام الثلاثينيات اعتقالات عشوائية للناس. الناس الذين راحوا ضحايا النظرية الفظيعة الكاذبة، نظرية الصراع الطبقي المضطرم في خضم النضال لترسيخ الإشتراكية.

ربما لم يكن في أعماق أرواح دكاترة ومهندسي وحزبيي وعسكريي وفلاحي وعمال ذلك الزمان، الذين امتلأت بهم السجون حتى التخمة أي شيء إيجابي عدا البراءة والإخلاص، والاستقامة، قصارى الكلام تلك الصفات التي سهّلت، على الأغلب، أكثر مما صعّبت العمل التأديبي (لعدالة) ذلك الزمان.

إن غياب المثل الأعلى الموحد للناس أضعف إلى درجة بعيدة تماسك المعتقلين الأخلاقي، المعتقلين الذين لم يكونوا أعداء للسلطة ولا مجرمي دولة، الذين حتى وهم يموتون لم يفهموا لماذا يجب عليهم أن يموتوا الآن. لم يكن لديهم ما تتكىء عليه عزة أنفسهم، ما يتكىء عليه قهرهم. لقد ماتوا مشتتين في صحراء الكاليما البيضاء من البرد والجوع وساعات العمل الطويلة والمرض والضرب. لقد تعلّموا في الحال ألا يدافع أحدهم عن الآخر، ألا يساند بعضهم بعضهم الآخر. وهذا ما كانت تسعى إليه القيادة. أما أرواح الباقين في عداد الأحياء فقد خضعت لفساد كامل، ناهيك عن أجسادهم التي لم تتمتع بالصفات اللازمة للعمل (العضلي).

جاءت المراكب واحدا وراء الآخر محشوة ببدائل لهؤلاء، بأسرى، ومعتقلي الحرب السوفييت: من إيطاليا، من فرنسا، من ألمانيا.. في طريق مباشر إلى أقصى الشمال الشرقي. كان هناك الكثير من الناس من قادة، وجنود، وطياري طائرات تجسس وجواسيس عسكريين... بخبرات متنوعة، اكتسبوها زمن الحرب كالاستعداد للمغامرة بشجاعة مؤمنين بالسلاح فحسب.

لم تقلق إدارة المعتقل المتعودة على الصبر الإنكليزي، والإذعان العبودي (التروتسكي)، ولا مثقال ذرة ولم تنتظر أي جديد.

سأل المعتقلون الجدد (السكان الأصليين) الأحياء:

ـ لماذا تأكلون الحساء والعصيدة في المطعم، بينما تأخذون معكم الخبز إلى المهجع؟ لماذا لا تأكلون الخبز مع الحساء كما يفعل جميع الناس!؟.

أجاب (السكان المحليون) بابتسامة الفم المزرق، بتكشيرة الأسنان المتقرحة، المهترئة من الاسقربوط هؤلاء الجدد، السُذج:

سيفهم كل منكم ذلك بنفسه خلال أسبوعين، وسيفعل مانفعله بالضبط.

كيف يقولون لهم، إنهم لم يعرفوا في حياتهم الجوع الحقيقي أبداً، وإنه لا يمكن لأحد مقاومة الرغبة العارمة التي تتملكه لتمديد عملية الأكل ما استطاع، الأكل في المهجع مع القصعة الساخنة، الملآنة بماء الثلج (المدّفأ) عديم الطعم، ومص قطعة الخبز في نعيم عظيم.

كانوا يهزون رؤوسهم باستخفاف وينصرفون من هناك، ولكن ما كلهم كانوا يفعلون ذلك.

فهم الرائد بوغاتشوف بعض الأشياء، وشيئاً آخر إضافياً أيضاً كان واضحاً له: جاؤوا بهم إلى الموت ليستبدلوهم هم الأحياء بموتى. جاؤوا بهم في الخريف والشتاء آت ولا مفر إلى أي مكان. ومع ذلك في الصيف، إن لم تفلت تماماً، تموت على الأقل حرّاً.

طوال الشتاء نسجت شباك تلك المؤامرة الوحيدة على مدى مايقارب العشرين عاماً. لقد فهم بوغاتشوف أن عليهم أن يعيشوا الشتاء، وبعد ذلك سيستطيع الهرب فقط أولئك الذين لم يشتغلوا في أعمال عامة في المنجم. فبمرور عدة أسابيع من العمل الشاق لن يهرب أي كان إلى أي مكان.

ترقّى المتآمرون في خدمتهم واحداً تلو الآخر بالتدريج: صلداتوف صار طباخاً، بوغاتشوف ذاته صار مسؤول أنشطة، كان هناك ممرض أيضاً، ومراقب عمال، أما الميكانيكي السابق إيفاشينكو فقد اشتغل في صيانة الأسلحة في فصيلة الحراسة. بيد أن أياً منهم لم يُترك له أن يخرج إلى ماوراء الأسلاك الشائكة دون حرّاس لحظة واحدة.

بدأ الربيع الكاليمي الباهر بلا أمطار وبلا فيضانات وبلا زقزقة عصافير. تلاشى الثلج، متدفقاً بأشعة الشمس، رويداً رويداً. أما هناك حيث لاتصل أشعة الشمس فقد رقد الثلج في التجاويف والشعاب كصبات الفضة الخام بانتظار موسم الثلج القادم.

دُقَّ باب محرس بوابة المعتقل. للمحرس بابان واحد إلى داخل المعتقل وآخر إلى خارجه، هناك يتناوب حسب النظام حارسان في العادة.

تثاءب المناوب ثم نظر إلى عقارب الساعة. كانت الخامسة صباحاً.(الخامسة فقط)، فكرَّ المناوب، ثم أسقط مزلاج الباب ليدخل الطارق، كان الطارق طباخ المعتقل صلداتوف، الذي جاء في طلب مفاتيح مستودع الأغذية. كانت المفاتيح تحفظ في محرس البوابةَ، وكان على الطباخ صلداتوف أن يأتي ثلاث مرات في اليوم لأخذ المفاتيح، ومن ثم لإعادتها. وهل على المناوب فتح خزانة المستودع بنفسه؟ وهو يعرف حق المعرفة أن ضبط الطباخ عمل لا جدوى منه، ولا تفيد أية أقفال، إذا أراد الطباخ أن يسرق. وهكذا صار يعمد بالمفاتيح إلى الطباخ.

عمل هذا الحارس المناوب أكثر من عشر سنوات في الكاليما، وحصل على راتب مضاعف منذ زمن طويل، وأعطى الطباخ المفاتيح يداً بيد آلاف المرّات.

ـ خذها. ثم تناول مسطرة وانحنى يسطر التقرير الصباحي.

انحنى صلداتوف وراء ظهره، نزع المفاتيح عن المسمار، ووضعها في جيبه ثم التف على عنق الحارس من الخلف. في اللحظة ذاتها فتح الباب الثاني ودخل الميكانيكي إيفاشينكو إلى المحرس من جهة المعتقل. ساعد إيفاشينكو صلداتوف في خنق الحارس، وإلقاء جثته وراء الخزانة. أما مسدس الناغان فقد وضعه إيفاشينكو في جيبه. كانت الوردية الثانية تُرى عبر شباك المحرس وهي تتجه إلى المعتقل. لبس إيفاشينكو، مسرعاً، معطف المقتول وسدارته وشدّ نطاقه، ثم جلس وراء الطاولة كحارس نظامي. فتح المناوب الثاني الباب، وخطا في الغرفة الحقيرة المعتمة. وما أن دخل حتى قبض عليه، وخنق، ورمي وراء الخزانة. لبس صلداتوف لباس القتيل الثاني. صار عند كلا المتآمرين سلاح وزي عسكري. كل شيء يجري حسب خطة الرائد بوغاتشوف.

ولكن ها هي زوجة الحارس الثاني تظهر في المحرس بصورة مباغتة، سعياً وراء مفاتيح البيت التي نسيها زوجها في جيبه.

لن نقتل نساء. قال صلداتوف. وكان أن أوثقاها، حشرا منشفة في فمها، ووضعاها في الزاوية.

عادت إحدى المجموعات من العمل، لكن احتمالاً كهذا كان محسوباً أيضاً.

جرد الحارس الداخل من سلاحه في الحال، وربط من قبل (الحارسين). وقعت البندقية في أيدي الفارين، ومنذ هذه اللحظة تولى الرائد بوغاتشوف القيادة.

الساحة أمام بوابة المعتقل مغطاة بالنيران من برجي حراسة زاويين، يقف فيهما خفراء، لكنهم لم يلاحظو أي أمر ملفت للنظر. صحيح أن المجموعة اتجهت إلى العمل أبكر من المعتاد، ولكن من يستطيع القول هنا في الشمال أبكر أو أعوق.. يهيء إليك أبكر قليلاً ويمكن أن يكون العكس تماماً.

انطلقت مجموعة الرجال العشرة، مصفوفة في رتلين في طريقها إلى المنجم.

في الأمام، والخلف، على بعد ستة أمتار عن جماعة المعتقلين، كما هو وارد في النظام، سار حارسان باللباس الرسمي، أحدهما يحمل في يده بندقية.

رأى الخفير من برج المراقبة المجموعة تنحرف عن الطريق إلى ممر ضيق قرب ثكنة فصيلة الحراسة. هناك عاش مقاتلو فصيلة الحرس ـ الفصيلة بأفرادها الستين. أما مهجع الحراس فكان في العمق، وكانت غرفة المناوبة عند المدخل وفيها كومة الأسلحة. كبا المناوب وراء الطاولة، ورأى وهو نصف نائم أن حارساً ما يقود مجموعة معتقلين يعبر الطريق قرب شباك الفصيلة. (هذا على الأغلب تشيرنينكو. فكرّ المناوب، دون أن يتأكد من شخصية الحارس، سأبلغ عنه من كل بد). كان الحارس المناوب ماهراً بأعمال الدس، ولم يفوّت إمكانية أن يصنع لأي كان دناءة على أساس قانوني. لكن تلك كانت آخر فكرة تزور رأسه. انشرع الباب، اقتحم ثلاثة جنود ثكنة الحراسة. انطلق اثنان منهم إلى بابي المهجع، أما الثالث فأطلق النار على الحارس المناوب عن قرب.

اندفع المعتقلون وراء الجنود الثلاثة، انكبوا جميعاً على هرم البنادق، صارت الرشاشات في أيديهم. خلع الرائد بوغاتشوف باب المهجع بقوة، مايزال المقاتلون هناك في لباسهم الداخلي، حفاة، ركضوا صوب الباب إلى أن أوقفتهم رشقتا رشاش باتجاه السقف.

ـ انبطحوا. أمرهم بوغاتشوف، فانحشر الجنود تحت «التخوت» وبينما كان رامي رشاش يحرسهم عند العتبة، راح الفارون يغيرون ملابسهم إلى الزي العسكري الرسمي، غير مستعجلين يوضبون المواد الغذائية، ويأخذون من الأسلحة والذخائر ما يستطيعون.

علق الممرض حقيبة الإسعافات الأولية على كتفه.

أحس المعتقلون الفارون بأنفسهم جنوداً من جديد.

كانت أمامهم غابات التايغا، ولكن أهي أفظع من مستنقعات ستوخود!

ها هم يخرجون إلى الطريق العام وهناك رفع بوغاتشوف يده وأوقف شاحنة:

ـ ترجّل! صاح بوغاتشوف فاتحاً باب الشاحنة.

ـ آ، أنا...

ـ إنزل، قلت لك.

نزل السائق، فجلس ملازم سلاح المدرعات غيورغادزي وراء المقود، وجلس بجانبه بوغاتشوف. صعد الجنود ـ الفارون، وانطلقت بهم الشاحنة.

ـ أوه، يبدو أنه منعطف...

ـ اكبس بنزين!... سب بوغاتشوف

ولجوا إلى التايغا، تلاشوا في الغابة العملاقة الصامته في الحال، وكما لو أنهم غاصوا في الماء. لم يضلوا طريقهم المنشود إلى الحرية، مسترشدين بخارطة وهم يسيرون بين جذوع الأشجار التي خلفتها العاصفة. ماتت الأشجار في الشمال مستلقية كما يموت البشر، خرجت من جذورها العظيمة الشبيهة بمخالب طائر مفترس آلاف النموات إلى الأسفل، إلى الأرض المتجمدة أبد الدهر. يتراجع الجليد هنا في الصيف، وكل شبر من الأرض يخليه الجليد يحتله عسلوج صغير ما.

تنمو الأشجار هنا حتى تبلغ النضج ثلاثمائة عام، رافعة جسدها الهائل الثقيل ببطء على هذه الجذور الضعيفة.

سقطت الأشجار التي اقتلعتها الزوبعة على ظهورها، رؤوسها باتجاه واحد،

وماتت مستلقية على طبقة الأشنيات السميكة، الطرية، الخضراء الزاهية الموشاة بالزهري.

صاروا يعدون العدّة لقضاء الليل بسرعة كالعادة.

فقط آشوت ومالينين لم يركنا، لم يسكنا بأي حال.

ـ سألهما بوغاتشوف:

ـ هوه، ماذا دهاكما؟

ـ هذا الآشوت مازال يبرهن لي أن آدم نفي من الجنة إلى سيلان!

ـ كيف إلى سيلان؟

ـ هكذا يقولون عند المسلمين. ردَّ أشوت.

ـ وهل أنت تتري؟

ـ لا، أنا لست تترياً، زوجتي تتريه.

قال بوغاتشوف مبتسماً:

ـ لم اسمع بمثل ذلك في حياتي!

ـ ها ـ ها، وأنا أيضاً لم اسمع بهذا أبدا. تابع مالينين.

ـ والآن، هيا إلى النوم!

كان الجو بارداً، مع هذا غفا الرائد بوغاتشوف، أما صلداتوف فقد جلس واضعاً الرشاش على ركبتيه، كله يقظة. استلقى بوغاتشوف على ظهره، باحثاً بعينيه عن نجمة القطب، نجمة الرحّالة الحبيبة. توزعت الأبراج هنا ليس كحالها في أوروبا. كانت خارطة عالم النجوم في روسيا منحرفة قليلاً، فالقطب الأكبر زحف باتجاه خط الأفق. في التايغا كان الصمت والصرامة. انتصبت أشجار العرعر الهائلة ذات العقد، بعيدة بعضها عن بعض. كانت الغابة ملآنة بذلك الهدوء المضطرب، الذي يعرفه كل صياد. هذه المرة لم يكن بوغاتشوف صياداً، بل كان الوحش المطارد، الذي يتعقبون، وكان هدوء الغابة يقلقه أكثر.

كانت هذه أول ليلة في الفلاء، أول ليلة طليقة بعد أشهر وأعوام طويلة في طريق الرائد بوغاتشوف المخيفة، الفظيعة، المعذبة.

استلقى بوغاتشوف وراح يتذكر كيف بدأ هذا الذي يكر أمام عينيه الآن كشريط فيلم مثير. لكأن بوغاتشوف يدير بيده شريط حيواته العشرين، وهكذا بدلا من الدوران اليومي البطيء، راحت الأحداث تدور أمام عينيه بسرعة عجيبة، وها هي عبارة «نهاية الفيلم» - إنهم احرار. وهاهي بداية الصراع، اللعبة، الحياة...

تذكر الرائد بوغاتشوف معسكر الاعتقال الألماني، من حيث هرب عام 1944: زحفت الجبهة باتجاه المدينة. كان يعمل سائق سيارة زبالة داخل المعتقل الألماني الضخم. تذكر كيف اندفع بالشاحنة وأسقط سياج الأسلاك الشائكة، مقتلعاً بسرعة الأعمدة المنصوبة، رشات الحراس، الصياح، السواقة الجنونية في المدينة باتجاهات مختلفة، السيارة المتروكة، الطريق ليلا باتجاه خط الجبهة، واللقاء، و التحقيق في قسم خاص، الإتهام بالعمالة، الحكم بخمسة وعشرين عاماً في السجن. تذكر بوغاتشوف مجيء مبعوثي فلاسوف مع «منشوره»، مجيئهم إلى العساكر الروس الجياع، المنهكين، الممزقين.

ـ تخلت قيادتكم عنكم منذ زمن طويل. كل أسير خائن في نظر قيادتكم. أعلن جماعة فلاسوف ذلك وعرضوا الجرائد الموسكوفية مع الأوامر والخطابات.

الأسرى يعرفون ذلك. ليس هباء أن الإرساليات لم تصل، فقط، للأسرى الروس. الفرنسيون، والإنكليز، والأمريكان... أسرى جميع القوميات تلقوا طروداً ورسائل وكانت عندهم رابطة «أبناء الوطن»، أما الروس فلم يكن لديهم سوى الجوع والحقد على كل ما في الكون. ليس غريباً أن كثيراً من المحكومين من أسرى الحرب في المعتقلات الألمانية انتسبوا إلى جيش فلاسوف «جيش التحرير الروسي».

لم يثق الرائد بوغاتشوف بكلام ضباط فلاسوف حتى ذلك الوقت، حين وصل بنفسه إلى قطاعات الجيش الأحمر. كل ماقاله الفلاسفيون كان حقيقياً. لم تكن السلطة بحاجة إليه. صارت السلطة تخافه.

بعدها كانت عربات الشحن مع الحراس والقضبان، الطريق الطويل إلى الشرق الاقصى، البحر، سجون الباخرة ومنجم الذهب في القطب الشمالي، وشتاء الجوع.

نهض بوغاتشوف قليلاً ثم جلس. ألاح له صلداتوف بيده. كان لصلداتوف

شرف بداية هذا المشوار، مع أنه كان واحداً من أواخر المنجرين إلى المؤامرة. لم يجبُن صلداتوف، لم يرتبك، لم يخن. قبضاي، صلداتوف رجل ممتاز!

استلقى الكابتن الطيار خروستاليوف، ذو القدر المشابه لقدر بوغاتشوف عند قدميه: الطائرة المسقطة من قبل الألمان، الأسر، الجوع، الهرب، و المحكمة، والمعتقل.

هاهو خروستاليوف يتقلب، أحد خديه أكثر حمرة من الآخر، لقد احمر خده. أول ما تحدث الرائد بوغاتشوف عن الفرار مع خروستاليوف وكان ذلك قبل عدة أشهر، تحدّث عن أن الموت أفضل من حياة معسكرات الأشغال الشاقة، وأن الموت والسلاح في اليد أفضل من الموت جوعاً تحت العمل، تحت أعقاب البنادق، تحت أحذية الحراس. لقد كان خروستاليوف، والرائد رجلين عمليين، وهنا تكمن فرصة نادرة، مدروسة بأدق التفاصيل، وضعت من أجلها حيوات تسعة عشر من المعتقلين على الخارطة. تتلخص الخطة باحتلال مطار، والاستيلاء على طائرة. في هذه المنطقة توجد عدة مطارات وها هم يتجهون إلى أقرب مطار في التايغا.

قائد هذه العملية كان خروستاليوف، الذي أرسل في طلبه الفارون بعد الهجوم على ثكنة الحراس. لَمْ يرد بوغاتشوف أن يمضيَ من دون صديقه المُقرّب. وهاهو خروستاليوف ينام بعمق وهدوء، ويرقد إلى جانبه إيفاشينكو، فنيّ الأسلحة، مصلح بنادق ومسدسات الحراس. عرف إيفاشينكو كل الأشياء اللازمة للنجاح: أين تقع الأسلحة، من ومتى يناوب في المفرزة، أين تقع مخازن المخصصات الغذائية. إيفاشينكو مخبر سابق.

ينام الآن الطياران ليفيتسكي وايغناتوفيتش، رفيقا الكابتن خروستاليوف، ينامان بعمق ملتحمين الواحد بالآخر.

فرد رجل المدرعات بولياكوف يديه على ظهري جاريه: العملاق غيورغادزيه والأصلع المرح آشوت، الذي لا يستطيع الرائد بوغاتشوف تذكر كنيته الآن. واضعاً الحقيبة الطبية تحت رأسه، يغفو هنا أيضاً ممرض المعتقل ساشا مالينين، الممرض العسكري سابقاً، الممرض الخاص بمجموعة بوغاتشوف الفريدة حالياً.

ابتسم بوغاتشوف: كل واحد على الأرجح، استعرض هذا الفرار وفق تصوراته الخاصة، ولكن على أن يسير كل شيء يسر، على أن يفهم كل منهم الآخر من نصف كلمة، رأى بوغاتشوف في ذلك ليس فقط حنكته هو، بل وحنكتهم أيضاً.

عرف كل منهم أنَّ تطوّر الأحداث يتمّ، كما يجب. هناك قائد وهناك هدف. قائد واثق ومهمة صعبة. هناك أسلحة وهناك حرية.

يمكن الاستسلام لغفوة عسكرية هادئة، حتى في هذه الليلة القطبية الرمادية الشاحبة، الفارغة بضوئها اللاشمسي الغريب، حيث لا ظل للأشجار.

لقد وعدهم بالحرية، وها هي في أيديهم. هو قادهم إلى الموت، وهم لا يخافون الموت.

لم يفش أحد بكلمة عن الهرب المزمع، حتى آخر يوم ـ فكر بوغاتشوف ـ مع أن الكثيرين عرفوا في المعتقل شيئاً عنه. تغربل هؤلاء الأشخاص أشهراً عدة. كثيرون ممن تحدث معهم بوغاتشوف، بصراحة، اعتذروا، ولكن لم يركض أي منهم إلى القيادة حاملاً إخباريته. لقد صالحت هذه الحالة الرائد بوغاتشوف مع الحياة.

ـ أووه، قبضايات، قبضايات. تمتم بوغاتشوف مبتسماً.

أكلوا البسكويت الجاف، والشوكولا، وساروا صامتين، على درب بالكاد تظهر ملامحه.

ـ إنه طريق دبيه. قال سليفانوف، الصياد السيبيري.

تسلق بوغاتشوف و خروستاليوف جرفا جبلياً وراحا يتفحصان بالمنظار، شريطين رماديين: نهر، وطريق عام. النهر كان طبيعياً كبقية الأنهار، أما الطريق، فعلى مسافة كبيرة من عدة كيلومترات كانت تعبره شاحنات مكتظة بأناس ما.

ـ إنهم معتقلون على الأغلب. خَمَّنَ خروستاليوف.

تمعن بوغاتشوف:

ـ لا، إنهم جنود، إنهم وراءنا. سيكون علينا أن نتوزع ـ قال بوغاتشوف ـ

ليقض الليل ثمانية منا في أكوام الجذوع، أما نحن أربعتنا، فنتابع خلال هذا الفج. سنعود عند الصباح، إذا سارت الأمور سيراً حسناً.

سارت المجموعة في مجرى جدول، محاذية للأجمات. دقت ساعة العودة.

ـ أنظر، ها هم، إنهم كثيرون جداً، هيا نتسلق إلى أعلى المجرى.

تسلقوا المجرى متنفسين بعناء، تطايرت الحصى تحت أقدام المهاجمين، وهوت إلى أسفل مخشخشة مقعقعة.

استدار ليفيتسكي، شتم وخر. جاءت الرصاصة في عينه مباشرة.

توقف غيورغادزيه عند صخرة كبيرة. التفت إلى الخلف وأوقف الجنود المتسلقين وراءهم برشقة من رشاشته. خرست رشاشته برهة، وحدها البندقية أطلقت.

أدرك الرائد بوغاتشوف، وخروستاليوف قمة الجرف.

ـ تقدم وحدك ـ قال الرائد بوغاتشوف لخروستاليوف ـ سأغطي تقدمك بالنار.

ضرب خروستاليوف بالنار، غير مستعجل كل واحد ظهر له. استدار خروستاليوف صائحاً ـ آتون نحونا!

ثم سقط.

اندفع بعضهم من وراء صخرة كبيرة.

انطلق بوغاتشوف، أطلق النار على المهاجمين، وهوى من على الجرف الأملس في المجرى الضيق للساقية. تمسك أثناء هبوطه بغصن صفصاف، تحكّم بحركته وزحف جانباً. قعقعت الحجارة المفروطة تحت قدميه وهي في طريقها إلى القاع.

خاض بوغاتشوف أدغال التايغا بلا طريق، حتى خارت قواه.

ارتفعت الشمس فوق المضاءات بين الأشجار، كانت هامات الجنود بلباسهم العسكري واضحة جلية من جميع الجهات، لأولئك المختبئين في مكادس الجذوع.

ـ أهي النهاية؟ قال إيفاشينكو ولكز بكوعه خاتشاتوريان.

ـ ولماذا النهاية؟ قال آشوت منيشنا. شد زناد البندقية، فخر جندي على

الطريق. ومن تلك اللحظة فتحت النار على المكادس من كل الجهات.

نزل الجنود في مجموعات إلى المستنقع باتجاه المكادس، لعلع الرصاص، دوت الأنات. صدت الهجمة.

سقط بعض الجرحى على حدبات المستنقع.

ـ هوه، أيها الممرض، إزحف! أمر بذلك آمر ما هنا.

لقد جلبوا معهم المُمرض ياشكا كوتشين، مواطن غرب بيلوروسيا، من بين المعتقلين عن قصد.

زحف المعتقل كوتشين باتجاه الجريح، ملوحا بالجعبة الطبية. اوقفت الرصاصة التي استقرت في الكتف كوتشين في منتصف الطريق. نهض، دون خوف، بوبلييف رئيس فصيلة الحراسة ـ تلك الفصيلة التي جردها الهاربون من الأسلحة ـ صارخاً:

ـ هوه، إيفاشينكو، صلداتوف، بوغاتشوف استسلموا، أنتم محاصرون! لا مفر لكم!

ـ رح واحمل سلاحاً! صرخ إيفاشينكو من المكدس.

ركض رئيس فصيلة الحراسة بوبلييف، باتجاه المكادس، مخبطا في المستنقع. وما أن قطع نصف الطريق، حتى شد ايفاشينكو على الزناد، فجاءت الرصاصة في جبهة بوبلييف مباشرة.

قبضاي ـ أثنى صلداتوف على رفيقه ـ يُظهر رئيس الفصيلة هذه الشجاعة لأن الأمر بالنسبة له سيان... سيعدم على هربنا، أو يحكم مدة طويلة. هيا، اصمد!

أطلقوا النار من كل جانب. جروا الرشاشات المحمولة.

أحس صلداتوف كيف انثنت ساقاه معا، كيف ارتطم رأس إيفاشينكو القتيل بكتفه.

اصمتت عشرات الجثث الملقية في المستنقع مكدسا آخر. أطلق صلداتوف النار حتى خبط رأسه شيء ما، وفقد وعيه.

لقد استُدعي نيقولاي إيفانوفيتش براوديه، الجراح القديم من المشفى الكبير،

على عجل «مع المساعدين، ومواد التضميد، والأدوات» كما جاء في برقية هاتفية مستعجلة، مرسلة من الجنرال أرتيموف، أحد الجنرالات الكاليميين الأربعة، قائد الحرس في كل معتقل الكاليما.

تجهز براوديه بسرعة، مدركاً أهمية الأمر. تحركت الشاحنة المتوسطة، الخاصة بالمشفى في الإتجاه المحدد. راحت تتجاوزها على الطريق العام «شاحنات عسكرية» ثقيلة، ملأى بجنود مسلحين. كان يجب قطع مسافة أربعين كيلومتراً فقط ولكن نتيجة الوقفات المتكررة، ونتيجة احتشاد السيارات في مكان ما في الأمام، ونتيجة التفتيشات المستمرة للوثائق، وصل براوديه إلى هدفه بعد ثلاث ساعات كاملة.

انتظرَ الجنرالُ أرتيموف الجرّاحَ براوديه في شقة الرئيس المحلي للمعتقل. وكان براوديه وأرتيموف كاليميين قديمين، وهذه ليست المرة الأولى التي يجمعهما فيها القدر.

ـ ما الذي يجري هنا، أهي حرب؟ سأل براوديه الجنرال، عندما تصافحا.

ـ حرب... ليست حربا، ولكن في أول معركة قتل ثمانية وعشرون. أما الجرحى فانظروا بأنفسكم.

وريثما اغتسل براوديه من المغسلة المعلقة عند الباب، حدثه الجنرال عن قصة الهرب.

ـ وأنتم ـ قال براوديه، مدخنا ـ لو استعنتم بطائرات، أليس أحسن!؟ سربين، ثلاثة، وقصفتم، قصفتم... أو الأحسن بقنبلة ذرية مباشرة.

ـ الأمر بالنسبة لكم مضحك ـ قال الجنرال ـ أما أنا، فأنتظر أمراً دون مزاح. نعم، ليت الأمر يتوقف على الطرد من الحرس فقط، ولكنكم تعرفون، ففي المحكمة كل شيء وارد.

نعم، براوديه يعرف أن كل شيء يحصل هنا، فمنذ أعوام عدة خلت كان ثلاثة آلاف إنسان قد أرسلوا شتاء مشياً على الأقدام إلى أحد المواني‌ء، حيث كانت الزوبعة قد دمرت مخازن الاحتياطات على الشاطىء، وريثما أدركوا هدفهم، بقي من الثلاثة آلاف إنسان معتقل ثلاثمائة فقط، فراح نائب رئيس

الإدارة الذي وقّع أمر خروج (المجموعة)، ضحية ذلك وقدم للمحاكمة.

اشتغل براوديه مع ممرضيه، حتى حلول المساء، بإخراج الرصاص من أجسام الجرحى وبتقطيع وبتر أعضائهم وتضميد جراحهم. كان الجرحى من جنود الحرس فقط. لم يكن هناك أي هارب بينهم.

في اليوم التالي عند المساء جاؤوا من جديد بجرحى، محاطين بضباط الحرس. حمل جنديان الحمالة التي يرقد عليها الهارب الأول والوحيد، الذي رآه براوديه. كان الهارب في البذة العسكرية، وتميز عن الجنود فقط بشعر لحيته الطويل. كانت لديه كسور ناجمة عن إصابات نارية في كلتا ساقيه و كسر في كتفه الأيمن، و جرح في الرأس مع تضرر عظم الصدغ، وكان الهارب في حالة لا وعي. قدم له براوديه الإسعافات الأولية، وبأمر أرتيموف نقل بمساعدة الحراس إلى المشفى الكبير، حيث كانت الظروف ملائمة لإجراء عملية جدية له.

لقد انتهى كل شيء. وقفت في مكان غير بعيد سيارة عسكرية شاحنة، مغطاة بشادر، ألقيت فيها جثث الهاربين. وبقربها شاحنة حملت جثث الجنود القتلى. كان يمكن ترك العساكر يغادرون إلى بيوتهم، ولكن بعد ذلك وطيلة أيام كثيرة، تحركت الشاحنات مع الجنود إلى الأمام والخلف، على طول الطريق العام الذي يصل طوله إلى ألفي كيلو متر.

الثاني عشر ـ الرائد بوغاتشوف ـ لم يكن موجودا.

عالجوا صلداتوف طويلاً، وشفوه لكي يعدموه رميا بالرصاص. مع ذلك كان حكم الإعدام الوحيد من ستين حكما مختلفا. وجد كثير من أصدقاء الهاربين ومعارفهم أنفسهم تحت المحاكمة. حكم رئيس المعتقل المحلي بعشر سنوات. برّأت المحكمة رئيسة القسم الطبي الدكتورة بوتانينا، وما كادت تنتهي العملية حتى غيرت مكان عملها. أما الجنرال أرتيموف، فكما لو أنه نظر في الماء: عزل من منصبه، وطرد من الخدمة في الحرس.

انحشر الرائد بوغاتشوف في مدخل مغارة ضيق. كانت هذه المغارة وجر دب، الشقة الشتوية للوحش الذي رحل منذ حين يتسكع في التايغا. على جدران المغارة وعلى أحجار قاعها علق شعر الدب المتساقط.

«أوه، قريبا سينتهي كل شيء - فكر بوغاتشوف - سيأتون بالكلاب ويجدونني ثم يأخذونني».

تذكر بوغاتشوف مستلقياً في المغارة حياته الرجولية القاسية، الحياة التي تختتم الآن على طريق دب تايغي.

تذكر جميع من احترم وأحب بدءاً من أمه. تذكر معلمة المدرسة مارينا إيفانوفنا، التي كانت ترتدي بلوزة قطنية، مكسوة بمخمل أسود محكوك ومُحنّى. وتذكر أيضاً كثيرين، كثيرين من الناس، الذين جمعه قدره بهم. أفضل الجميع، وأجدر الجميع كان رفاقه الأحد عشر الذين ماتوا. لم يزرع أي من الناس في حياته من خيبات الأمل والخداع والكذب مازرعه أولئك الذين في المعتقل، ومع ذلك وجدوا في أنفسهم القوة، في قلب الجحيم الشمالي، لأن يثقوا به ويمدوا أيديهم إلى الحرية، ويموتوا في المعركة. نعم هؤلاء كانوا أفضل الناس في حياته.

قطف بوغاتشوف ثمرة عنب البقر، النامي على الصخر عند باب المغارة. انفجرت ثمرة العام الماضي، المكرنشة، الرمادية المزرقة بين أصابعه، فلحسها. كانت الثمرة دون طعم مثل ماء الثلج.

التصقت قشرة الثمرة بلسانه الجاف، الدبق.

نعم، إنهم كانوا أفضل الناس. وها هو الآن يتذكر كنية آشوت: خاتشاتوريان.

تذكرهم الرائد بوغاتشوف جميعاً واحداً، واحداً، وابتسم لكل منهم، ثم وضع سبطانة المسدس في فمه وأطلق آخر مرة في حياته الرصاص.

«كلمة تأبينية»

كلهم ماتوا...

مات نيقولاى باربيه أحد منظمي الكمسمول الروسي، رفيقي الذي أعانني يوماً على إخراج حجر كبير من فج ضيّق، نيقولاي رئيس المجموعة الذي أعدموه لعجز مجموعته عن تنفيذ العمل المطلوب منها، أعدموه بناء على تقرير رئيس القطاع الشيوعي الشاب آرم، آرم الذي تلقى وساماً على أعماله عام 1938 ثم رُقّي إلى رئيس منجم ثم مدير إدارة. لقد حقق آرم نقلة وظيفية كبيرة.

كان نيقولاي باربيه يملك شالاً من وبر الإبل، أزرقَ، طويلاً، شالاً دافئاً من الصوف الحر خبأه بعناية، ولكن اللصوص سرقوه في الحمام، أخذوه ببساطة، نعم. عندما عاد باربيه في اليوم التالي تجمد خداه، تجمدا جداً، تقرحا وما كادا يتتعشان قبل وفاته...

مات إيوسكا ريوتين، إيوسكا الذي اشتغل معي في ثنائية حين تهرّب (الكدودون) من مشاركتي العمل. أمّا إيوسكا فقد اشتغل. كان أقوى مني بكثير، وكان يفهم جيداً لماذا جاؤوا بنا إلى هنا، ولم يتذمّر مني أنا الشغيل الردىء. لكنّ القومندان الأكبر (هكذا سميت مناصب عام 1937 كما في عهد القياصرة) أمر أخيراً بتكليفي (بمهمة مستقلة)، فما هذا الذي كان يتوقع مني! في تلك الأثناء عمل إيوسكا في ثنائية مع شخص آخر، لكن مكانينا في المهجع كانا متقاربين.

أيقظتني بغتة حركة خرقاء قام بها رجل فرائي تفوح منه رائحة خروف، واحد ما أدار ظهره نحوي في الممر الضيق بين رفوف الخشب التي ننام عليها وأيقظ جاري:

ـ إيوسكا! قم والبس ثيابك.

بدأ إيوسكا يلبس ثيابه مستعجلا بينما كان الشخص خروفي الرائحة يفتش أشياءه القليلة. ضمن هذه القليلة وجد شطرنجا وضعه ذو الفروه جانباً.

ـ هذا لي ـ قال إيوسكا متمسكاً ـ ملكي الخاص، دفعت ثمنه مالاً.

ـ ولو كان...؟ ـ قالت فروة الغنم.

ـ أتركه.

قهقهت فروة الغنم وعندما تعبت من الضحك مسحت وجهها بالأكمام الصوفية وقالت:

ـ لن تحتاج إليه بعد الآن...

مات ديمتري نيقولايفيتش أرلوف مقرر كيروف[52] السابق. كنا قد قطعنا الجذوع سويّة في النوبة المسائية في المنجم. أذكر جيداً بأية نظرة فاحصة حدجنا أمين المستودع، صانع العدد، معطياً إيانا منشاراً قاطعاً عادياً: هوه أنت أيها العجوز! أمسك هذا ـ صاح صانع العدد، في ذلك الزمن خاطبونا جميعاً بالعجائز، ولم يكن ذلك بعد عشرين سنة شغل! ـ أتستطيع سن المنشار بنفسك؟

طبعاً ـ قال أرلوف مسرعاً ـ وهل هناك مسن؟

ردّ امين المستودع، مدركا أنا أناس فاهمون، ليس كهؤلاء المثقفين: فلجها بالبلطة.

سار أرلوف في الدرب محني الظهر لاماً كفيه في كميه، واضعاً المنشار تحت إبطه.

ـ اسمع ديمتري نيقولايفيتش ـ ناديت أرلوف لاحقاً به بقفزة ـ لكنني لا أعرف، لم أسنّ في حياتي منشاراً!.

استدار أرلوف نحوي، ثم غرز المنشار في الثلج ولبس قفازيه:

ـ أظن ـ قال بلهجة واعظة ـ أن على من يحمل شهادة عليا أن يعرف كيف يسن ويفلج أسنان المنشار! وأنا وافقته على ما قاله.

مات شريكي الإنسان الطيّب، الاقتصادي سيمون شينين الذي مرّ وقت طويل قبل أن يفهم ما الذي يفعلونه بنا، ولكنه في نهاية المطاف فهم وصار ينتظر الموت بهدوء. كان رجلا حقاً. تلقيت ذات مرة إرسالية، كانت ندرة عظيمة أن الطرد وصلني! كان في الطرد واحد من معاطف القوى الجوية اللبادية ولا شيء غير ذلك. ما أسوأ معرفة أهلنا بالظروف التي نعيش فيها. أدركت تماماً أنهمّ سيسرقون المعطف، سيسلبونه مني في أول ليل، وهكذا بعته قبل خروجي من غرفة القومندان بمائة وعشر روبلات لأندريه بوبكا. قيمة المعطف سبعمائة، ومع ذلك كانت بيعة رابحة، تكفيني لشراء مائة كيلو غرام من الخبز، وإن لم أشتربها كلهّا خبزاً أشتري زبدة، سكّراً، فآخر مرة أكلت فيها الزبدة والسكّر كانت في السجن.

اشتريت من دكان المعسكر كيلو غراماً كاملاً من الزبدة، تذكّرت فوائدها. كان ثمن تلك الزبدة واحداً وأربعين روبلاً؛ اشتريتها نهاراً (اشتغلنا ليلاً) وركضت إلى شينين ـ عشنا في مهجعين مختلفين ـ لنحتفل معاً بالطرد. اشتريت كذلك بعض الخبز.

اضطرب شينين وفرح: . ،

ـ ولكن كيف ذلك... أنا؟ أيٌّ حق أملك أنا؟! ـ غمغم مضطرباً بِالغاية ـ لا، لا أنا لا أقدر...

لكنني ألححت عليه، أقنعته فركض فرحاً إلى الغلاّية.

في تلك اللحظة سقطت على الأرض من ضربة فظيعة على رأسي... عندما صحوت لم يكن هناك لا الكيس ولا الخبز ولا الزبدة، بينما ألقي الغصن المورق الذي ضُربت به والذي يبلغ طوله المتر قرب السرير. ضحك الجميع من حولي. ركض شينين وبيديه الغلاية.

أعوام كثيرة مضت لم أستطع تذكر تلك السرقة دون هزّة اضطراب. أمّا شينين فقد مات.

مات إيفان فيدياخين. كانوا قد سفّرونا سوّية في قطار واحد، في باخرة واحدة، واشتغلنا معاً في منجم واحد، وفي ورشة واحدة. كان فيلسوفاً، فلاحاً فولوكولامسكيا[53] كان فيدياخين مَنْ نظم أول كولخوز في روسيا. أول ما

نُظِّمت الكولخوزات، كما هو معروف، من قبل الإشتراكيين الثوريين في أعوام العشرينيات، أما مجموعة تشايانوف كوندراتييف فقد رفعت مصلحة تلك الكولخوزات إلى العلالي. كان فيدياخين إشتراكياً ثورياً ريفياً، في عداد ذلك المليون الذي صوّت لصالح الحزب عام 1917 وكوفيء على تنظيم أول كولخوز بمدة خمس سنوات من السجن.

في بداية الخريف الكاليمي خريف عام 1937 وقع أن عملنا معاً عند طنبرجي[54] على أشهر ناقل منجمي. عربات الطنبر اثنتان مفكوكتان، ريثما يأخذ الطنبرجي واحدة لتفريغها بالكاد يتمكن عاملان من ملء الأخرى. لم يتسن لهما أن يدخنا، ولم يسمح بذلك المراقبون. دخن طنبرجينا لفافة تبغ عملاقة، ملفوفة من قُرابة نصف علبة ماخوركا (الماخوركا كانت لا تزال موجودة حينئذ)، دخَّن وترك لنا على أطراف المنجم أن نشمّ رائحة دخانة.

كان الطنبرجي ميشكا فافيلوف، النائب السابق لرئيس مؤسسة (بروم إيمبورت) «مؤسسة استيراد»، وكنت أنا وفيدياخين عاملا المنجم. تحدّثنا ببطء وهدوء رافشين التراب إلى العربة. حكيت لفيدياخين عن الدرس الذي قدّمه لنا الديسمبريون[55] في نيرتشينسك فحسب مذكرات (ماريا فولكوفسكايا): ثلاث بودات فحسب المعدل اليوميّ الذي كان على المعتقل تنفيذه. سأل فيدياخين:

ـ قل لي، فاسيلي بيتروفيتش!، والمعدل المطلوب منّا ما وزنه؟.

ـ ثماني مائة بود تقريباً... أنا أحصيتها.

ـ انظر، فاسيلي بيتروفيتش!، كيف تنمو المعدلات!.

في وقت لاحق، شتاء في فترة الجوع، حصلت على تبغ، ألححت في طلبه، اشتريته وبدلته بخبز فيما بعد. لم يستحسن فيدياخين (تجارتي):

ـ هذا لا يناسبكم فاسيلي بيتروفيتش! لا داعيَ لهذا الأمر..

آخر مرّة رأيته فيها كانت شتاء عند المطعم. أعطيته ست قسائم غداء، حصلت عليها لقاء كتابة ليلية في المراجعات. خطي الجيّد كان يساعدني أحياناً. القسائم تفقد قيمتها، كانت التواريخ قد طبعت عليها. حصل فيدياخين على الغداءات، وجلس وراء الطاولة ينقل الحساء من قصعة إلى الأُخرى. كان الحساء

مائعاً للغاية، لم تعم فيه قطعة دهن واحدة... العصيدة من القسائم الست لم تملأ قصعة سعتها نصف ليتر... لم تكن هناك ملعقة عند فيدياخين، لقد لعق العصيدة بلسانه وبكى.

مات ديرفيل الشيوعي الفرنسي الذي عمل في مقالع كايينا، ديرفيل الذي إضافة إلى معاناته البرد والجوع تحرّق نفسيًا. لم يكن يريد أن يثق بما يجري أو يصدّقه؛ أيعقل أن يزج هو عضو (الكومينتيرن)[56] وقع هنا في الأشغال الشاقة السوفياتية. روعه كان يمكن أن يكون أقل لو رأى أنه الوحيد الذي هنا. مثله كان الجميع؛ من جيء به معه ومن مات معه. كان إنساناً صغيراً، ضعيفاً والضرب هنا درجت عليه العادة... في إحدى المرّات لكمه رئيس الفرقة، لكمه هكذا بقبضته، من أجل النظام كما يقال، لكن ديرفيل سقط ولم ينهض. لقد مات من بين الأوائل الأوفر حظاً. كان ديرفيل يعمل محرراً في وكالة تاس في موسكو قبل اعتقاله، وكان يعرف اللغة الروسية جيداً.

مات فريتس دافيد الشيوعي الهولندي، عضو الكومينتيرن، المعتقل بتهمة الجاسوسية. كان شعر فريتس أجعدَ رائعا، وكانت عيناه زرقاوين، وتكويرة شفتيه صبيانية. لم يكن يعرف اللغة الروسية تقريباً. التقيت به في المهجع الغاص بالمعتقلين إلى درجة الإختناق. وقفنا واحدنا قرب الآخر، ابتسم لي وأطبق جفنيه. كان الفراغ تحت الرفوف مليئاً بالناس حتى التخمة، وكان علينا انتظار فرصة الجلوس، القرفصة، الاتكاء على خشبة ما والاستسلام لغفوة.

انتظرت مغمض العينين. وإذا بشيء ما ينهار بقربي، لقد سقط جاري فريتس دافيد ثم نهض متكدراً، وقال مذعوراً:

ـ لقد كبوت.

فريتس دافيد، هذا، كان أول معتقل في دفعتنا يحصل على طرد بريدي؛ أرسلت له زوجته طرداً من موسكو. كان في الإرسالية طقم مخمل، وقميص نوم وصورة كبيرة لامرأة جميلة. في ذلك الطقم المخملي جلس القرفصاء إلى جانبي.

ـ أريد أن آكل ـ قال ذلك مبتسماً، محمراً ـ أنا جائع جداً، أريد أن آكل، اعطوني شيئاً آكله... جن فريتس دافيد، أخذوه إلى مكان ما.

سرقوا قميص النوم والصورة منه في أول ليلة. عندما صرت أروي حكايته لاحقاً، غالباً ما تكدرني الذكريات فلا أكمل. لماذا؟ لأي شيء؟ ومن يحتاج هذه الصورة الغريبة!؟ وأنتم أيضاً تجهلون الكثير ـ قال في إحدى المرات محدّثي المحتّك ـ ليس من الصعب تخمين ذلك ؛ تلك الصورة سرقها الجناة، (للعادة السرية) للاستمناء، ياصديقي الساذج!...

مات سيريوجا كليفانسكي الذي كان زميلي في أول سنة جامعية، سيريوجا الذي التقيته بعد عشر سنوات في إحدى زنزانات سجن بوتيرسكي. كان كليفانسكي قد فُصل من الكمسمول عام 1927 بسبب موضوع قدّمه عن الثورة الصينية في حلقة (سياسة اليوم). تمكن سيريوجا من إنهاء دراسته الجامعية وعمل اقتصادياً في هيئة تخطيط الدولة إلى أن توتر الوضع هناك، فكان عليه أن ينصرف.

اشترك سيريوجا في مسابقة أوركيستر مسرح ستانسلافسكي فنجح وصار عازف الكمان الثاني حتى اعتقل عام 1937. كان سيريوجا حار الطبع مزوحاً، لم تفارقه السخرية أبداً، كما الاهتمام بالحياة وأحداثها.

في الزنزانة التي حُشرنا فيها تمشينا شبه عراة، صببنا الماء على أجسادنا، نمنا على الأرض. الأبطال فقط استطاعوا النوم على خشبات الأسرّة. نكّت سيريوجا:

ـ هذا تعذيب بالبخار، سنعرّض بعده للتعذيب بالتجميد في الشمال.

كانت تلك نبوءة دقيقة، لكنها لم تكن شكوى جبان. في المنجم كان سيريوجا اجتماعياً فرحاً، اندفع بحماسة لهضم القاموس الجنائي، وابتهج كالطفل ناطقاً باللهجة المناسبة بعبارات الجناة.

ـ هاه، الآن أعتقد أنني سأتنفنف. قال سيريوجا ذلك متسلقاً الأسرّة العلوية. لقد أحب الشعر، وغالباً ما ألقاه في السجن غيباً، لكنه لم يلق الشعر في معسكر الاعتقال.

تقاسم سيريوجا آخر قطعة خبز لديه، والأصح تقاسم بعد... هذا يعني أنه لم يعش إلى ذلك الحين، عندما لم تكن عند أحد تلك القطعة الأخيرة، عندما لم يقتسم أحد مع أيّ كان أي شيء.

مات رئيس المجموعة ديوكوف، المعتقل الذي لا أعرف اسمه الأول ولم

أعرفه قط. لم تكن لديكوف أية علاقة بالثامنة والخمسين. فقد كان من جماعة الـ (الجرائم المدنية). كان ديوكوف في معسكر الاعتقال مدوزناً، إنما بصورة غير رومانسية، فقد قرر أن (يلعب دوراً) ما كما يبدو.

وصل المدعو شتاء، وانبرى يخطب خطبة مدهشة في أوّل اجتماع لدفعتهم. كانت هناك اجتماعات عند الـ (المجرمين). أوَلمْ يُعدّ المجرمون بأنواعهم المختلفة وبالتحديد اللصوص أصحاب السوابق (أصدقاء للشعب) خاضعين للإصلاح وليس للعمل التأديبي، تمييزاً لهم عن (أعداء الشعب) جماعة الثامنة والخمسين!. لاحقاً، عندما صار المجرمون العتق يخضعون للبند الرابع عشر من المادة الثامنة والخمسين التخريبية (على الامتناع عن العمل)، سحب البند الرابع عشر كلياً من الثامنة والخمسين، وخلص من كل حدوده العريقة المتعددة الجوانب.

كان المجرمون أصحاب السوابق يُعدّون (أصدقاء للشعب) حتى عفو بيريا العام الشهير لسنة 1953[57]. لقد ضحّت نظرية كريلينا (المطاطية) والسيئة الصيت (الحدوة الجديدة) بمئات، بل آلاف كثيرة من الناس الأشقياء.

في ذلك الاجتماع عرضَ ديوكوف أن يترأس بنفسه مجموعة من الثامنة والخمسين، على خلاف العادة المتبعة والتي تقول بأن يترأس مجموعة السياسيين واحد منهم. لم يكن ديوكوف شاباً رديئاً. كان يعرف أن الفلاحين يعملون في المعسكرات بصورة ممتازة، بل أفضل الجميع، وأن جماعة الثامنة والخمسين وسط الفلاحين كبيرة جداً. وهنا تكمن حكمة يجوف وبيريا[58]، الفاهمين أن قيمة المثقفين العملية منخفضه تماماً، ويمكن ألا تحقق المعتقلات مهمتها الإنتاجية، خلافاً للمهمة السياسية إذا اقتصر الأمر عليهم. لكن ديوكوف لم يتوسع في هذه المحاكمات الذهنية المعقدة، ومن المشكوك فيه أن أي شيء قد خطر بباله، سوى المواصفات العملية للناس، فلقد انتقى لنفسه جماعة من الفلاحين حصراً، وبدأ العمل. كان الوقت ربيع عام 1938. اشتغل فلاحو ديوكوف طوال شتاء الجوع بين عامي 37 - 38. ولم يحدث أن كان ديوكوف مع رؤساء المجموعات الآخرين في الحمّام، وإلا لفهم من زمان ماهية مايحصل.

بشق النفس تمكن فلاحو ديوكوف من متابعة العمل، كل ما كان يجب فعله هو إطعامهم فقط، لكن قيادة ديوكوف امتنعت عن تلبية طلبه بأقسى الصور.

حققت المجموعة الجائعة (خطة العمل) بيطولة، بالرمق الأخير. صار الكائلون والمراقبون والمشرفون والمحاسبون يجحفون بحساب ديوكوف؛ بدأ ديوكوف يتذمّر، يعترض أكثر فأكثر. انخفضت مردودية عمل المجموعة شيئاً فشيئاً، صارت التغذية أسوأ فأسوأ.

جرب ديوكوف أن يتوجّه إلى القيادة العليا، لكن هذه القيادة العليا أمرت الموظف المسؤول أن يضم مجموعة ديوكوف، إضافة إلى ديوكوف نفسه، إلى القائمة المعروفة، وكان أن تم ذلك؛ وكان أن أُعدم الجميع رمياً بالرصاص على تلّه سيربانتينا الشهيرة.

مات بافل ميخائيلوفيتش خفوستوف.

أفظع ما في الناس الجياع سلوكهم، كل شيء لديهم كما عند الأصحاء، ومع ذلك تراهم نصف مجانين. الجياع يذودون دائماً عن العدالة (إذا كانوا غير جائعين جداً وغير منهكين للغاية).

هم مجادلون أبداً، عربيدون متهورون. واحد بالألف من الناس لأكثر يتسابون (على أعلى نوته) ويوصلون الأمر إلى العراك، أما الجياع فيتعاركون باستمرار. تشتعل الخصامات لاتفه سبب، لسبب غريب، غير متوقع: «لماذا أخذتَ مطرقتي، احتللتَ مكاني»؛ من هو أقصر، أوطأ (يدعش) خصمه ويسقطه أرضا، ومن هو أطول ينقض على خصمه ويسويه بثقله، بعدها يكون الخمش والضرب والعض... وذلك كله بلا حول، غير موجع وغير مميت، وغالبا مايكون لجذب انتباه المحيطين، الذين لا يفكون العراك.

هكذا كان المعتقل بافل يتعارك كل يوم مع معتقل ما، في المهجع وفي خندق التصريف العميق، الذي كان على مجموعتنا أن تحفره. كان بافل زميلي الشتوي فلم أرَ شعر رأسه البتة. كانت قبعته من فرو أبيض ناعم مهترىء، مزودة بواقيتين للأذنين. كانت عينا بافل غامقتين لامعتين، كانتا عينين جائعتين. بين الفينة والأخرى كنت أُلقي قصائد شعر وكان ينظر إليّ نظرته إلى نصف عاقل.

ذات مرة راح بافل يضرب بمطرقة صخرة في الخندق بعنف. كانت المطرقة

ثقيلة، وكان بافل قوياً، ضرب الصخرة دون توقّف تقريبا. أدهشتني قوته. إننا معاً منذ زمن طويل، نجوع سوية منذ زمن طويل أيضاً.

سقطت المطرقة من يديه ورنّت. حملقت صوبه؛ وقف بافل منفرج الساقين، تأرجح، انطوت ركبتاه؛ تمايل وانكبّ على وجهه ميتاً. فرش يديه بعيداً إلى الأُمام في ذينك القفازين، اللذين كان يرفأهما كل ليلة بيديه.

تعرّت يداه، كان هناك وشم على ساعديه. لقد كان بافل قبل الاعتقال يعمل في أعالي البحار.

مات رومان رومانوفيتش رومانوف أمام ناظري.

في وقت ما كان رومانوف يشغل عملاً ما، ربما «قائد سرية». المختصر المفيد أنّه وزّع الإرساليات وسهر على نظافة المعسكر، كان في وضع مميز، لم يستطع أن يحلم به أحد منا نحن جماعة الثامنة والخمسين، المسقفين (كما يقول الجناة) أو المُفسقين (كما تستخدم إدارة معسكر الاعتقال) كلمة المثقفين. حدود أحلامنا العمل غسالين في الحمّام أو خياطين رفّائين ليليين. كل شيء عدا الحجارة كان ممنوعاً علينا بـ «أوامر خاصّة» موسكوفية. توصية كهذه جاءت مع كل منا، وها هو رومان رومانوفيتش رومانوف في هذه الوظيفة الصعبة المنال، التي فهم أسرارها بسرعة: كيف يفتح صندوق الإرسالية، كيف يجعل السكر ينسكب منه، كيف يكسر قطارميز المربى، كيف يدحرج الخبز والفواكه المجففة تحت السرير... كل هذا تعلمه رومان بسرعة ولم يقبل التعرّف إلينا. كان رسميّاً جداً في تعامله، وحافظ على نفسه كممثل مهذب لتلك القيادة العليا، التي لم نستطع نحن إقامة علاقة شخصية معها. لم ينصحنا أبداً بأي شيء. كان يوضح لنا فقط: يمكن إرسال رسالة واحدة في الشهر، الإرساليات توزع من الثامنة حتى العاشرة مساء في غرفة قومندان المعسكر... وهكذا دواليك. نحن لم نحسد رومان، كان يثير دهشتنا لا أكثر. يُحكى أن معرفة جانبية لعبت دوراً هنا. لم يمكث على أية حال فترة طويلة كقائد سرية، شهرين اثنين فقط. هل جاء تفتيش دوري للملاك؟ (بين الحين والآخر، وخاصة في رأس السنة تنظم كبسات من هذا القبيل)، أم أن أحداً ما نفخ عبارة معتقليّة ملوّنة ملغوزة؟. المهم أن رومان اختفى. حسب ظنّي كان

رومان ضابطاً في الجيش برتبة عقيد. وها أنا بعد أربع سنوات في مهمة «فيتامينية»، حيث جمعوا أوراق الستلانيك الإبرية، النبات الوحيد دائم الخضرة هنا. نقلوا هذه الأوراق مئات عدة من الفرستات[59] إلى مجمع الفيتامينات. هناك سلقوها فتحوّلت الأوراق إلى خليط بني لزج غير محمول الطعم ولا الرائحة، صبّوه في براميل ثم وزّعوها على المعتقلات. في ذلك الوقت اعتَبر الطب المحلي هذا الملاط الدواء الرئيس والحتمي، سهل المنال لمعالجة الاسقربوط. الاسقربوط إضافة إلى البرص الإيطالي وأمراض نقص الفيتامينات الأخرى عصف بالمعتقلين آنئذ. فمن اتفق له أن ابتلع ولو قطرة واحدة من ذلك العقار الفظيع، قرّر أنَّ الموت أسهل من تجرّع مثل هذا الشراب الشيطاني. ولكن كانت هناك أوامر، والأمر هو الأمر: لا يقدم لك الأكل في المعتقلات حتى تشرب جرعة الدواء.

كان المناوب يقف هنا مع مغرفة خاصة صغيرة. وكان يمنع الدخول إلى المطعم قبل المرور على موزع الستلانيك، والطعام بعينه هو الشيء الوحيد الذي يحرص عليه المعتقل، لكن الغذاء، الأكل، أفسد إلى غير رجعة بهذا الحشو الأولي الحتمي. وهكذا استمرت الأمور على هذه الحالة أكثر من عشر سنوات...

استغرب الأطباء العارفون كيف يمكن الحفاظ على فيتامين C الحساس للغاية لكل تغير حراري، في هذه الدهنة الغرائبية. لم تكن هناك أية نتيجة من العلاج، ولكنهم ظلّوا يوزعون ذلك المستخرج!. وهنا بالذات، بجوار جميع القرى، نما الكثير من العلّيق. ولكن أياً كان لم يفكر بجمعه، لم يَرِدْ عنه أي شيء في الأوامر. فقط بعد ذلك بزمن طويل، وربما كان ذلك بعد الحرب عام 1952 جاءت رسالة من النقطة الطبية المحلية مُنع فيها بصورة قطعية إعطاء مستخلص الستلانيك كونه يُخرّب الكليتين. وهكذا أُغلق مجمع الفيتامينات. لكن في ذلك الوقت، عندما التقيت برومان كان الستلانيك يجُمع على قدم وساق. جمعه أناس ناحلون، خبث منجمي، فضلات تعدين، أنصاف مقعدين، جائعون، ذوو أمراض مزمنة. التنقيب عن الذهب جعل الأصحاء مقعدين خلال ثلاثة أسابيع: هدهم الجوع، وانعدام النوم، وساعات العمل المرهق الطويلة، والضرب... جاؤوا بأناس جدد ليلوكهم المولوخ[60]... مع حلول نهاية الفصل لم يبق في مجموعة ايفانوف سوى ايفانوف وحده. حُيلَ الباقون إلى مشفى «تحت التل»، وإلى مهمات

«فيتامينية» حيث أطعموهم مرّة واحدة في اليوم، وكان ممنوعاً عليهم الحصول على أكثر من ستمائة غرام من الخبز طوال يوم بليله. اشتغلت ذلك الخريف مع رومانوف ليس في جمع أوراق الستلانيك، إنما كان عملنا في «البناء» فبنينا لأنفسنا بيتاً شتوياً، أما في الصيف فعشنا في مهجعين مختلفين.

كنا قد قسنا مكان البيت بالخطوات ودققنا الأوتاد وغرزنا أخشاباً لجدار مضاعف ملأناه بقطع متجلدة من الفرو والتورف.

ثم صنعنا أسرّة من أغصان الأشجار. انتصب في الداخل موقد معدني. اعطونا كل ليلة حصّة من القرم لتجريب العضلات. لم يكن عندنا لا منشار ولا بلطة، فهذه الأدوات الحادة، القاطعة كانت تحفظ عند جنود الحراسة، الذين عاشوا في مهاجع مستقلة مدفّأة ومنارة بالأضوية. كانت المناشير والبلطات تُسلّم لنا نحن المعتقلين في الصباحات فقط عند الانطلاق إلى العمل. المشكلة، أن بعض الجناة في المأمورية «الفيتامينية» المجاورة انقضّوا على رئيس مجموعتهم، فالجناة يجنحون إلى الدراما بدرجة عجيبة، ويطعّمون الحياة اليومية بها، بنجاح، إلى درجة، يمكن أن تثير غيرة يفرينوف نفسه. كان الجناة قد قرروا قتل رئيس المجموعة، واستقبل اقتراح أحد الجناة بنشر رأسه عن جسده ببهجة عظيمة. وكان أن نشر الرأس بمنشار عادي، ولهذا بالذات صدر الأمر الذي يمنع إبقاء أية بلطة أو منشار عند المحكومين ليلاً. ولكن لماذا ليلاً؟ لم يبحث أحد عن المنطق في الأوامر.

كيف سنقطع هذه القرم لتدخل الحطبات في الموقد!؟ كسرنا الأغصان الأرفع بأرجلنا، أما الأثخن فأدخلناها من الطرف الرفيع في فتحة الموقد اللاهبة لتحترق بالتدريج. كان أحدنا يتولى دفعها بقدمه أعمق فأعمق إلى داخل الموقد. كان هناك من يتعهد بهذا دائماً. كان الضوء الخارج من باب الموقد المفتوح الضوء الوحيد في بيتنا.

عبرت الريح بيتنا من طرف إلى آخر، إلى أن سقط الثلج، فقمنا بتجميعه حول الحيطان وصببنا الماء عليه لكي يتجلد فلا يطير ثم غطّينا الباب بقطعة مشمّع، وهكذا كانت تشتيتنا جاهزة.

في هذا البيت الصغير نفسه التقيت رومان رومانوفيتش. وهو لم يعرفني.

كان لابساً كالنار، كما يقول الجناة، وكما هو دائما بالضبط: تدلت شراشب قطنية صغيرة من بنطاله ومن صدّارته ومن قبعته. مرات كثيرة، على الأغلب، كان على رومان أن يركض «وراء الفحم» ليشعل لفافة تبغ واحد ما من الجناة... أصدرت عيناه بريقاً جائعاً، أما خداه فكانا مورّدين، كما كانا قبلاً، لكنهما لم يذكّرا بالأقمار، بل التصقا بشدة بعظمتي وجنتيه.

تمدد رومان رومانوفيتش في الزاوية، متنفسا بصعوبة، ساحبا الهواء نحوه بضجيج بينما أسفل ذقنه يهتز إلى فوق وتحت.

ـ إنه يحتضر، عنده لفافات قدم جيّدة ـ قال جاره دينيسوف، نازعاً الحذاء من قدمي المحتضر بحذق، ساحبا أيضاً لفافات القدمين الصوفية الخضراء المتينة... ـ حسب الأصول ـ صاح ناظراً نحوي بتهديد. ولكن بالنسبة لي كان ذلك سواء بسواء.

نقلوا جثة رومان رومانوفيتش عندما صفّونا قبل بدء العمل. قبعته أيضاً لم تكن هناك. تجرجرت اعضاؤه التناسلية، من سترته المفتوحة، على الأرض.

هل مات فالوديا دوبروفولتسيف الماسوراتي؟ ماسوراتي، هل هذه وظيفة أم قومية؟ هذه كانت وظيفة تبعث على الحسد في مهاجع الثامنة والخمسين (وهي مهاجع مستقلة للسياسيين في معتقل عام، حيث كانت هناك أيضاً مهاجع الجناة والمجرمين أصحاب السوابق وراء الأسلاك) إنها سخرية العدالة طبعاً. لم يُحْمَ أحد قطعاً من أذى اللصوص والنصابين ومن نتائج الجنايات الدموية. (بوينت) تعني ماسورة حديدية تمرر بخارا ساخنا. هذا البخار الساخن يسخّن الصخور، والحصى المتجلدة. والعامل من حين إلى آخر ينكش الأحجار المدفأة بمنكش معدني بعرض الكف ذي مقبض طوله ثلاثة أمتار.

عمل الماسوراتي يُعد فنّيا ويحتاج إلى تأهيل خاص، فعلى الماسوراتي أن يفتح ويغلق صنابير البخار الساخن الذي ينطلق عبر الأنابيب من المرجل ـ جهاز التسخين البدائي. أن تعمل مسخّنا، أحسن من أن تعمل ماسوراتيا. وليس لأي مهندس ميكانيكي من الثامنة والخمسين أن يحلم بمثل هذا العمل، ليس لأن ذلك يتطلب تأهيلاً، بل لأن عمل الماسوراتي مرتبط بالدفء. كانت صدفة محضة، أن

اختير فالوديا من بين آلاف الأشخاص لهذا العمل. لم يكن مضطرا للتفكير، كيف سيتدفأ. ذلك الشاغل الأبدي... الزمهرير المُجمّد لم يخترق كيانه كله، لم يوقف عمل دماغه. أنقذته تلك الماسورة الساخنة. وهذا ماجعل الجميع يحسدون فالوديا.

كان هناك من يثرثر بأن فالوديا لم يُنصّب ماسوراتياً بهذه البساطة، وإن ذلك لدليل على أنه مخبر، جاسوس... طبعاً. الجناة دائما يقولون: مادام يعمل ممرضا في المعتقل، فذلك يعني أنه شرب دم الآخرين، وقد أدرك الناس غالبا سبب هذه الأحكام: الغيرة تلك الدالّة السيئة.

تحرر واحد من المعتقل وصاح مغتبطاً وهو يغادر بوابة المعتقل برقمه «الخامس والعشرين». حتى ذلك لم يعد يشغلنا منذ زمن طويل.

كبر فالوديا في عيوننا للغاية، فجأة ومن حيث لاندري، كما لو أنَّ عازف كمان رائع تجلّى بيننا. ويالها من هامّة وظيفة فالوديا.

عمل فالوديا أحياناً قرب منجمنا، فركضنا بناء على معرفتنا به إلى الماسورة نتدفأ بالدور. كان قطر الماسورة بوصة ونصف البوصة، وكان يمكن قبضها باليد، الضغط عليها براحة اليد، ليدبَ الدفء المحسوس سارحاً من اليدين إلى الجسد، ولم تكن هناك عزيمة للابتعاد عنها، للمغادرة إلى المنجم، إلى الزمهرير...

لم يطردنا فالوديا كما فعل بقية الماسوراتيين. لم يقل لنا في أيّ من الأوقات أيّة كلمة، وأنا على علم يقين بأن التعليمات كانت تحظر قطعا على الماسوراتيين السماح لنا بالتدفوء قرب ماسورات أخينا فالوديا. لقد وقف فالوديا محاطاً بغيوم البخار الأبيض الكثيف. تجمدت ثيابه، والتمعت كل وبرة في سترته كإبرة من البللور. لم يتحدّث معنا أبداً، ولا شك في أن قيمة هذا العمل كانت غالية جداً عليه.

* * *

في سهرة عيد الميلاد، جلسنا حول الموقد. كانت جوانبه الحديدية أكثر احمراراً بمناسبة العيد منها في العادة. يشعر الإنسان بفرق الحرارة في اللحظة. سَحَبَنَا نحن الجلوس حول النار الحلم، والشاعرية:

ـ أوه، ما أحلى أن نعود إلى البيت، يا إخوتي. أليس في الدنيا معجزات...!
قال الطنبرجي غليبوف البروفيسور السابق في الفلسفة، المشهور في مهجعنا، بأنه منذ حوالي الشهر نسي اسم زوجته، أجل هذا جد، لا مزاح.

ـ إلى البيت؟

ـ بلى.

ـ سأقول الحقيقة ـ أجبت أنا ـ من الأفضل أن نذهب إلى الحبس. أنا لا أمزح. أنا لا أريد، لو كان ذلك ممكنا، أن أعود الآن إلى عائلتي. لن يفهموني هناك أبدا، لا يستطيعون أن يفهموا. ما هو باعتقادهم هام، أعرف أنه شيء تافه. ما هو ضروري لي، ذلك القليل المتبقي عندي، لم يُقدّر لهم فهمه أو الإحساس به. سأحمل إليهم رعبا آخر، إضافة إلى الآلاف الأخرى التي تحتل حياتهم. ما رأيته، يجب ألّا يراه، ولا حتى يعرفه الناس. السجن، هو شيء آخر. السجن، إنه الحرية، إنه المكان الوحيد، الذي أعرفه حيث الناس يتحدثون عن كل شيء، عن كل مايفكّرون به، دون خوف. حيث يرتاحون روحيا ويرتاحون جسديا، لأنهم لا يعملون. كل ساعة وجود هناك معقولة.

ـ ها هو يتفلسف ـ قال بروفيسور الفلسفة السابق ـ هذا لأنهم لم يضربوك أثناء التحقيق. أمّا من جاء عبر الطريقة الثالثة، فلديه رأي آخر...

ـ وماذا تقول أنت، يا بيوتر إيفانوفيتش؟

ابتسم بيوتر إيفانوفيتش، المدير السابق لشركة الأورال، وغمز غليبوف قائلاً:
أما أنا فلرجعت إلى البيت، إلى زوجتي، إلى آغينا ميخائيلوفنا، ولاشتريت رغيفاً من خبز الجودار، ولحضّرت من الطبيخ سطلا، ومن الشوربا سطلا أيضاً! ولأكلت ذلك كله، لأكلت أول مرة في حياتي حتى الشبع من هذه الخيرات، ولتركت الباقي لزوجتي آغينا ميخائيلُوفنا

ـ أما أنت؟ توجّه غليبوف بالسؤال إلى الفلاح الياروسلافسكي زفانْكُوف، عامل المنجم في مجموعتنا.

ـ إلى البيت ـ أجاب زفانكوف، بجدية، دون أن يبتسم ـ يُهيأ لي، أنني لتوي أتيت... ولم ابتعد خطوة واحدة عن زوجتي، أين هي تذهب أذهب أنا

أيضاً. أما هنا فقد أنسوني مهنتي.. أضعت حب الأرض، لكنني سأجد عملا في مكان ما...

ـ وأنت؟ لمست يد غليبوف ركبة رجل سخرة اليوم.

ـ أول ما كنت سأذهب إلى لجنة الحزب المنطقية. مازلت أذكر، أعقاب سكائر كثيرة كانت هناك على الأرض، كثيرة جداً...

ـ أُو، لا تمزح يا...

ـ وأنا لست أمزح.

أدركت فجأة، أنه بقي أن يجيب إنسان واحد فقط. هذا الإنسان كان فالوديا دوبروفولتسيف. أما هو فقد رفع رأسه غير منتظر السؤال. سقط في عينيه ضوء الجمر المتوهج من بوابة المدفأة المفتوحة، كانت عيناه حيتين، زرقاوين، كان صوته هادئا وبطيئا:

ـ أما أنا، فكم أتمنى لو كنت قطعةً، قطعة بشرية، أتفهمون، بلا يدين، بلا رجلين، لكنت وجدت في نفسي القوة لأن أبصق في سحناتهم، على كل الذي يفعلونه بنا...

«حَجْز صحي»

مدّ الرجل ذو الروب الأبيض يده فراحت أصابع أندرييف الزهرية المفرشحة المغسولة ذات الأظافر المقصوصة تقدّم قميصه العسكري المالح المهترىء. هزّ الشخص يده رافضاً.

ـ ولكن ليس لدي ملابس داخلية. قال أندرييف بلا مبالاة.

عندئذ أخذ الممرض قميص أندرييف بكلتا يديه، وبحركة خفيفة معتادة قلب كميه شازراً صاحبه بنظرة خاصّة:

ـ بلى يوجد ياليديا إيفانوفنا.. ثم صرخ بأندرييف: مقمّل إذاً، آ؟

ولكن الطبيبة ليديا إيفانوفنا لم تدعه يسترسل.

ـ أبربك هم المذنبون!؟ قالتها بهدوء ولوم، مركّزة على كلمة «هم» ثم رفعت السماعة عن الطاولة.

تذكّر أندرييف ليديا إيفانوفنا الشقراء ما بقي حيّا وباركها آلاف المرات، تذكرها دائماً بدفء وحنين. على أي شيء؟ على أنها ركّزت على كلمة «هم» في تلك العبارة الوحيدة التي سمعها منها أندرييف، على الكلمة الطيبة الممنوحة في وقتها المناسب. وهل ياترى وصلتها مباركات أندرييف ودعواته؟!

لم يدم الفحص طويلاً ولم تكن السماعة ضرورية لهكذا فحص.

نفثت ليديا إيفانوفنا على الخاتم البنفسجي وضغطته بيديها الإثنتين بقوة على ورقة رسمية ثم كتبت بضع كلمات لا أكثر وكان أن اقتادوا أندرييف.

لم يَقْتَد الحارس الذي يقف منتظراً في مدخل النقطة الطبية أندرييف إلى

السجن، بل إلى عمق المعسكر، إلى أحد المستودعات الكبيرة. كان الخلاء قرب المستودع محاطاً بأسلاك شائكة في عشرة صفوف نظامية تتخللها ثغرة يتمشى قربها الحارس المناوب وبيده بندقية. إنهما الآن ضمن السياج على بوابة المستودع. جمح الضوء الكهربائي المبهر خارجا من شق الباب بينما كان الحارس يدفع بصعوبة ذلك الباب العملاق المصنوع للسيارات لا للبشر ثم تلاشى هناك. نفحت على وجه أندرييف رائحة أجساد قذرة، رائحة ملابس بالية مشبعة بعرق إنساني حامض عتيق. ملأ هذه العلبة العملاقة هدير مبهم من الأصوات الإنسانية. كانت الأسرّة المتراصّة في أربعة طوابق بألواحها الكبيرة المقطوعة من جذوع شربين كاملة بناء أبديا معدّاً إلى الأبد كجسور (سيزار)[61] لقد استلقى على رفوف هذا المستودع الضخم أكثر من ألف إنسان، و كان واحدا من عشرين مستودعاً ضخماً مكبوسة حتى آخرها ببضاعة حية، فهناك في الميناء حجر صحّي تيفوسي ولم يصدر منه أي سحب، أو حسب لغة السجون أي سوق لأكثر من شهر حتى الآن. كانت دورة المعسكر الدموية حيث الخلايا الحمراء أناس أحياء معطلة، وآليات النقل توقفت أيضاً، أما في المناجم، فقد ضاعفوا ساعات عمل المعتقلين.

في المدينة حيث أُقيمَ معسكر النقل عجز مصنع الخبز عن توفير الكمية المطلوبة منه، فلقد كانت حصة كل معتقل نصف كيلوغرام من الخبز يومياً ولذلك اضطر المواطنون لتحضير الخبز في شققهم، أما الإدارة، فقد تضاعف حنقها خاصة وأن خبثا منجميا لفظته المناجم كان يحط من صوب التايغا.

في القسم (هكذا كان يسمى المستودع حسب الموضة الدارجة) إلى حيث اقتادوا أندرييف كان يعيش أكثر من ألف معتقل، ولكن أندرييف لم يدرك حجم هذا العدد الكبير في الحال، فلقد استلقى المعتقلون على الرفوف العليا والدنيا وتحتها بين عراة من شدة الحر وملتحفين بلباداتهم وستراتهم وقبعاتهم. أغلبهم استلقىَ على ظهره أو انكب على بطنه (ليس هناك من يستطيع أن يوضح لماذا لاينام المعتقلون على أجنابهم) أما أجسادهم على هذه الأسرّة الضخمة المصمته فقد بدت كنواتىء على سطوح الألواح المتآللة. أو أنهم تدافعوا في رهط كثيف حول حكواتي «راوي» أو قربه أو حول مشكلة ما، والمشاكل هنا، وسط كتلة الناس الهائلة هذه، كانت تقع كل دقيقة بالضرورة. إنهم يستلقون هنا منذ أكثر

من شهر وهم لايذهبون إلى أي عمل عدا مشوارهم إلى الحمام لتعقيم أشيائهم.

عشرون ألف يوم عمل يومياً، مائة وستون ألف ساعة عمل، بل ويمكن القول ثلاثمائة وعشرون ألف ساعة، فأيام العمل مختلفة الطول. أو هي عشرون ألف يوم آمن من الحيوات الإنسانية. عشرون ألف يوم حياة. يمكن النظر إلى الأرقام من زوايا مختلفة فعلم الإحصاء علم خبيث.

عندما كان الطعام يوزع كان الجميع يربضون في أماكنهم (قدّم الطعام لمجموعات من عشرة أشخاص) ولقد كان العدد كبيراً إلى درجة أن موزعي الطعام بالكاد ينهون تقديم الفطور ليحين موعد الغداء، وبشق الأنفس ينهون توزيع الغداء ليبدأوا بالدوران بالعشاء. فعملية توزيع الطعام مستمرة في القسم منذ الصباح وحتى المساء، أما الطعام فكان يقتصر في الصباح على الحصة اليومية من الخبز وشاي هو ماء مغلي دافىء وبين اليوم والآخر نصف سمكة مملحة يابسة، أما الغداء فيقتصر على الحساء، والعشاء عصيدة لا أكثر. ومع ذلك لم يكن الوقت يكفي لتوزيع الطعام.

قام عريف المهجع بإيصال أندرييف إلى «التخوت» وأشار إلى الطابق الثاني.

ـ هذا محلك! امتعضوا هنالك في الأعلى ولكن العريف قرعهم على ذلك بالسباب والشتائم. أما أندرييف، فقد حاول بلا فائدة قذف رجله اليمنى إلى الرف متعلقاً بحافته بكلتا يديه إلى أن دفعته يد العريف القوية إلى أعلى فهوى منخبطاً وسط الأجسام العارية على الرف. لم يلق أي منهم بالاً إليه وبذلك انتهت إجراءات الدخول و «الإقامة».

أمضى أندرييف معظم وقته نائماً فقد كان يستيقظ فقط عندما يوزعون الطعام ليلعق بعد كل وجبة أصابع يديه باعتناء وحرص ومن ثم يعود لينام من جديد، ولكن ليس بعمق لأن القمل لم يكن يعطيه فرصة إغفاءة عميقة.

لم يسأله هنا أحد عن أي شيء مع أن الآتين من التايغا في كل هذا الترانزيت كانوا قلة قليلة، أما الباقون، فعليهم أن يتجهوا إلى هناك، ولقد فهموا فظاعة ذلك ولذلك بدوا كمن لا يريد معرفة شيء عن التايغا التي لا مفر منها. وما فعلوا إلّا الصحيح كما يعتقد أندرييف فكل ما رآه يجب ألا يعرفوه. هم لن

يستطيعوا تجنب أي شيء ومن هنا لا يمكن التنبوء بأي أمر فما جدوى الرعب الإضافي إذاً؟ ما يزال يعيش هنا بشر، أما أندرييف، فقد كان ممثل الأموات، ومعرفته هي معرفة إنسان ميت لا يمكن أن تفيدهم هم الذين ما زالوا أحياء بعد.

ما أن انصرم يومان حتى جاء يوم الاستحمام وكان الجميع قد سئموا التعقيم والحمام فاجتمعوا رغماً عنهم إلا أندرييف فلشدما أراد أن يتخلص من قملاته. إن لديه الآن من الوقت ما يكفيه لذلك فلقد تحرّى مرات عدة في اليوم جميع ثنيات سترته الباهتة، ولكن الضربة القاضية كان يمكن أن تقدمها غرفة التعقيم دون غيرها ولذلك ذهب إليها راغباً رغم أنه لا يملك ملابسَ داخلية وعليه أن يلبس سترته الرطبة على جسده العاري، يُغريه في ذلك كله أنه لم يعد يشعر بتلك القرصات المألوفة.

وُزِّع الماء في الحمام بمعدل طست ساخن وآخر بارد ولكن أندرييف خدع الحمامجي وحصل على طست إضافي. أعطوهم قطع صابون صغيرة جداً، ولكن كان يمكن جمع بعض (قطع) الصابون عن الأرض، خاصة وأن أندرييف حريص على أن يستحم حسب الأصول. لقد كان هذا أفضل حمام له منذ عام مضى ولا همَّ أن الدم والقيح سالا من تقرحات الاسقربوط على ساقيه وأن الآخرين جفلوا مبتعدين عنه في الحمام، ونفروا بتقزز من ملابسه المقمّلة. في الحمام وعند توزيع الملابس الخارجة من غرفة التعقيم تسلّم أوغنيف جار أندرييف بدلاً من بنطلونه الفرو بنطلون لعبة صغيرة، هكذا كش الجلد، وصار أوغنيف يبكي فلقد كان هذا البنطلون الفرو منقذه في الشمال الزمهريري، أما أندرييف، فقد شذره بسوء نية ولكم رأى هذا الأندرييف في حياته رجالاً يبكون ولأسباب مختلفة، كانوا محتالين، متصنعين، مريضي أعصاب، فاقدي أمل، حاقدين، باكين من البرد... ومع هذا فهو لم ير من يبكي من جوعه.

رجعوا من الحمام عبر المدينة الصامتة المعتمة. كانت البرك الألومنيومية اللون قد تجمدت، ولكن الهواء كان ربيعياً منعشاً. بعد هذا الحمام خاصة نام أندرييف بعمق، «شبع نوماً»، كما قال جاره أوغنيف الذي كاد ينسى حادثة الحمام.

لم يسمح لأحد بالخروج إلى أي مكان، ومع ذلك كانت هناك مهمة وحيدة في القسم تخوّل صاحبها الخروج إلى ما وراء الأسلاك الشائكة. لا يدور

الحديث هنا طبعاً عن الخروج من المعسكر إلى ما وراء السور حيث غرزت ثلاثة أسيجة متتالية شدت إلى كل منها عشرة أسلاك شائكة تليها منطقة محرّمة مسيّجة بأسلاك شائكة ممدودة قرب وجه الأرض. ليس لأحد أن يحلم بذلك، إنما المقصود هنا الخروج من طوق المستودع ليس إلا، فهناك يوجد مطعم ومطبخ ومخازن ومشفى... قصارى الكلام حياة أخرى محظّرة على أندرييف.

واحد فقط يخرج إلى ما وراء الأسلاك هو الزبال، وعندما مات هذا الزبال فجأة ـ والحياة مليئة بالمفاجآت الطيبة ـ أظهر أوغنيف جار أندرييف تحملاً وحدساً عجيبين، فهو لم يأكل حصته من الخبز يومين متتاليين، ليقوم بعد ذلك باستبدال حقيبة فيبر بالخبز.

ـ إنظر أندرييف! من عند البارون ماندل.

ـ البارون ماندل حفيد بوشكين! ذاك الذي هناك، هناك.

البارون رجل طويل ضيق المنكبين، ذو قرعة صلعاء صغيرة، يلفت النظر من بعيد ومع ذلك لم يتسن لأندرييف التعرف عليه.

بقي عند أوغنيف جاكيت صوفي من أيام زمان، فأوغنيف هنا في معسكر الحجر منذ بضعة أشهر لا أكثر.

حمل أوغنيف إلى عريف المهجع الجاكيت والحقيبة وحصل بذلك على منصب الزبّال المتوفى. انقضى أسبوعان لا أكثر وإذا بالجناة يخنقون أوغنيف في العتمة ولكنهم لحسن الحظ لم يميتوه، بل سرقوا الثلاثة آلاف روبل التي كانت بحوزته.

لم يلتق أندرييف بأوغنيف تقريباً في فترة ازدهار أعماله التجارية، أما الآن فقد جاء أوغنيف الممزق، المجرح في حلكة الليل فاتحاً قلبه لأندرييف بما حدث له، متسللاً إلى محشره القديم.

كان بإمكان أندرييف أن يقص عليه بعضاً مما رأى بنفسه أثناء عمله في المناجم بيد أن أوغنيف لم يظهر أي ندم أو شكوى.

ـ اليوم لهم وغداً لي. غداً... سأغلبهم بـ بتريتس، ستوس، بورا وسأسترجع كل شيء.

لم يساعد أوغنيف أندريفَ بالمال ولا بالخبز ولم يكن هذا متعارفاً عليه بل كان سلوكه طبيعياً في حالات كهذه، فحسب منطق المعتقلات كل شيء تم كما يجب.

استغرب أندرييف مرة أنه لا يزال حياً إلى الآن، فكم كان الصعود إلى السرير صعباً ومع ذلك استطاعه. جوهر القضية أنه لم يعمل، بل استلقى مستريحاً فحتى الخمسمائة غرام خبز وملاعق العصيدة الثلاث وقصعة الشوربة المائعة في اليوم كانت كفيلة ببعث الإنسان حيّاً شريطة ألا يشتغل.

لقد فهم هنا في هذا المكان بالضبط أن الرعب لا يتملكه، وأنه ليس مضطراً لصون حياته، وفهم أيضاً أنه خاض تجربة فظيعة ومع ذلك بقي حيا، وأن عليه تسخير تجربة المنجم المرعبة تلك لصالحه. كما أنه أدرك أن إمكانيات الاختيار الإرادي عند المعتقل وإن كانت ضئيلة جداً إلا أنها مع ذلك موجودة. هذه الإمكانيات حقيقية ويمكن أن تنقذ الإنسان في لحظة ما، ولقد كان أندرييف متهيئاً لمثل تلك الموقعة العظيمة حين سيكون عليه أن يستخدم حيلته الوحشية ضد الوحش. لقد خدعوه وهو أيضاً سيخدعهم، إنه لن يموت، إنه لا يريد أن يموت، إنه سينصاع لرغبات جسده، لكل ما أملى عليه هذا الجسد في مناجم الذهب. صحيح أنه خسر هناك المعركة ولكنها لم تكن معركته الأخيرة. إنه خبث لفظه المنجم وليكن فهو سيصير ذلك الخبث المنجمي. لقد رأى بأم عينه أن ذلك الرسم البنفسجي الذي خطته أصابع ليديا إيفانوفنا رسماً مؤلفاً من ثلاثة أحرف فحسب (ع. ع. س) عمل عضلي سهل. ولقد علم حق العلم أن ذلك الرسم لا يعنى لهم شيئاً هناك في المناجم، ولذلك قرر أن يحلبه هنا في المعسكر إلى آخر قطرة ممكنة. بيد أن الممكن كان ضئيلاً جداً هنا، فهو يمكن أن يقول لرئيسه: (أنظر أنا أندرييف أستلقي هنا ولا أريد أن أذهب إلى أي مكان. إذا أرسلوني إلى المنجم فسأقفز من السيارة عند أول منعطف وليرمني الحارس بالرصاص وليكن ما يكون، المهم أنني لن أذهب ثانية إلى المنجم).

صحيح أن الممكن كان ضئيلاً ولكنه سيغدو هنا أذكى وسيثق بجسده أكثر. لقد خدعته عائلته، خدعه بلده ولكن جسده لن يخدعه. الحب، الطاقات، المواهب... كلها كانت مداسة ومهشمة وكل التبريرات التي بحث عنها دماغه

كانت خلّبية كاذبة، وهو يدرك هذا جيداً. وحدها الغريزة الحيوانية التي أيقظها المنجم كان يمكن أن تمده بالفطنة وها هي توحي له بالمخرج.

فقط هنا على هذه «التخوت» ـ المتاريس أدرك أندرييف أنه يساوي شيئاً ما وأن عليه أن يحترم نفسه. إنه ما يزال حيا وهو لم يخن أحداً، لم يخن لا في التحقيق ولا في المعتقل. لقد أمكنه أن يقول الكثير من الحقيقة، بل وأمكنه أن يقهر الرعب في داخله وهذا لا يعني أنه لم يخف أي شيء، إنما الحدود الأخلاقية صارت أوضح وأدق مما كانت عليه، وكل شيء غدا أبسط وأكثر جلاءً. كان من الواضح مثلاً أن أندرييف لا يمكن أن يعيش. عافية أيام زمان ضاعت إلى الأبد.. ولكن أحقاً إلى الأبد؟ عندما جاؤوا بأندرييف إلى هذا المركز ظن أن حياته ستمتد أسبوعين ـ ثلاثة لا أكثر. فلكي تعود قوته السابقة كان لابد من راحة كاملة طويلة الأمد في الهواء الطلق في حالة إستجمام مع الحليب والشوكولاته، وبما أنه من الواضح تماما أن أندرييف لن يرى في حياته منتجعاً كهذا فلينتظر إذاً حتفه، الأمر الذي لا يرعبه إلى هذا الحد فلقد مات قبله الكثير من رفاقه، لكن شيئاً ما أقوى من المنية منعه من الموت، أهو الحب؟ الحقد؟ لا. إن الإنسان يعيش بالأسباب نفسها التي تحيي الشجر والحجر والكلاب. هذا ما فهمه أندرييف، بل لم يفهمه فحسب إنما وأحس به بالذات في هذه النقلة عبر الحَجْر الصحي التيفوسي.

خدوش الجلد التأمت أبكر بكثير من بقية جراح أندرييف. اختفى شيئاً فشيئاً قشره السلحفاتي الذي صار إليه جلده الآدمي في المنجم. اسودت أطراف أصابعه الزهرية المتيبسة ثم ما لبثت أن اكتست بجلد ناعم رقيق اخشوشن قليلاً بعد أن انفجرت فقاعات التجلد السابقة، بل والأهم من كل شيء أن أصابع يده اليسرى بدأت تتحرك، فخلال عام ونصف من العمل في المنجم تقوس كفاه في دائرة قطرها قطر ساق الفأس والمعول وتحجّرا إلى الأبد كما ظن أندرييف، فهو بالكاد يمسك برؤوس أصابعه بذيل الملعقة أثناء تناول الطعام كما يفعل جميع رفاقه. لقد نسي أن الملعقة يمكن أن تمسك بطريقة أخرى. كفه الحي كان أشبه بخطاف صناعي ولقد أدى حركات خطاف آلي لا أكثر، زد على أنه كان يمكن تأدية الصلاة به لو أن أندرييف صلى لله، ولكن لم يكن يسكن روحه أي شيء عدا الحقد، ولم تكن أثلام روحه سهلة الشفاء بل لم تكن لتلتئم أبداً.

مع ذلك فقد كاد أندرييف أن يفتح أصابع تلك اليد مرة. وهو في الحمام تراجعت أصابع يده اليسرى متفتحة وهذا ما أدهش أندرييف، إذاً سيجيء يوماً دور اليد اليمني المصرة بعد على تقوسها وقد كان أندرييف يلامس يده هذه في الليالي محاولاً فتح أصابعها المعقوفة حتى تهيأ له أنها بمحاولة إثر أخرى سوف تسترخي. غالباً ما يقوم أندرييف بقرض أظافره بعناية فائقة ثم يعضعض جلدها السميك القذر والمتشتش قليلاً، فهذه العملية الصحية كانت واحدة من تسليات أندرييف القليلة عندما لم يأكل ولم ينم.

لم تعد التشققات الدامية على باطني قدميه مؤلمة كما كانت قبلاً ومع أن التقرحات الاسقربوطية على رجليه لم تشف بعد، ولا تزال تحتاج إلى تضميد، إلا أن الجراح كانت تقل يوماً بعد آخر لتحل محلها بقع زرقاء مسودة أشبه بالدمغة التي كان يوسم بها مالك العبيد عبيده. إبهاما القدمين الكبيران لم يشفيا بعد فلقد طال التجمد فيهما لب العظم ومن هناك كان يسيل القيح، ولا شك أن القيح الآن أقل بكثير مما كان عليه الأمر في المنجم حين كان الدم والقيح يسيلان في الجزمة المطاطية (حذاء المعتقلين)، حتى إن القدم كانت تبقبق مع كل خطوة كأنك تمشي في مستنقع.

ستمر أعوام طويلة قبل أن يلتئم إصبعا أندرييف هذان، وطوال أعوام أخرى سيذكّره نقزانهما عند أول نفحة برد بمناجم الشمال تلك، لكن أندرييف لم يكن يفكر بالمستقبل فلقد علمه المنجم ألا يُعدّ لحياة أطول من يوم واحد، ولذلك كان يحرص على زمنه الحاضر كأي إنسان يقع على مسافة قريبة من الموت، وكل ما يريده الآن أن يمتد هذا الحجر التيفوسي إلى الأبد ولكن هذا غير معقول طبعاً، وها هو اليوم الذي حانت فيه نهاية الحجر قد دق أجراسه.

لقد طردوا صباح هذا اليوم كل سكان المستودع إلى الحوش فراح هؤلاء يتدافعون طوال ساعات بصمت ضمن إطار الأسلاك الشائكة يرقّصهم الصقيع. صاح عريفهم الواقف على صهريج بصوته الأجش المتشفّي منادياً الأشخاص بكنياتهم ليخرج المنادون من الثغرة إلى غير رجعة، فهناك على الطريق العام هدرت الشاحنات، هدرت بضجيج صاخب في هواء الصباح الجليدي حتى إنها أعاقت العريف المحشرج.

(كل شيء إلا أن ينادوني، كل شيء إلا أن ينادوني). تضرع أندرييف متوسلاً للقدر بصوته الطفولي، وأية فائدة ترتجى من ذلك، فإن لم يطلبوه هذا اليوم فإنما سيفعلون ذلك غداً، وسيساق من جديد إلى مناجم الذهب، إلى الجوع والضرب، سيساق إلى حتفه. ها هي قد بدأت تنقز أصابع يديه وقدميه المتجمدة. راح يدوس على قدميه الخدرتين ويديه المتوجعتين، إن ذلك أصعب من أن يدرك ولا فائدة من المحاولة فهو بلا حول في صراعه مع هذه الآلة العملاقة التي هشمت جسده بأنيابها.

ـ فارونوف! فارونوف!. انفتق العريف صارخاً.. أين أنت يا ابن الكلبة... ثم قذف مغتاظاً بإضبارة (القضية) الصفراء الرقيقة على الصهريج وداس جاثماً على (القضية).

انفرجت أسارير أندرييف في الحال فلقد فهم أنها ومضة لمع أنارت الطريق أمامه إلى الخلاص، والآن فقط هذا المتدفي بنار اضطرابه تشجع متقدما إلى الأمام باتجاه العريف الذي تابع صياحه منادياً بكنية تلو الأخرى ليخرج أصحابها واحداً إثر آخر. لكن الحشد لا يزال كبيراً. الآن سينادوني، الآن...

ـ أندرييف! صاح العريف.

كتم أندرييف أنفاسه ناظراً إلى خدي العريف المحلوقين، وبعد تأمل الخدين طار نظره وحط على إضبارة (القضية). لم يكن عددها كبيراً بالمرة. إنها الشاحنة الأخيرة فكّر أندرييف.

أمسك العريف بإضبارة أندرييف ورماها جانباً على الصهريج دون أن يكرر النداء.

ـ فيتشيف! عرّف بنفسك ـ اسمك واسم أبيك!

ـ فلاديمير إيفانوفيتش. أجاب حسب الأصول معتقل في خريف العمر شاقاً طريقه وسط الكتلة البشرية.

ـ المادة؟ المدة؟ إخرج هيا!

بضع أفراد آخرين استجابوا كذلك للنداء ثم رحلوا يسير في أعقابهم العريف، ليعاد البقية إلى القسم من جديد.

أصوات السعال، وقع الأقدام، الصيحات تمازجت جميعها وذابت في خليط صوتي هادر من مئات البشر. كل ما في الأمر أن أندرييف يريد أن يعيش ولقد وضع نصب عينيه هدفين بسيطين عليه تحقيقهما. كان من الواضح للغاية أن عليه أن يمدد إقامته هنا إلى آخر لحظة ممكنة على ألاّ يرتكب أخطاء ويضبط نفسه جيداً..

فالذهب ـ موت وليس من أحد في معسكر النقل يعرف ذلك أفضل من أندرييف. يجب تجنب التايغا و مناجم الذهب بأي شكل من الأشكال. فكيف سيستطيع ذلك هذا العبد المسلوب الحقوق أندرييف؟

لقد خلت التايغا تماما في فترة الحجر التيفوسي، فالبرد والجوع والعمل الشاق بساعاته الطويلة والأرق... كلها مجتمعة طهّرت التايغا من الناس. هذا يعني أن الحجر ما أن ينتهي حتى تُرسل الشاحنات، في المقام الأول، باتجاهات (ذهبية)، وفقط بعد أن يُلبّى طلب المناجم من الناس ـ «(أرسلوا مائتي شجرة)»، كما يكتبون في برقيات الخدمة) ـ يبدأ سوق الناس ليس إلى التايغا، ليس إلى الذهب. إلى أين إذاً؟ هذا لا يهم أندرييف، فالمهم ألاّ يذهب إلى الذهب.

لم يقل أندرييف أية كلمة عما نوى فعله لأي شخص كان، ولم يتشاور مع أي كان، ولا حتى مع أصدقاء المنجم أوغنيف أو بارفينيتيف أو أي كان من هذه الآلاف المتراصة على الرفوف، فهو يعلم حق العلم أن كل من يسمع خطته سيشي به إلى القيادة مقابل ثناء أو لفافة تبغ أو حتى مقابل لا شيء... وهو أدرى بشقاء التايغا، وبأن كتمان السر فقط يمكن أن ينقذه، وفي هذه الحالة يمكن ألا يخاف، فالأمور ستكون أسهل مادام وحده، أما لو كانوا إثنين، ثلاثة، أربعة فما أسهل أن يقعوا بين أنياب الطاحونة. لعبته هي لعبته وحده، وهذا أيضاً ما تعلّمه جيداً في المنجم.

مرت أيام عدة لم يُطْلَب فيها أندرييف. كانوا فور انتهاء الحجر قد بدأوا يجرجرون المعتقلين إلى العمل، وعند التوزيع على الأشغال يجب أن تتخابث فلا تقع في مجموعات كبيرة لأنها غالباً ما كانت تؤخذ إلى أعمال شاقة بالفأس والمعول والمخل، بل في مجموعات صغيرة من شخصين ـ ثلاثة حيث لا ينتفي الأمل بالحصول على قطعة خبز إضافية أو حتى سكّر، فأندرييف لم ير السكر منذ

أكثر من عام ونصف العام. هذا الحساب كان بسيطاً ودقيقاً للغاية. الأعمال كلها كانت، طبعاً، غير قانونية. عَدُّ المعتقلين كان يتم في مرحلة النقل وما أكثر الراغبين بالحصول على قوة عمل مجانية. أولئك الذين كان نصيبهم العمل في الأرض ذهبوا إلى هناك آملين بلفافة تبغ أو كسرة خبز ملقاة في مكان ما، وهذا ما كان يمكن الحصول عليه من عابري الطريق أحياناً. صادف أن ذهب أندرييف للعمل في مستودع الخضار حيث أكل كما اشتهى الشوندر والجزر، كما وحمل معه إلى البيت بعض حبات البطاطا التي شواها فيما بعد في رماد الموقد ليأكلها نصف خضراء، فالحياة هنا تتطلب أن تنجز عمليات الأكل كلها بأقصى سرعة فما أكثر الجوعى من حولك.

بدأت أيام معقولة إلى حد ما يتخللها بعض النشاط، إذ كان علينا كل يوم أن ننتظر في الصقيع منذ الصباح نحو ساعتين بينما العريف يصيح (هيه، عرّف بنفسك، اسمك واسم أبيك) وبعد أن تكون قد قدمت الضحية اليومية لمولوخ، نسرع خابطين لابطين باتجاه التخشيبة ومن هناك يسوقوننا إلى العمل. وقع أن عمل أندرييف في مصنع الخبز، أن نقل الزبالة من المعسكر النسائي، أن مسح الأرض في مركز فصيلة الحراسة حيث كان في المطعم نصف المعتم يجمع بقايا قطع لزجة لذيذة من على طاولات القيادة. فبعد العمل كانوا يحملون إلى المطبخ أطباقاً كبيرة من السحلب الحلو وجبالاً من الخبز، يجلسون بعد ذلك حولها يأكلون ويملأون جيوبهم بالخبز.

كلما كانت المجموعة أصغر، كانت الحال أحسن والأفضل أن تكون وحدك. هذه هي فرضية أندرييف التي خانته مرة واحدة فقط.

ما أندر أن يرسلوا شخصاً وحده إلى مكان ما. جاء مرة العريف الذي حفظ شكل أندرييف (وكان يعرفه باسم مورافيوف) قائلاً:

ـ لقد وجدت لك عملاً ستتذكرني عليه طوال حياتك. ستذهب مع واحد آخر لتقطيع القرم لقيادة المعسكر.

وكان أن ركض أندرييف مع هذا الواحد الآخر أمام مرافقهما المحشور في معطف الخيالة، والذي كاد يتزحلق بجزمته متأخراً عنهما، قافزاً خلال البرك ليلحق

بهما ممسكاً بأذيال معطفه بكلتا يديه. بعد زمن قصير وصلوا إلى بيت صغير محاط بسور تعلوه أسلاك شائكة. دق مرافقهما الباب ونبحت كلبة في الدار. أخذهما مناوب القيادة صامتاً باتجاه الحظيرة، ثم أقفل عليهما الباب بعد أن حمل إليهما سطلاً من الماء، وأفلت في الباحة كلباً عملاقاً تربص بهما حتى أنهيا نشر وتقطيع القرم التي في الحظيرة جميعها. في وقت متأخر من المساء ساقوهما إلى المعسكر، وفي اليوم التالي أمروهما بالذهاب إلى هناك أيضاً، ولكن أندرييف انحشر تحت التخت ولم يذهب إلى العمل إطلاقاً في ذلك اليوم.

في اليوم التالي وقبل توزيع الخبز خطرت ببال أندرييف فكرة بسيطة عمل على تحقيقها في الحال. قام بنزع لفافتي قدميه ثم وضعهما على طرف السرير واحدة فوق الأخرى أسفلهما باتجاه الخارج، كما لو أنهما تلفان قدميه وهو مستلق على السرير، واستلقى في مكان آخر مسنداً رأسه على مرفق يده. قام الموزع بعدٍّ سريع للحصص واضعاً واحدة للفافات القدمين وأخرى لأندرييف وهكذا صارت لديه حصتان. لكن هذه الطريقة لم تكن مضمونة بل كان نجاحها صدفة وما على أندرييف إلاَّ أن يبحث من جديد عن عمل خارج المهجع.

هل فكر أندرييف عندئذ بعائلته؟ لا، بالحرية؟ لا. هل ردد القصائد التي حفظها غيباً؟ لا. لقد عاش فقط حقده اللامبالي، وفي هذا الوقت بالذات كان لقاؤه بالكابتن شنايدر. كان الجناة قد احتلوا الأمكنة الأقرب إلى المدفأة، وكانت الرفوف مفروشة ببطانيات قطنية قذرة ألقي فوقها عدد كبير من مخدات الريش المختلفة الأحجام. البطانية، صاحب لا بد منه للحرامي الناجح وهي الشيء الوحيد الذي ينقله اللص معه بين السجون والمعتقلات، والذي يختلسه عندما لا يكون بحوزته. أما المخدة، فهي ليست فقط مسنداً للرأس، بل وطاولة للورق حيث يستمر لعب الورق بلا نهاية، طاولة يمكن إكسابها الشكل الذي تريد ومع هذا تبقى مخدة. ولاعبو الورق يمكن أن يخسروا لفافات أقدامهم قبل أن يخسروا مخداتهم.

تربع زعماء العصابات على البطانيات والمخدات، بل الأصح من كان في ذلك الوقت متزعماً. أما في الأعلى، على الرف الثالث حيث العتمة مطبقة،

فكانت لا تزال هناك بطانيات ومخدات وكان اللصوص يجرّون الشباب المخنثين إلى هناك، وليس فقط المخنثين فقد كان كل لص، تقريباً، لوطياً.

أحاط باللصوص حشد من الخدم والحشم حكاة البلاط، فمن طرائف الجناة الاهتمام بـ (الروايات). إضافة إلى هؤلاء كنت تجد، حتى في هذه الظروف، حلاقي البلاط مع زجاجات العطر، ورهطاً من الشحاذين المستعدين لارتكاب أي فعل مقابل أن يحصلوا على كسرة خبز أو ملعقة حساء ليس إلا.

ـ هُس! سينيوتشكا يتحدث. هُس سينيوتشكا يريد أن ينام!

مشهد منجمي مألوف. فجأة وسط رهط المستعطين ـ حاشية الجناة الأبدية شاهد أندرييف وجهاً مألوفاً لديه، قسمات وجه معروفة، صوتاً معروفاً. إنه، بلا أدنى شك، القبطان شنايدر رفيق أندرييف في سجن بوتيرسكي.

القبطان شنايدر هو ذلك الشيوعي الألماني والعضو النشيط في الكومنترن، الذي يتقن اللغة الروسية بدرجة رائعة والضليع أيضاً بأدب غوته. إنه ذلك الماركسي الرفيع. لقد علقت في ذهن أندرييف (الحوارات العالية التوتر) معه في ليالي السجن المطوطة. كان شنايدر قبطاناً سابقاً لأعالي البحار حرص على الروح القتالية في زنزانة السجن، وكان ذلك الإنسان المرح بالفطرة.

لم يصدّق أندرييف عينيه.

ـ شنايدر!

ـ آ؟ ماذا بك؟ ـ التفت القبطان لكن نظرة عينيه الزرقاوين الكابية لم تتعرف بأندرييف.

ـ شنايدر!

ـ هوه، ماذا دهاك؟ إصمت! تكاد توقظ سينيوتشكا.

ثم ما لبث طرف البطانية أن ارتفع ليخرج إلى النور وجه سقيم شاحب.

ـ أووه، قبطان، لا استطيع النوم من دونك.

ـ الآن، الآن. تحرك شنايدر بضجر، ثم تسلق الأسّرة وجلس رافعاً البطانية، حاشراً يده تحتها ليبدأ يحك ويحك كعبي سينيوتشكا.

انكفأ أندريڤ آنذاك مجرجراً نفسه باتجاه محشرة فلقد ضاقت به الحياة. على الرغم من أن تلك الحادثة لم تكن كبيرة ولا فظيعة مقارنة بما رأى أندريڤ وبما كتب عليه أن يرى بعدها، إلا أن القبطان شنايدر لم يفارق ذاكرته بعد ذلك اليوم أبداً.

عدد الأشخاص يقل شيئاً فشيئاً ومعسكر النقل يكاد يخلو وها هو أندريڤ يلتقي بالعريف وجهاً لوجه.

ـ ما هي كنيتك؟

كان أندريڤ قد حضّر نفسه لمثل هذا السؤال منذ زمن طويل.

ـ غوروف. أجاب بثقة.

ـ انتظر!

قلّب العريف قوائم الأسماء التي لديه:

ـ لا، غير موجود.

ـ وهل أستطيع الانصراف؟

ـ انقلع يا بهيمة. هدر العريف مثل الدب.

كانوا يسوقونهم كل يوم إلى العمل. كان عملاً مجانياً لا عملاً نظامياً مقنناً، وكانوا قوة عمل خارج الحساب. كان من الأفضل أن تقع في مجموعات صغيرة، وأفضل الأمور أن تكون وحدك أو مع شخص آخر، ولقد حرص أندريڤ أن يكون في عداد مجموعات من هذا النوع، بل ولم يكن مثل هذا الأمر صعب المنال، فما عليك إلّا أن تقف في الصفوف الخلفية. حين يقف في الصف ثلاثمائة ـ أربعمائة معتقل أول ما تساق المجموعات الكبيرة منهم إلى الأعمال الحقلية الشاقة التي لا يرتجى منها خير، ومن ثم المجموعات الأصغر فالأصغر، وها هو قد جاء دور أندريڤ الذي تنقل في المرات السابقة بين العمل في مصنع الخبز، وفي مهمة نسائية، وذات مرة كان عليه أن يغسل الصحون في مطعم معسكر نقل المغادرين الذين أنهوا أحكامهم. هذه المرة كان رفيقه في الشغل فتيلا محتضراً، رجلاً هزيلاً في خريف عمره أُرسل لتوه من سجن المنطقة. وكانت تلك أول مرة يخرج فيها

هذا المحتضر إلى العمل، ولذلك مافتىء يسأل: ماذا عليه أن يفعل، هل سيطعمونهم وهل من اللائق أن يطلب شيئاً ما يؤكل ولو نتفة قبل الشغل... وكان أن قص على أندرييف أنه برفيسور بالأمراض العصبية، أما أندرييف فتذكر كنية صاحبه الناحل.

عرف أندرييف من تجربته الخاصة أن طباخي المعتقلات، مثلهم مثل كثيرين غيرهم لا يحبون الإيفانات[62] إيفانوفيتشات، كما كانوا يسمون المثقفين بتقزز. ولذلك نصح البروفيسور ألا يطلب شيئاً قبل الأوان، ثم فكر حزيناً بأن غسل الصحون بل وتنظيف كل شيء سيقع على عاتقه وحده، فالبرفيسور كان ضعيفاً للغاية، ولن يكون على أندرييف أن يستاء فكم من المرات كان أندرييف في المعتقل شريكاً ضعيفاً ورديئاً لرفاق ذلك الزمان، ولم يقل أي منهم ولو كلمة واحدة جارحة. أين هم جميعاً؟ أين شينين؟ أين ريوتين؟ أين خفوستوف؟ كلهم ماتوا، أما هو فقد قاوم وعاش غير أنه لم ينج بعد، ومن المشكوك فيه أنه سيعيش، ولكنه على الرغم من كل شيء سيقاتل من أجل البقاء على قيد الحياة.

تبين أن توقعات أندرييف كانت صحيحة فالبروفيسور كان فعلاً خائر القوى إلا أنه حي الضمير. أزفت ساعة نهاية العمل وها هو الطباخ يجلسهما في المطبخ ويضع أمامهما جاطاً كبيراً من حساء السمك المركز وصحناً معدنياً كبيراً من العصيدة. ما أن رآهما البروفيسور حتى طار فرحاً، أما أندرييف الذي رأى في المنجم كيف أن رجلاً واحداً يأكل عشرين حصة غداء من ثلاثة أطباق مع الخبز طبعاً، فتلقى هذه الضيافة المقدمة بشيء من الامتعاض.

ـ وهل سنأكل من دون خبز؟! سأل أندرييف متجهماً.

ـ كيف بلا خبز، بل سأعطيكما قليلاً، ثم اخرج الطاهي من الخزانة كسرتي خبز.

أتيا على الضيافة بسرعة، وفي هكذا (دعوات) كان أندرييف المتبصّر يأكل دون خبز، وذلك ما فعله هذه المرة أيضاً إذ إنه دس الخبز في جيبه. أما البروفيسور، فكان ينهش الخبز، ويشرب الحساء، ويمضغ ويلوك، وقطرات من العرق القذر تنضح من رأسه الحليق الأشيب.

ـ خذا أيضاً روبلاً لكل منكما ـ ثم أكمل الطباخ قوله ـ فليس لدي خبز في الوقت الحاضر.

لقد كان هذا الأجر فوق حدود الخيال. كان هناك في المعسكر كشك حيث يمكن شراء الخبز وقد أخبر أندرييف البروفيسور بذلك.

ـ بلى، بلى، أنتم على حق. ولكنني رأيتهم يبيعون هناك شراباً حلواً، أو ليمونادا؟ آه كم أتحرق لقطرة ليمونادا أو أي شيء آخر حلو.

ـ كما تشاؤون أيها البروفيسور، ولكنني لو كنت مكانكم لفضلت شراء الخبز.

ـ نعم، نعم، معكم حق ـ كرر البروفيسور ـ ولكنني لأشد ما أريد شراباً حلواً، إشربوا أنتم أيضاً. لكن أندرييف رفض الشراب رفضاً باتاً.

لقد حقق أندرييف في نهاية المطاف خطته في العمل وحده، فصار يشطف أرض دائرة التعيينات في معسكر النقل وحيداً.

كان الحاجب الذي من واجبه الحفاظ على الدائرة نظيفة يمر عليه كل مساء. الدائرة غرفتان صغيرتان مساحة الواحدة منهما لاتتجاوز أربعة أمتار مربعة، وضعت على أرضهما المطلية بعض الطاولات. لقد كان التنظيف يستغرق عمل عشر دقائق فحسب، ولم تدخل في مخ أندرييف مسألة أن يستأجر الحاجب عاملاً لعمل كهذا، مع أن الأخير كان يحمل بنفسه الماء اللازم للشطف على طول المعسكر، كما كان يجهز الخرق النظيفة لأندرييف دائماً قبل العمل. أما الأجر، فكان سخياً: تبغاً وحساء وعصيدة وخبزاً وسكّراً. وفوق ذلك كله وعد الحاجب أندرييف بجاكيت خفيف ولكنه لم يتمكن من الوفاء بوعده.

من الواضح أن الحاجب كان يرى بأن من المعيب له أن يشطف أرض الدائرة بيديه ـ ولو أن ذلك يستغرق خمس دقائق في اليوم ـ مادام يستطيع استئجار شغيل، وهذه صفة خاصة بالروس لاحظها أندرييف حتى في المنجم: يعطي القائد حاجبه، لتنظيف المهجع، كمشة تبغ فيقوم هذا الأخير بكبس نصفها في كيسه، ويستأجر بالنصف الثاني خادماً من الثامنة والخمسين، ليقوم الخادم بدوره بتناصف الكمية، مستأجراً لنفسه شغيلاً من مهجعه مقابل لفافة تبغ، وإذا بالشغيل الذي

كدح اثنتي عشرة إلى أربعة عشرة ساعة في النوبة اليومية يشطف أرض المهجع في الليل مقابل هاتين اللفافتين، يغمره شعور بأن توفيقاً كبيراً أصابه فهو يستطيع استبدال بعض الخبز بالتبغ.

التبادل النقدي أعقد مجال نظري في الاقتصاد وهو كذلك في المعتقل فالعمليات النقدية هنا أيضاً معقدة والمعايير هنا مدهشة: شاي، تبغ، خبز... وهي التي تحدد السعر في السوق.

كان الحاجب يقدّم لأندرييف أحياناً قسائم إطعام هي عبارة عن قطع كرتون على شكل فيشة عليها خاتم رسمي: عشر غداءات، خمسة أطباق عصيدة... مرّة أعطاه فيشاً لعشرين حصة عصيدة. هذه الحصص العشرون لم تكن كافية لتغطية سفل القصعة المعدنية.

رأى أندرييف بأم عينه كيف كان الجناة يحشرون في الكوة بدلاً من هذه الفيش قطعاً مطوية، برتقالية ناصعة، فيشية الشكل من ثلاثين روبلاً، وكيف كانت تفعل فعلها غير المردود، فالقصعة الملأى بالعصيدة تقفز من الكوة ملاقاة لـ (الفيشة).

يقل عدد المعتقلين في المعسكر يوماً بعد يوم، وها هو أخيراً قد أزف ذلك اليوم حين لم يبق بعد شحن السيارات الأخيرة سوى ما يقارب الثلاثين معتقلاً في الساحة. هذه المرة لم يسمحوا لهم بالعودة إلى المهجع، بل صفوهم وساقوهم من أول المعسكر إلى آخره.

ـ أوَليسوا يسوقوننا إلى الإعدام! تساءل جار أندرييف العملاق الأعور، ذو اليدين الضخمتين. وهذا (الإعدام) بالضبط ما فكر به أندرييف أيضاً. قادوهم جميعاً إلى أمين مستودع التعيينات.

ـ سنأخذ بصماتكم، قال الأمين خارجاً إلى الدكة.

ـ أوه، إذا كان الأمر يتعلق بالأصابع فيمكن العيش من دونها ـ قال الأعور فرحاً ـ كنيتي فيليبوفسكي، غيورغي أداموفيتش.

ـ وأنت؟

ـ أندرييف، بافل إيفانوفيتش.

ـ بحث الأمين عن إضبارتيهما الشخصيتين.

- أوو، من زمان نفتش عنكم - قال الأمين بلا حقد - إذهبوا الآن إلى المهجع وسنبلغكم فيما بعد إلى أين ستذهبون. أحس أندرييف أنه ربح المعركة من أجل الحياة فليس من المعقول أن التايغا لم تمتلىء بالناس بعد. وإذا كان لابد من الفرز فسيكون إلى مهمات محلية قريبة، أو حتى إلى المدينة، وذلك أفضل طبعاً. لن يجرجرونا إلى البعيد، ليس فقط لأن (ع، ع، س) كتبت على بطاقته فهو يدرك جيداً حتمية إعادة عرضه على لجنة طبية. بل لأن التايغا أتخمت بالناس، ولم يبق إلا المأموريات المحلية حيث الحياة أسهل وأبسط وأشبع، حيث لا مناجم ذهب وحيث يشع الأمل بالخلاص. تلك المأموريات التي تنتظر دورها الأخير.

عانى أندرييف ما عاناه خلال عاميّ المنجم المنهكين، وخلال أشهر التوتر الوحشي في معسكر الحجر هنا. كما وفعل الكثير راكضاً وراء الآمال التي لايجوز إلّا أن تتحقق بشكل من الأشكال.

لم يطل الانتظار أكثر من يوم واحد. فما أن انتهى الفطور حتى طار العريف إلى المهجع يمسك بقائمة صغيرة. شعر أندرييف بانزياح عبء ثقيل عن صدره عند رؤيتها، فقوائم المنجم، كانت قوائم خمسة وعشرين معتقلاً لكل شاحنة، وكانت دائماً قوائم الخمسة وعشرين تلك كثيرة العدد.

طُلبَ أندرييف وفيليبوفسكي في هذه القائمة التي تضمنت أسماء أخرى ليست كثيرة، لا اسمين ولا ثلاثة طبعاً. ساقوا المطلوبين إلى باب قسم التعيينات المعروف وهناك وقف ثلاثة آخرون: عجوز أشيب هادىء متباه في معطف قصير حسنِ الحال من جلد الماعز وحذاء لبادي، وواحد ثان حرِك في سترة قطنية وسروال وحذاء مطاطي ولفافات تحيط بقدميه. أما الثالث، فكان عجوزاً وقوراً يحدق إلى الأرض بين قدميه. وهناك في البعيد وقف شخص ما في معطف عسكري وقبعة.

- هؤلاء هم - قال العريف - أيناسبونكم؟

استدعى الرجل ذو المعطف العسكري العجوز بإشارة من إصبعه.

- أزغيين يوري إيفانوفيتش، المادة الخامسة والثمانون، الحكم خمسة وعشرون عاما. قدم العجوز تقريره بخفة متناهية.

ـ لا، لا ـ عوج المعطف العسكري بوزه ـ ما هو اختصاصك، هذه المعلومات يمكنني أن أحصل عليها من دونك...

ـ مواقدجي، أيها المواطن القائد.

ـ ماذا أيضاً؟

ـ أستطيع العمل كصّواج أيضاً...

ـ حسناً، حسناً، وأنت؟ نقل القائد نظره إلى فيليبوفسكي.

قال العملاق الأعور إنه عطسجي مراكب بخارية من كامينيتس ـ بودبولسك.

ـ وأنت؟

تمتم العجوز الوقور فجأة يبضع كلمات ألمانية.

ـ ما هذا؟ قال المعطف العسكري مهتماً.

ـ لا تقلقوا ـ استدرك العريف ـ إنه نجار، نجّار ممتاز واسمه فريزورغير، إنه الآن ليس على ما يرام ولكنه سيسترجع نفسه عما قريب.

ـ ولماذا بالألمانية؟

ـ إنه من ضواحي ساراتوف، من الجمهورية المستقلة للا...

ـ آه، آ... أما أنت؟ كان هذا السؤال موجهاً لأندرييف.

(يلزمه اختصاصيون أو شغيلة بصورة عامة ـ فكر أندرييف ـ سأكون دبّاغاً)

ـ دباغ أيها المواطن القائد.

ـ عظيم. وكم عمرك؟

ـ اثنان وثلاثون.

هزّ القائد رأسه. بصفته إنساناً مجرباً رأى في حياته كيف ينبعث الأموات من جديد، صمت ملتفتاً إلى الخامس.

تبين أن هذا الخامس الحَرِك من عارفي لغة الأسبرانتو لا أكثر ولا أقل.

ـ أنا كما ترون مهندس زراعي عموماً، بالإختصاص يعني مهندس زراعي،

حتى إنني حاضرت بالطلبة، ولكن عملي يعني، بالأسبرانتو.

ـ جاسوسية يعني؟ قال المعطف العسكري بلا مبالاة.

ـ بالضبط، بالضبط شيء من هذا القبيل، أكد الشخص الحرك.

ـ أعجبوكم؟ سأل العريف.

ـ آخذهم ـ أجاب القائد ـ لن أجد أفضل منهم على أية حال فالعرض فقير هذه الأيام.

أخذوهم خمستهم إلى غرفة مستقلة تابعة للمهجع، وقد لاحظ أندرييف جيداً أن القائمة تتضمن اسمين آخرين أو ثلاثة. أقبل العريف.

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ بمهمة محلية، إلى أين بعد، ـ أجاب العريف، هذا هو المسؤول الجديدعنكم.

ـ سترسلكم خلال أقل من ساعة. يكفي، تسكعتم هنا ثلاثة أشهر، أما آن الآوان أن تستفيقوا على حالكم يا صحبي!

ساقوهم فعلاً خلال ساعة ولكن ليس إلى الشاحنة بل إلى المستودع (لتبديل الملابس على ما يبدو) فكر أندرييف، فالربيع على العتبة إنه نيسان. سيوزعون ملابسَ صيفية، أما هذه الشتوية المنجمية البغيضة، فسيسلمها أندرييف وسينساها. ولكن ما الذي يحدث! ها هم يعطونهم المخصصات الشتوية لا الصيفية. أهو خطأ؟ لا، فقد كتب بالخط الأحمر على القائمة (شتوية).

لبسوا القمصان والسترات ـ الأسمال الشتوية في هذا اليوم الربيعي دون أن يعوا ما يجري لهم، وراحوا يقفزون بقلق كيفما اتفق عبر البرك مندفعين إلى المهجع الذي أتوا منه.

كلهم كانوا قلقين، مضطربين للغاية وكلهم صمتوا. وحده فريزورغير تمتم.. وتمتم بكلماته الألمانية.

ـ إنه يقرأ صلواته، ابن الـ... ـ همس فيليبوفسكي في أذن أندرييف.

ـ هل بينكم من يعرف إلى أين سيأخذوننا؟ سأل أندرييف.

كان المواقدجي الأشيب الشبيه بالبروفيسور قد زار المأموريات المحلية:

الميناء، الكيلومتر مئة، الكيلومتر السابع عشر، الثالث والعشرين، السابع والأربعين...

وبعد ذلك تبدأ قطاعات إدارات الطرق وهي ليست أفضل من مناجم الذهب بكثير.

ـ اخرج، إمش باتجاه البوابة!

أجرى الحارس تفقداً، شعر أندرييف كيف تدب القشعريرة في قدميه وظهره...

ـ اصعد إلى الشاحنة!

رفع الحارس الشادر الكبير. كانت الشاحنة ملأى بمعتقلين يجلسون كيفما اتفق.

ـ اصعدا

جلسوا خمستهم معاً، صمتوا معاً. ركب الحارس السيارة وبدأ المحرك يشخر لتتحرك الشاحنة متجهة إلى الطريق العام الرئيس.

ـ إلى الكيلومتر الرابع على الأغلب. قال المواقدجي.

فرّت أعمدة الفرستات مسرعة إلى الخلف ـ اندفعوا خمستهم معاً إلى شق في الشادر غير مصدقين أعينهم...

ـ السابع عشر...

ـ الثالث والعشرون... عد فيليبوفسكي.

ـ مهمة محلية، أوغادا حشرج المواقدجي بحقد.

كانت الشاحنة قد انحدرت في درب بين الجروف الصخرية حيث الطريق أشبه بحبل مقوس شدوا به وثاق البحر بالسماء، وَجَرَّ بِهِ الشقاة الجبال محنيي الظهور.

ـ السابع والأربعون. صوصأ الاسبرانتي الحرِك يائساً، بينما فرّت الشاحنة متجاوزة السابع والأربعين أيضاً.

ـ إلى أين نحن ذاهبون!؟ سأل أندرييف ممسكاً بكتف أحدهم.

ـ إلى آتكا، سنقضي الليل عند المائتين وثمانية.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أعرف... هات دخانك.

تابعت الشاحنة سيرها، لاهثة وهي تشخر على المنحدر متسلقة التل.

«ليلاً»

انتهى العشاء. لعق غلييوف القصعة بنهم، ولمّ براحة يده اليسرى فتات الخبز عن الطاولة بحرص شديد. بعد أن وضع الفتات في فمه لعق راحة يده جيداً كيلا تبقى ذرة خبز واحدة عالقة بها. أحس غلييوف، وهو لم يبتلع بعد، بريقه يُحوّل فتات الخبز إلى كتلة لزجة في فمه. لم يكن باستطاعة غلييوف القول أكان ذلك الإحساس لذيذاً أم لا؟ اللذة، إنها شيء آخر مختلف، شيء هزيل بالمرة قياساً بهذا الإحساس الشهواني الذي يجعل المرء ينسى نفسه، الإحساس الذي ولدّه الطعام. لم يسرع غلييوف بابتلاع الخبز. الخبز ذاب وحده في فمه، وتلاشى بسرعة فيه.

انغرزت عينا باغريتسوف الجاحظتان في فم غلييوف، دون أن يرف جفناهما. لم يكن لدى أي معتقل تلك الإرادة الهائلة، التي تجعله يستطيع إزاحة نظره عن الطعام المتلاشي في فم إنسان آخر. ابتلع غلييوف ريقه. بعد ذلك فقط سحب باغريتسوف عينيه وتملى الأفق، ناظراً إلى القمر البرتقالي الكبير، الذي يزحف متسلقاً قبّة السماء.

آن الأوان. قال باغريتسوف فانطلقا معاً صامتين عبر ممر ضيق إلى الجروف، وارتقيا مرتفعاً صغيراً على التلة الملتوية الوجه. رغم أن الشمس كانت لتوها قد غابت، إلّا أن الصخور التي كانت تشوي الأقدام العارية في جزمة المطاط باتت باردة في الحال. زرر غلييوف قمصلته، لم يدفئه المشي.

ـ أما زال الطريق طويلاً؟ سأل هامساً.

ـ طويل بعد. أجاب باغريتسوف بصوت منخفض.

جلسا يستريحان. لم يكن لديهما ما يتحدثان عنه، بل وليس هناك ما

يفكران به. كل شيء كان واضحاً وبسيطاً. هناك على ظهر المرتفع قبعت كومة من أحجار مقلوبة، واشنيات وحشائش منكوشة يابسة.

ـ كان بإمكاني أن أقوم بذلك وحدي. ضحك باغريتسوف هازئاً، لكن الأمر مع واحد ثان أمتع، خاصة مع أنيس قديم...

لقد جاؤوا بهما العام الماضي إلى هنا على باخرة واحدة.

توقف باغريتسوف: يجب أن تنبطح، وإلا فإنهم سيروننا.

انبطحا، وصارا يلقيان بالحجارة جانبا. لم تكن هناك حجارة كبيرة لا يمكنهما رفعها، أو تحريكها فالذين كوموا هذه الحجارة هنا في الصباح ليسوا أقوى من غليبوف.

أطلق باغريتسوف شتائمه بصوت مكبوت. فلقد خدش إصبعه وسال دمه. كبس جرحه بالتراب، ومزق شريطاً من قمصلته لف الجرح به، إلا أن النزيف لم يتوقف.

ـ تخثر رديء. قال باغريتسوف بلا مبالاة.

ـ هل أنت طبيب؟ سأل باغريتسوف وهو يمص جرحه النازف.

صمت غليبوف. خيل إليه أن ذلك الزمن، الذي كان طبيباً فيه، موغل في القدم. أجل، وهل كان هناك بالفعل زمن غير هذا الذي يعيشه الآن؟ لشد ما بدا له ذلك العالم وراء الجبال حلماً من الأحلام، أو وهما من الأوهام. أما الواقع، فهو لحظة، ساعة، يوم من بوق الاستيقاظ إلى بوق نهاية الشغل.

عدا ذلك لم يفكر بأي شيء ولم يكن لديه عزم ليحلم بما هو أكثر. هذا كل ما في الأمر.

هوَ لا يعرف ماضي أولئك الناس الذين أحاطوا به، ولم يهتم به أصلاً. فلو أن باغريتسوف أعلن غداً أنه بروفيسور في الفلسفة، أو ماريشال في سلاح الطيران لصدّقه غليبوف دون تفكير في الأمر. أكان هو ذاته طبيباً، فعلاً، في يوم من الأيام؟ ضاعت هنا ليس فقط آلية التفكير، بل وآلية المراقبة أيضاً. رأى غليبوف شريكه باغريتسوف يمص الدم من إصبعه القذر، ومع ذلك لم يقل له شيئاً. كل ما

في الأمر أنّ الفكرة انزلقت في وعيه فحسب، وهو لم يجد في نفسه رغبة في أن يقول شيئاً، ولم يبحث عنها أصلاً.

الوعي الذي تبقى لديه، والذي لم يعد ربما وعياً إنسانياً، كان يملك سطوحاً قليلة جداً، وهي جمعياً موجهة الآن باتجاه واحد هو إزاحة الحجارة بأسرع ما يمكن.

ـ يبدو أنها عميقة؟ تساءل غلييوف عندما استلقيا لأخذ نفس.

ـ كيف لها أن تكون عميقة؟ استغرب باغريتسوف.

وأدرك غلييوف أنه طرح تساؤلا غبياً، فالحفرة لا يمكن فعلا أن تكون عميقة.

ـ هاهو. قال باغريتسوف، فلقد لامست يده إصبعاً بشرياً. برز إبهام القدم من بين الحجارة وكان مرئياً تماماً تحت ضوء القمر. لم يكن الإصبع يشبه أصابع غلييوف، أو باغريتسوف، ليس لأنه كان ميتاً و مزرقاً، فلا فرق في ذلك تقريباً، بل لأن الظفر على هذا الإصبع الميت كان مقلماً، أما الإصبع نفسه فكان أثخن وألين من أصابع غلييوف.

أزاح غلييوف وباغريتسوف الحجارة على عجل عن الجثة.

ـ إنه لا يزال شاباً، قال باغريتسوف.

أخرجا الجثة من الحفرة بصعوبة.

ـ ياله من ضخم. قال غلييوف متنفساً بعسر.

لو أنه لم يكن بهذه الضخامة ـ قال باغريتسوف ـ لقبروه كما يقبروننا نحن، ولما كان علينا أن نأتي الآن إلى هنا.

قاما بثني ذراعي الميت، وخلعا القميص عن جثته.

ـ سرواله الداخلي جديد تماماً. قال باغريتسوف مستحسناً.

نزعا سرواله الداخلي أيضاً. لف غلييوف ملابس الميت في صرة تحت قمصلته.

ـ البسها أفضل. قال باغريتسوف.

ـ لا، لا أريد، همهم غلييوف.

أعادا الجثة إلى الحفرة وردما الحجارة فوقها من جديد.

استلقى ضوء القمر الأزرق على الحجارة، وعلى أشجار التايغا المتباعدة، مجسِّماً كل تلة صغيرة و كل شجرة في هيئة مختلفة عما هي في النهار. كل شيء بدا الآن حقيقياً، ولكن ليس كما في النهار. كان هذا هو الوجه الآخر، الوجه الليلي للعالم. تدفأت ملابس الميت الداخلية في عب غليبوف ولم تعد تبدو غريبة.

ـ آه، لو كان هناك ما ندخنه... تنهد غليبوف حالماً.

ـ غداً ستدخن.

ابتسم باغريتسوف. فغداً سيبيعان ملابس الميت الداخلية، سيحصلان مقابلها على الخبز، وربما كان بإمكانهما أن يحصلا أيضاً على قليل من التبغ...

«لعبة الورق»

كانوا يلعبون الورق عند سائس الخيل ناعوموف. لم يكن الحراس المناوبون يلتفتون إلى براكة سائسي الخيل، موجهين عن حق اهتمامهم الأساسي لمراقبة المحكومين بالثامنة والخمسين، فلم تكن الخيل تسلّم لأعداء الثورة. في الحقيقة كان المشرفون على العمل، على أرض الواقع، يتذمرون في سرهم فقد حرموهم من أفضل الناس وأكثرهم حرصاً، ولكن التعليمات بهذا الصدد كانت واضحة وصارمة. خلاصة القول كان الوضع عند سائسي الخيل أكثر أمانا، ومع كل ليل كان الجناة يجتمعون هناك للعب الورق.

على الأسرّة السفلى، المنصوبة في الزاوية اليمنى للبراكة، فرشت بطانيات قطنية متعددة الألوان. وأُشعِلَ على عمود الزاوية فانوس «كوليمكا» ـ المحلي الصنع الذي يعمل على بخار البنزين.

كل مافي الجهاز ثلاثة أو أربعة أنابيب نحاسية مفتوحة لحمت في ثقوب على غطاء علبة كونسروة فارغة. لإشعال هذا المصباح توضع على الغطاء عدة جمرات تتكفّل برفع درجة حرارة البنزين في العلبة فينطلق البخار عبر أنابيب النحاس ليشتعل غاز البنزين بعود ثقاب.

كانت ترقد على البطانيات مخدة ريش قذرة، ضغطت من الجهتين بأرجل الندين المتربعين لبدء المباراة. كانت تلك هي الوضعية الكلاسيكية لمعركة الورق في المعتقلات. الورق لم يكن ورق لعب حقيقي، كان ورق لعب مصنوع يدوياً في السجن، مصنوع هنا من قبل حرفيين مهرة بسرعة فائقة. ولصناعة ورق اللعب كان يلزم ورق عادي (من أي كتاب) وقطعة خبز (تلاك وتعجن في خرقة

للحصول على النشاء للصق الورق)، ثم قطعة من قلم كوبيا (بدلاً من الألوان المطبعية) وسكين لحز رسومات الأجناس وقطع الأوراق أيضاً.

ورق اللعب هذا اليوم كان قد صنع لتوه من أحد مجلدات فيكتور هيجو. كان أحدهم قد نسي الكتاب البارحة في الدائرة. كان الورق قوياً، سميكاً، ولم تكن هناك حاجة للصق الأوراق بعضها ببعضها الآخر كما يتم عادة عندما تكون رقيقة. في المعتقل، كانت أقلام الكوبيا تصادر حتما عند كل تفتيش للبراكات، كما كانت تصادر عند تفتيش الطرود البريدية. كانوا يقومون بذلك ليس فقط «لتجنب» احتمال تزوير الوثائق والأختام (فقد كان هناك العديد من الرسامين المهرة القادرين على القيام بذلك)، بل وللقضاء على كل مايمكن أن ينافس احتكار الدولة للبطاقات. صنعوا من قلم الكوبيا الحبر، ولونوا به رسوم أجناس ورق اللعب: بنات، أولاد، عشرات من مختلف الأجناس... الأجناس لم تكن تتمايز باللون ولم يكن اللاعب بحاجة إلى مثل هذا التمايز. ولد البستوني مثلاً كانت تقابله رسمة علامة البستوني في زاويتي الورقة المتقابلتين.. موقع الرسومات وشكلها مُوحَّد منذ مئات السنين. كان إتقان صنع أوراق اللعب يدخل في برنامج التربية «الفروسية» للمجرم الشاب. رقد ورق اللعب الجديد على المخدة. واحد من اللاعبين خبط عليه بيده القذرة ذات الأصابع الطويلة البيضاء التي لاتشبه أصابع الشغيلة. كان ظفر الخنصر ملفتاً للنظر بطوله، كذلك كان الهندام اللصوصي والأسنان الذهبية، الأسنان السليمة كانت تُلبَس هنا بتيجان برونزية. فقد وجد في المعتقل خبراء احترفوا تركيب التيجان، وجمعوا ماليس بقليل جراء تركيب مثل هذه التيجان، التي كانت تلاقي هنا رواجاً على الدوام. أما ما يتعلق بالأظافر، فإن طلاءها الملون كان سيدخل تقاليد «العالم الجنائي» لو كان بالإمكان جلب المناكير إلى المعتقلات.

تلألأ الظفر الطويل المنمّق كحجر كريم. سرّح صاحب الظفر شعره الأشقر الدهني القذر بأصابع يده اليسرى. كان قد حلق شعره وفق تسريحة «بوك» بدقة متناهية.

الجبهة الضيقة الخالية من أية تجاعيد، الحاجبان الصفراوان، الفم المزموم.. ذلك كلّه جعل ملامحه باهتة، إنها لصفة هامّة لكل لص. وجهه لايمكن تذكر

ملامحه. تنظر إليه فتنساه في الحال، تضيع ملامحه، تغيب، فلو التقيته ثانية لن تتعرف إليه. إنه سيفوتشكا الخبير الشهير بألعاب الورق الكلاسيكية الثلاث: «تيرتس» و «ستوس» و «بورا»، مبعث آلاف التفسيرات لقواعد اللعب، التي يجب أن تراعى في مباراة اليوم بدقة متناهية. قالوا إن سيفوتشكا «يلعب بمهارة» أي أنه يظهر خفة ومهارة محتال حقيقي. وهو طبعاً كان محتالاً. لعبة اللصوص الشريفة تعني بالضرورة لعبة خداع. راقب خصمك واخدعه فهذا من حقك، إعرف كيف تخدع، إعرف كيف تفحم خصمك في لعبة مشكوك فيها.

كان يتبارى دائماً إثنان: واحد مقابل الآخر، لم يخس أحد من المعلمين نفسه بالمشاركة في لعبة جماعية، كلعبة «النقاط». لم يكونوا يقبلون الجلوس إلا قبالة لاعبين مهرة. كما في لعبة الشطرنج اللاعب الحقيقي يفتش عن خصم قوي.

أما خصم سيفوتشكا في اللعب فكان ناعوموف ذاته، عريف سائسي الخيل. كان ناعوموف أكبر سناً من خصمه (ومن يدري ماهو عمر سيفوتشكا عشرون؟ ثلاثون؟ أربعون؟)، وكان أسود الشعر، صغيراً، ذا عينين سوداوين عميقتي الغور، ونظرة معذبة..لو لم أكن أعرف بنفسي أن ناعوموف حرامي قطارات من كوبان لكنت حسبته درويشا أو عضواً في طائفة «الله يعلم».مثل هذه الطوائف تنتشر في معتقلاتنا منذ عشرات السنين. يتضخم ذلك الانطباع عن ناعوموف عند رؤية الخيط مع الصليب القصديري المعلق حول عنقه.. كانت ياقة قميصه مفتوحة. هذا الصليب لم يكن استهزاء زنديق على الإطلاق، ولم يكن ولعاً ولانزوة مرتجلة. كل اللصوص كانوا يحملون في ذلك الحين صلبان الومينيوم على أعناقهم. كانت تلك علامة فارقة دالّه، مثل الوشم. في أعوام العشرينيات كان اللصوص يلبسون سيدارات صناعيين، وقبل ذلك كانوا يلبسون طاقيات «قباطنة»، بينما كانوا في الأربعينيات يلبسون قبعات «كوبانكا[63]»، ويطوون سيقان جزماتهم، ويعلقون الصلبان على أعناقهم. الصلبان كانت عادة ملساء، ولكن حين كان يتصادف وجود فنانين، كانوا يرغمونهم على حفر زخارف مختلفة الأشكال بالإبرة على الصلبان: قلب، ورقة لعب، صليب، إمرأة عارية... أما صليب ناعوموف فكان أملسَ. لقد تدلى الصليب على صدره الاسمر العاري، معيقاً قراءة الوشم الأزرق

المحفور بالإبر على صدره: مقطع من قصيدة يسينين، الشاعر الوحيد، المعترف به رسمياً في «عالم الجنايات»

«ماأقصر الدروب التي قطعناها

ما أكثر الذنوب التي ارتكبناها»

ـ بماذا تقامر؟ قالها سيفوتشكا من بين أسنانه بمنتهى الاستخفاف. كان ذلك يعد أيضاً نبرة جيدة لبدء اللعبة.

ـ بهذه الخرق، هذه البدلة... ثم خبط ناعوموف على كتفيه

ـ ألعب بخمسمائة. سعَّر سيفوتشكا البدلة.

جاء الرد رشة شتائم قاذعه، كان يجب إقناع الخصم بسعر أعلى بكثير للبدله. انتظر المتفرجون المتحلقون حول اللاعبين، بفارغ الصبر، نهاية هذا التمهيد التقليدي. ردَّ سيفوتشكا الدين في الحال بشتائم أفظع ضارباً سعر البدله. أخيراً تم تثمين البدله بألف روبل. وضع سيفوتشكا من جهته عدداً من الكنزات البالية مقابل بدلة ناعوموف، وبعد أن تم تسعير الكنزات. ألقيت هناك أيضاً على البطانية. قام سيفوتشكا بخلط الورق.

كنا مهندس النسيج السابق غاركونوف وأنا، نقطع القرم لتدفئة براكة ناعوموف. كان هذا عملنا الليلي، بعد عملنا النهاري في المنجم. كان علينا أن نكسّر ونقطّع من الحطب مايكفي ليوم كامل. فما أن ننتهي من العمل حتى نتوجه إلى براكة سائسي الخيول حيث الدفء الذي لا أثر له في براكتنا. بعد التحطيب كان خادم ناعوموف يصب لنا في القصعة «مرقة» باردة، بقايا الأُكلة الوحيدة والدائمة التي كانت تدعى في قائمة الطعام «غالوشكي أوكراني»، وكنا نجلس حيثما اتفق، على الأرض، أو في الزاوية نلتهم أجرنا على عجل. نأكل طعامنا في عتمة تامة ف «مصباح البنزين» المحلي بالكاد كان يضيء ساحة اللعب. رغم العتمة خبرة المساجين المخضرمين تجعل الملعقة «لا تأتي خارج الفم». أما الآن فنحن نتفرج على لعبة سيفوتشكا وناعوموف.

خلع ناعوموف بدلته. رقد السروال والسترة على البطانية بالقرب من سيفوتشكا. هاهما يقامران بالمخدة. ظفر سيفوتشكا يرسم في الهواء رسومات ذات

مغزى. أوراق اللعب تختفي تارة في يديه وتظهر تارة أخرى. لحق بالبدلة، أيضاً، قميص ناعوموف الساتان الذي كان يلبسه على اللحم. قامت الأيدي الخدومه بإلقاء ستره على كتفي ناعوموف، لكنه رماها على الأرض بحركة عنيفة من كتفيه في الحال. فجأة ساد الصمت. حك سيفوتشكا المخدة بظفره بحدة.

ـ إلعب عن المخدة. قال ناعوموف بصوت أجش.

ـ مائتان. أجاب سيفوتشكا بصوت مستهتر

ـ ألف، ياكلبه. صرخ ناعوموف.

ـ مقابل أي شيء؟ هذه الزبالة، تزمّر سيفوتشكا. من أجلك فقط ألعب بثلاثمائة.

واستمر النزال. حسب الأصول لايمكن للمعركة أن تنتهي طالما لدى الخصم ما يرد به.

ـ إلعب عن الجزمه.

ـ لاألعب عن الجزمات، قال سيفوتشكا بصلابة، لاألعب عن أثمال حكومية.

قامرا أيضاً بأشياء تساوي روبلات قليلة: منديل أوكراني مطرز بديكه، علبة سجائر حفر عليها وجه غوغول[64] وجميعها صارت من نصيب سيفوتشكا. تبقع خدا ناعوموف الاسمران بحمرة كثيفة

ـ نلعب بالدين، قال ناعوموف مختبراً خصمه.

ـ ضروري جداً. قال سيفوتشكا بحيوية وسحب يده إلى الخلف.

كان يمسك بيده لفافة ماخوركا مشتعلة. سحب سيفوتشكا نفساً عميقاً وراح يسعل.

ـ كيف سترد لي ديني؟ ليست هناك دفعات جديدة، من أين ستأخذ؟ هل ستأخذ من الحراس؟

لم يكن «القانون» يلزم بالموافقة على اللعب «بالدين» لكن سيفوتشكا لم يزعل ناعوموف، ويحرمه آخر فرصة للربح.

ـ بمائة ـ قالها ممطوطة ـ أعطيك مهلة ساعة لرد الدين.

ـ هات الورق. عدّل ناعوموف الصليب على صدره وأصلح جلسته.

ربح ناعوموف البطانية والمخدة والسروال وعاد ليخسرها جميعها من جديد.

ـ لو تحضرون «تشيفير» ـ قال سيفوتشكا، وهو يحشو الأشياء التي ربحها في حقيبة كرتون كبيرة ـ سأنتظر.

ـ إغلوا تشيفير ياشباب. قال ناعوموف. يدور الحديث هنا عن شراب شمالي مدهش: شاي مركّز، حيث يضعون لقدح صغير خمسين غراماً من الشاي. الشراب مرٌ للغاية، يشربون منه بلعات صغيرة، ويمزمزون على سمك مملح. هذا الشراب يطيّر النوم لذلك فله وزنه الكبير عند اللصوص والسائقين على طرقات الشمال الطويلة.

الـ «تشيفير»، يفترض به أن يفتك بالقلب، لكنني أعرف تشيفيريين معمرين يشربونه دون أن يشعروا بأي شيء.

أخذ سيفوتشكا بلعة من القدح المقدم إليه.

مسحت نظرة ناعوموف السوداء الثقيلة جميع المتحلقين حوله. تشربك الشعر على رأسه. بلغتني نظرته وتوقفت عندي. فكرة ما لمعت في دماغ ناعوموف.

ـ هيا، تحرك.

خرجت إلى الضوء

ـ إنزع السترة.

بات كل شيء واضحاً. انتظر الجميع نتيجة محاولة ناعوموف.

كنت أرتدي تحت السترة قميصاً داخلياً حكومياً فحسب، أما السترة فاستلمتها منذ عامين وقد اهترأت من زمان. لبستها من جديد.

ـ تعال أنت. قال ناعوموف مشيراً بإصبعه إلى غاركونوف. خلع غاركونوف سترته و شحب وجهه.

كان يرتدي تحت القميص الداخلي المتسخ كنزة صوف، كانت آخر مااستلمه من زوجته قبل أن يرحل في طريقه الطويل، وكنت أعرف، كيف كان

غاركونوف يصونها ـ كان يغسلها في الحمام، وينشفها على جسده ولايتركها دقيقة واحدة بعيدة عن يديه، فلو لم يفعل لسرقها رفاقه في اللحظة.

ـ مابك، هيا اخلعها.

حرّك سيفوتشكا إصبعه مؤيداً. كانت الألبسة الصوفية تقدر، هنا، عالياً. فإذا ماغُسلت هذه الكنزة ونُظّفت من القمل، يمكن أن يلبسها سيفوتشكا بنفسه، فالرسمة عليها كانت جميلة.

ـ لن أخلعها ـ قال غاركونوف محشرجاً ـ إلا مع جلدي...

هجموا عليه وطرحوه أرضاً.

ـ إنه يعض. صرخ أحدهم.

نهض غاركونوف عن الأرض يبطء ماسحاً بكمه الدم عن وجهه.

في هذه اللحظة قام ساشكا خادم ناعوموف، ساشكا ذاته الذي صب لنا من ساعة فقط «الحساء» مقابل الحطب، قام وسحب شيئاً ما من ساق جزمته ثم هوى به علىغاركونوف. نشج غاركونوف وبدأ يهوي على جنبه.

ـ ألم يكن بالإمكان، دون ذلك؟ صرخ سيفوتشكا.

كان يمكن في ضوء مصباح البنزين الخافت رؤية وجه غاركونوف وهو يزرق.

مَدَّ ساشكا يدي القتيل، مزّق قميصه الداخلي، وسحب الكنزة عبر رأسه.

كانت الكنزة جميلة، وبالكاد كان الدم يلاحظ عليها.

ضب سيفوتشكا الكنزة في حقيبته الكرتونية بعناية كيلا يلطخ أصابعه بالدم.

انتهت اللعبة وبات بإمكاني العودة إلى براكتنا. عليّ الآن أن أبحث عن شريك آخر لتقطيع الحطب.

«الإغماءة»

تأرجح الجدار. امتلأ حلقي بدفق غثيان حلو مألوف. ماج عود الثقاب المشتعل أمام عيني على الأرض ألف مرّة ومرّة. مددت يدي لألتقط هذا الذي أثار أعصابي فاختفى... لم أعد أرى شيئاً. لم تهجرني الحياة عن آخرها بعد، فما زلت اسمع ذلك الصوت البعيد الملحاح، صوت الممرضة. تراءت لي أرواب بيضاء، زاوية مبنى.. سماء زرقاء ملأى بالنجوم، ثم ظهرت سلحفاة رمادية عملاقة، تلمع عيناها بلا مبالاة. واحد ما كسر ضلع السلحفاة فانحشرت في وكر بينما تدليت أنا على يدي، متشبثاً بهما، واثقاً فيهما فحسب.

تذكرت الأصابع الواثقة التي أرقدتني على السرير واضعة رأسي وكتفي في وضعية مريحة. لقد همد كل شيء، وها أنا وحدي مع شخص عملاق كغوليفر[65]. تمددت على لوح الخشب مثل حشرة صغيرة، بينما كان شخص ما يفحصني تحت العدسة باهتمام بالغ. تقلّبت، فتتبعت العدسة الرهيبة حركة جسدي. تكورّت تحت زجاج العدسة المريع. وفقط... فقط بعد أن نقلني الممرضون إلى سرير المرضى، وخيّم علي نعيم هدوء العزلة، فهمت أن عدسة غوليفر المرعبة تلك، لم تكن سوى نظارات الطبيب المناوب. أفرحني اكتشافي هذا فرحاً لا يوصف. آلمني رأسي، ورحت أشعر بالدوار عند أقل إمالة له. كان يجب ألا أفكر بأي شيء. يمكنني أن أستعرض ذاكرتي لا أكثر. ها هي ذكريات الماضي المهولة تظهر أمام عيني كمشاهد من فيلم صامت، شخصياته ملونة بلونين. لم يفارقني شعوري بالغثيان الحلو، الشبيه بمخدر عطري، بعد. كان هذا الاحساس مألوفاً، وكان لغزه محلولاً من قبلي. تذكرت يوماً من أيام الشمال الغابرة حين

أعلنوا أول مرة بعد ستة أشهر من العمل المتواصل بلا استراحات ولا انقطاع يوم عطلة. كم تمنى كل واحد منا آنذاك أن يستلقي ويسترخي، أن يرفو ثيابه، ألّا يتحرك إلى أي مكان... لكن ما أن انبلج الصباح حتى أيقظونا جميعاً وقادونا لجلب القرم، من موقع يبعد مسافة لا تقل عن ثمانية كيلومترات عن المعسكر. فكرت باختيار قرمة أقدر على حملها ونقلها إلى المعسكر. قلت لنفسي سأذهب جانباً فهناك على بعد كيلومترين يرقد مكدس جذوع قديمة، ولابد من أن أعثر بينها على قرمة تناسبني.

كان تسلق التل مرهقاً، وحين وصلت إلى مكدس الجذوع لم أعثر بينها على جذع خفيف، أما في أعلى التل فكانت الجذوع الملقاة جنباً إلى جنب على الأرض قد اسوّد لونها. رحت أصعد نحوها، كانت هناك جذوع رفيعة، لكن نهاياتها كانت محصورة تحت ثقل المكدس، فلم تسعفني قواي في إخراج أي منها. حاولت مراراً سحب واحدة ما من بينها لكنني سلمت بعجزي في آخر المطاف. لكنهم لا يسمحون بالعودة بلا حطب. جمعت ما تبقى لدي من عزم. تسلقت إلى أعلى نحو مكدس آخر للجذوع مغطى بالثلج. هناك أعملت يدي وقدمي طويلاً في جرفِ وإبعادِ الثلج الهش الصّرار المتراكم عليها، وأخيراً تمكنت من سحب واحد من الجذوع، إنما كان أثقل مما أستطيع حمله. نزعت منشفتي المتسخة، التي استخدمها كشال نزعتها عن عنقي، وربطت بها رأس الجذع، وبدأت أجرّه إلى أسفل. صار الجذع يقفز ويخبط قدمي من الخلف حيناً، وينقلب ويتدحرج على السفح متجاوزاً قدرتي على ملاحقته، منحشراً في أجمة ما في الطريق، أو منغرزاً في عمق الثلج حيناً آخر. فأهبط إليه من جديد، وأرغمه على الحركة.

كنت لا أزال في أعالي منحدر التل، حين لاحظت أن العتمة بدأت تسدل ستارتها، فهمت أن ساعات طوال قد مضت، والطريق إلى المعسكر طويل بعد. أحكمت شد الشال، فبدأ الجذع ينصاع منجراً إلى أسفل، سحبته إلى الطريق. بدأت أشجار الغابة تميد أمام ناظري، غثت نفسي بدفق حلو، فتحت عيني في غرفة عامل الرافعة الذي فرك وجهي ويدي بالثلج الوخّاز.

ذلك كله يتراءى لي الآن على حائط المشفى، لكن يدي يمسك بها طبيب لاعامل الرافعة، وإلى جانبه جهاز قياس ضغط الدم. الآن فهمت أنني لست في الشمال وفرحت.

أين أنا؟

ـ أنت في معهد الأمراض العصبية.

سألني الطبيب عن شيء ما. بالكاد تمكنت من الرد عليه، فأنا أريد البقاء وحيداً، إنني لا أخشى الذكريات.

هوامش (للمترجم)

1» فيشيرا. موسكو، دار الكتاب،،60 1989ص. بالروسية. الصفحة 9.

2» فيشيرا: ص 48 - 49 - 53 - 54

3» مثل شعبي روسي

4» قضية تتاريا الكبرى: أطلق النظام الستاليني على الشعب االتتري تهمة (الشعب الخائن) ونفي شعب القرم التتري بكل أفراده من الطفل الرضيع إلى العجوز إلى سيبيريا. حمّل الشعب ليلاً في عربات دون إنذار سابق ودون إعطاء الناس فرصة لأخذ الحد الأدنى من حاجياتهم وهم يرحّلون من منطقة دافئة إلى منطقة باردة جداً. مات معظم الناس في منفاهم الزمهريري الشمالي، وقد ترافق ذلك مع حملة اعتقالات وإعدامات واسعة. إزاحة الشعوب واستبدالها بأخرى سمة أساسية من سمات النظام الستاليني.

5» مذكرات من بيت الموتى: من مؤلفات دوستويفسكي ف.م. (1821 - 1881). في عام 1849 اعتقل دوستويفسكي وحكم عليه بالإعدام، ثم استبدل الحكم قبل تنفيذه بخمس دقائق بالأشغال الشاقة (1850 - 1854) والخدمة بعدها كجندي. عاد إلى بطرسبورغ عام 1859 ونشر عن تجربة إعتقاله «مذكرات من بيت الموتى» 1861 - 1862».

6» نُصّب على كل مجموعة من المعتقلين السياسيين واحد من المحكومين بجنايات لإذلالهم وتعذيبهم.

7» كانت مثل هذه التسميات (فانيشكا، سينيوتشكا) تطلق في المعتقلات على اللصوص والجناة.

8» فيتوس يوناسين بيرينغ (1681 - 1741) دانمركي الأُصل. ضابط بحار في

الأسطول الروسي قاد بعثتي كامتشاتكا الأولى والثانية (1725 - 1730؛ 1733 - 1741) عبر بين رأس تشوكوتيا وآلاسكا وصل إلى أمريكا الشمالية واكتشف العديد من الجذر الآليوتيه Aleutian Islands. سمي باسمه بحر ورأس وجزيرة.

9) أخيل وهيكتور أبطال حرب طروادة (القرن 15 ق.م) الموصوفة في (الياذة هوميروس) (القرن 9 - 8 ق.م) صرع أخيل بطلُ الملحمة الرئيس في مبارزة هيكتور بن ملك طروادة بريام منتقماً لمقتل صديقه، بعد ذلك تمكن باريس بن بريام من قتل أخيل بسهم أصابه في عقب قدمه.

10) اوسفينيستيم: مدينة بولونية اقام فيها النازيون معتقلاً في فترة الحرب العالمية الثانية، أعدم فيه بالغاز أكثر من أربعة ملايين إنسان.

11) المقصود كوكب المشتري.

12) كاليما: منطقة شمال شرق سيبيريا، مساحتها 643 الف كم،2 منفى المعتقلين السياسيين، معسكر للاشغال الشاقة

13) (كونت مونت كريستو): رواية ذائعة الصيت للكاتب الفرنسي الكسندر دوما 1802 - 1870 م.

14) ستندال: الاسم الحقيقي - هنري ماري بييل 1783 - 1842م. كاتب فرنسي شهير، كتب الكثير عن الحب، من كتبه الشهيرة، مجموعة قصص (اسفار ايطالية) رواية الأحمر والأسود.

15) تشيلليني - المقصود: كيلليني بينفينوتو 1500 - 1571 م. نحات ايطالي، مؤلف المذكرات الشهيرة عالمياً.

16) الـ 58 - هي المادة 58 من قانون العقوبات، الخاصة بالتآمر على الثورة و خيانة الوطن، والتي استخدمت بصورة واسعة في فترة ستالين ضد فئة المثقفين خاصة.

17) ساشا، شورا: اسم دلع من الكسندر، كذلك شورا اسم دلع من الكسندر ويستخدم الروس أيضاً كلمة سانيا في الإطار نفسه.

18) سيرانو، روكسانا، كريستيان - ابطال دراما (سيرانو دي بيرجيراك) 1897م المتصدي لعالم الدناءة والخسة والهمجية.

19) آنا كارينينا بطلة رواية تولستوى الشهيرة (آنّا كارينينا).

20) تيوتشيفي: نسبة إلى الشاعر الروسي فيودور إيفانوفيتش تيوتشيف (1803 - 1873)، وهو شاعر روسي رومانسي. ولد تيوتشيف في عائلة من حاشية القيصر في اوفستوغ بمقاطعة أورلوف، وحصّل تعليمه في جامعة موسكو، وعمل بعد إنهاء الدراسة في السلك الدبلوماسي، وعاش سنوات عديدة خارج البلاد، وكان عضواً مراسلاً في أكاديمية بطرسبورغ للعلوم (1857). تيوتشيف مؤلف الرباعية الشهيرة المعروفة من قبل كل روسي:

روسيا لاتدرك بالعقل

ولا تقاس بالأرشين

روسيا وقفة كبرياء

فلتقل لروسيا آمين.

21) بلوك: الشاعر الروسي الكسندر الكسندروفيتش بلوك (1880 - 1921). ولد الشاعر الروسي الكبير بلوك في عائلة ذات ثقافة عالية في بطرسبورغ؛ كان والده بروفيسوراً في الحقوق، وأمه ابنة رئيس جامعة بطرسبورغ. درس أولاً في كلية الحقوق، ومن ثم في كلية الآداب والتاريخ في جامعة بطرسبورغ. بلوك شاعر غنائي، لشعره طابع ابتهالي أسطوري يتغنى بالقيم الوطنية والإنسانية. قال مكسيم غوركي فيه: «إنه إنسان الحقيقة التي لاتعرف الخوف». من أعماله: قصائد في السيدة الرائعة (1904)، الماجن (1906)، المدينة (1904 - 1908)، مجموعة العالم المخيف (1908 - 1916)، دراما الزهرة والصليب (1912 - 1013)، مجموعة التفعيلات (1907 - 1914)، العقاب (1910 - 1921)، الوطن (1907 - 1916)، قصيدة الانتلجينسيا والثورة (1918)، إثنا عشر (1918).

22) سيرغي الكسندروفيتش يسينين (1895 - 1925): ولد يسينين في قرية كونستانتينوفو في مقاطعة ريزان في أسرة فلاحية فقيرة. كتب الشعر منذ طفولته، وهو شاعر غنائي قصائده مفعمة بحس الانتماء الوطني والعمق الروحي. قال فيه مكسيم غوركي: «سيرغي يسينين ليس إنساناً بمقدار ما هو كائن خاص خلقته الطبيعة فقط ليكتب الشعر». يسينين من أحب الشعراء إلى قلب الشعب الروسي. من أعماله: عيد رادونيتسا (وهو عيد وثني يحتفل به

السلافيون الشرقيون في الربيع ويتذكرون فيه أسلافهم) (1916)، كتاب صلوات القروي (1918)، موسكو الخمارات (1924)، الرجال السود (1925)، أغنية عن الـ 26 (1924)، مجموعة روسيا السوفيتية (1925)، آنّا سنيجينا (1925)، ماتيفات فارسية (1925)، والقصيدة المغناة الشهيرة جداً (رسالة إلى أمي)، وغيرها. شَكّل يسينين في أعوام 1919 - 1923 مع مارينغوف، و شيرشينيفيتش، وكوسيكوف مجموعة التخيليين. أنهى الشاعر حياته وهو في أوج عطائه وشهرته.

23» فلاديمير فلاديميروفيتش ماياكوفسكي (1893 - 1930): ولد الشاعر في جورجيا وكان والده مراقب غابات هناك، حصّل تعليمه المدرسي في إحدى مدارس موسكو وقد جذبه العمل الثوري منذ صغره، كما مارس كتابة الشعر في سن مبكرة. تلاحظ في قصائد ماياكوفسكي المبكرة مواقفه المناصرة بشدة للثورة الاشتراكية والمعادية بحدة للرأسمالية. اعتقل الشاعر أثناء حياته ثلاث مرات. من أعماله: غيمة في السروال (1915)، ناي العمود الفقري (1916)، رجل (1916 - 1917)، مسرحية البقة (1928)، مسرحية الحمّام (1929)، مجموعات قصائد: أحب (1922)، عن هذا (1923)، علاقة حميمة بالخيول (1924)، إلى يسينين (1924)، فلاديمير إيليتش لينين (1924)، جيّد (1927)، ملء صوتي (1930). يعد ماياكوفيسكي من أوائل المحدثين في بنية الشعر الروسي وقد ترك أثراً هاماً في الحداثة الشعرية فيما بعد. أنهى حياته شاباً ومازالت الأسباب موضع جدال حتى الآن في الأوساط الأدبية.

24» نتاليا شيريميتيفا - دولغوركوفا (1714 - 1771): نتاليا هي ابنة أحد أعوان بطرس الأول الفلد مارشال بوريس شيريميتوف، الذي ورد اسمه في قصيدة الشاعر الروسي الكبير الكسندر بوشكين «بولتافا». ولدت نتاليا في 17 شباط من عام 1714 في منزل على ضفة فانتانكا (أحد فروع نهر النيفا في بطرسبورغ) وقد ورد ذكر هذا المبنى لاحقاً على لسان الشاعرة الروسية آنّا أخماتوفا تحت اسم «قصر فانتانكا». ما أن بلغت نتاليا الخامسة من العمر حتى توفي والدها، وفي عمر الرابعة عشرة أطبق عليها الظلام بوفاة والدتها. كانت نتاليا في هذه الأثناء قد حصّلت تعليماً جيداً: «جعلت عقلي يأسر شبابي -

كتبت نتاليا في مذكراتها ـ تحكمت برغباتي معتقدة أن يوماً سيأتي تتحقق فيه هذه الرغبات». بمرور عام على وفاة والدتها أعلن عن خطوبتها على أحد الشباب المقربين من القيصر الروسي بطرس الثاني. كان العريس شاباً وسيماً في العشرين من عمره وهو الأمير إيفان دولغوروكوف، ولكن بمرور أشهر قلائل على خطوبة نتاليا مات القيصر بطرس الثاني، وبنتيجة ذلك تغيرت أحوال عائلة دولغوروكوف التي كانت مقربة إلى القصر، ومع ذلك تزوج العروسان الوفيان وكانت النتيجة أنه بمرور ثلاثة أيام على زواجهما (في الثامن من نيسان) صدرت أوامر من القيصرة آنّا إيوانوفنا بنفي جميع أفراد عائلة دولغوروكوف إلى بيريزوف. لم تترك العروس زوجها يذهب من دونها فرافقته إلى منفاه (كان في هذه الأثناء منشيكوف ن، د. يقضي حكماً بالنفي هناك). عاش الزوجان المنفيان في بيريزوف ثماني سنوات، نقل بعدها إيفان بأمر من القيصرة آنّا إيوانوفنا إلى توبولسك، ومن هناك إلى نوفجورود حيث حكم عليه بالإعدام وأعدم، وكانت نتاليا قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها. بمرور ثلاث سنوات على ذلك عطفت عليها القيصرة الجديدة إيليزوفيتا وسمحت لها بالعودة إلى موسكو حيث عاشت نتاليا حياة متواضعة، وقامت على تنشئة اطفالها. بعد ذلك انتقلت إلى كييف وترهبنت في دير «فلوروفيسكي ـ أو كما يسمى حالياً نيكتاريا» وهناك دوّنت سيرتها الذاتية على شكل مذكرات. كتب الشاعر الروسي نيكراسوف في قصيدته» نساء روسيات»:

ليكن مرمر القبور أطول عمراً
من صليب خشبي في الصحراء
فقد كُتب لدولغوروكوفا البقاء.

وقد ربط الشاعر نيكراسوف اسم هذه المرأة بالتضحية الحقيقية بالنفس، وحتى الآن في دير كييفو بيتشيرسكي يتجاور تابوتان من الفولاذ: واحد لنتاليا والثاني لابنها ديميتري. (من كتاب «روسيات شهيرات». دار بانوراما، موسكو، 1991. بالروسية).

25» بلاغة الواعظ تولستوي ومواعظ دوستويفسكي الثرة: من المعروف أن الكاتب الروسي ليف نيقولايفيتش تولستوي (1828 ـ 1910) ترك في سنوات حياته

الأخيرة الكتابة الروائية وتفرغ للمواعظ الأخلاقية والدينية مروّجاً لفكرة عدم التصدي للشر بالشر بل بفعل الخير. كانت مواعظ تولستوي وما زالت محط جدل الفلاسفة والمفكرين. يكتب إيغورسميرنوف في مقدمة كتاب «بديهيات التجربة الدينية» لمؤلفه الفيلسوف الروسي إيفان الكسندروفيتش إيليـن (1883 ـ 1954): «المعتقدات الفلسفية لليف تولستوي حول مَسألة الأخلاق هي إلى حد ما كخط تقسيم الماء، المتسبب لسنوات عديدة في خلافات في تطور فلسفة الفكر الروسي. تقبّل بعضهم من جهة استنتاجات الواعظ العظيم بالكلّية والتمام، ولم يجد الآخرون إمكانية الموافقة على تعميم الاستنتاجات المستخلصة من تحليل حياته الخاصة ذاتياً على حيوات جميع الناس، ويبقى حتى الآن السؤال عن دور وأهمية المنطق التولستوفي إشكالياً وغير محلول. لقد أسأمت إيلين الحجج العقلية لمذهب تولستوي ومن دون أن يعترض على فكرة إصلاح الذات، لم يستطع الموافقة على دور النبي والفاضح لكل الآثام الذي أخذه على عاتقة الكاتب. وقد كتب إيلين مثمناً قدر تولستوي من هذه الناحية: إنه يعد من دون شك واحداً من أروع رافعي ورقة الضمير في القرن التاسع عشر، ومع هذا يمكن القول، بثقة، لو أنه بقي عند حدود الذاتي، والفردي، ولم يقدم النظريات عن (العام)، وعن الوصفات العظيمة لخلاص جميع البشر من جميع الشرور والرذائل، لما وصل إلى ذلك المذهب الشاذ، والمتناقض، واللاعملي، والمعادي للثقافة، المسمى بـ (التولستوفية»).

وهنا يريد شالاموف من الإشارة إلى مواعظ تولستوي وضع حد فاصل قاسٍ بين الحياة العامة التي تسمح في إطارها بتقديم النصائح والمواعظ وبين حياة المعتقل التي لاتتيح أية فرصة لتقديم النصائح حول التسامح والغفران والرحمة..... ينسجم موقف شالاموف مع وجهة نظر دوستويفسكي (1821 ـ 1881) التي تقول بأن ليس هناك فكرة ولا غاية تبرر شقاء وعذاب الناس لتحقيقها وهنا تسقط فكرة المصالحة التي يتبناها تولستوي.

يقول دوستويفسكي في رواية «الأخوة كارامازوف» مدافعاً عن فكرة عدم التضامن في التكفير عن الخطايا وأن على كل واحد أن يدفع ثمن خطيئته التي اقترفها: «...حين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين (أنت

على حق يارب وقد فهمنا طرقك!) سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذٍ من خلال دموع الحنان: (أنت على حق يارب)، ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم تمجيد المعرفة. ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأنني لاأستطيع أن أقبل حلاً كهذا الحل. وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات مازالت في هذا العالم. قد يحدث يا أليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة أو حين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصيح مع الجميع إذ أرى الأم والجلاّد والطفل يتعانقون ويتصالحون: (أنت على حق يارب!) ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك عندئذٍ، وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام، ولهذا السبب تراني أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى. إن هذا الإنسجام لايعادل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب حتى الموت، الذي كان يلطم صدره بقبضتي يديه في مكان موبوء ويتضرع إلى الله الرحيم من خلال دموعه التي لايكفّر عنها شيء! نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها، وإلا فلا يمكن أن يقوم انسجام، ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ وهل هذا ممكن؟ أهو القصاص الذي سينزل بالجاني؟...» (المجلد الأول ص 518 - 519 بالعربية).

على خلفية محاكمة دوستويفسكي تبدو فلسفة التسامح التي يدعو إليها تولستوي مبنية على تعميم الأنا (الدعوة إلى التسامح عندما لايكون هناك مايثير الحقد، تمجيد الجوع من قاعدة الشبع، تمجيد الإيمان من قاعدة الشك..) فتحول تولستوي إلى واعظ ديني ومعاشرته لبسطاء الناس ليست أكثر من رغبة متفرج بالدخول إلى الشاشة والتعرف على شخوص لعبة الفيلم. ولذا تلاحظ اللهجة الساخرة قليلاً من قيمة تلك المواعظ عند شالاموف الذي كان بطل أفلام الإضطهاد والموت.

26» بيريوزوف: مدنية في سيبيريا تأسست في القرن السادس عشر. منذ القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين كانت منفى للمعتقلين. تقع هذه المدينة على مصب نهر أوبيسوسوفا غير بعيد عن الدائرة القطبية الشمالية.

27» بحر أوخوتسكي: حوض بحري تابع للمحيط الهادي مساحته 1583 كم2 تقع على شاطئه مدينة ماغادان التي تحتوي على المعتقلات الشهيرة ومواقع

الإعدام (يتكرر ذكر ماغادان في مواقع عدة من قصص شالاموف).

28» إيفان الرهيب: إيفان الرابع بن فاسيلي غروزني (1530 - 1584). أول قيصر روسي (كان الحاكم يدعى أميراً قبل عام 1547). أدخل مايسمى ب» أوبريتشينا» وهو نظام إجراءات سياسية لمكافحة ما يسمى بالخيانة، وسمح بالاعتقالات الجماعية، والتعذيب، والإعدامات، ومصادرة الأراضي والأملاك. اكتسب إيفان لقب الرهيب من ممارساته القمعية الرهيبة.

29» الملازم الثاني كيجي: قصة للكاتب طينيانوف تدور حول اسم لا وجود له سجل خطأ في سجلات العسكريين برتبة ملازم ثانٍ، وخصص كبقية العسكريين بتعيينات، ونقل، ورقي، وشارك في معارك حتى وصل إلى رتبة جنرال وهو موجود على الورق فقط. أما طينيانوف فهو الكاتب الروسي يوري نيكولايفيتش طينيانوف (1894 - 1943) الذي كتب عدة أعمال نقدية وروايات تاريخية وبيوغرافية (عن بوشكين وغريبوييدوف..). تخرج من جامعة بطرسبورغ وعمل هناك في قسم الأدب الروسي.

30» باقل: المقصود باقل الأول (1754 - 1801)، ابن كاترينا الثانية وبطرس الثالث. أدخل في فترة حكمه نظام الاستخبارات العسكرية إلى روسيا على نمط ما كان سائداً في الجيش الروسي. قتل خنقاً في قصره (قصر ميخائيلوفسكي - حالياً المتحف الروسي).

31» الكسندر سيرغيفيتش بوشكين (1799 - 1837): كبير شعراء روسيا وأحبهم إلى قلب الروس، وهو مؤسس اللغة الأدبية الروسية. ولد الشاعر والكاتب الروسي العظيم الكسندر بوشكين في موسكو، وهو حفيد من جهة الأم لابراهيم هانيبعل الاثيوبي الأصل. حصّل بوشكين تعليمه في مدرسة ضيعة القياصرة التابعة للقصر الصيفي (قصر كاترينا)، وقد سمي هذا المنتجع الصيفي لاحقاً باسم بوشكين وهو يقع في ضواحي بطرسبورغ.

نفي بوشكين جرّاء كتاباته المناصرة للحرية مرتين: الأولى إلى جنوب روسيا، والثانية إلى قرية ميخائيلوفسكايا. كل ما كتبه بوشكين يعد من التحف الأدبية العالمية. صار يطلق على روايته الشعرية (يفغيني أونيجين) تسمية (موسوعة الحياة الروسية). من أعماله: الأسير القوقازي (1820 - 1821)، نافورة باختشيساراي

(1823)، بوريس غودونوف (1825)، يفغيني أونيجين (1823 - 1831)، الفارس النحاسي (1833)، مصير رجل صغير، وقصص بيلكين (1830)، بنت الكبة (1833)، والتراجيديات الصغيرة: موزارت وساليري، وضيف من حجر، والكثير من الحكايات الشعرية والقصائد الغنائية. مات بوشكين في مبارزة وهو في أوج عطائه.

32» الكسندر إيفانوفيتش كوبرين (1870 - 1938): ولد هذا الكاتب الروسي في عائلة موظف فقير قرب مدينة بينزا. لمؤلفات كوبرين طابع اجتماعي عميق فهي تتناول حياة مختلف طبقات المجتمع في القرن التاسع عشر. مع قيام ثورة أوكتوبر (1917) غادر روسيا وبقي في المهجر 20 عاماً. عاد قبل وفاته بعام وقد اشتد عليه المرض ليموت في روسيا، وقد كان نتاجه في المهجر قليلاً. من أعماله الشهيرة: مولوخ (1896)، أليسيا (1898)، نزال (1905)، سولاميف (1908)، الحفرة (1909 - 1915)، عقد الرمان (1911)، نجمة سلمون (1917)، وغيرها.

33» كاليمكا: مصباح يصنع في المعتقلات ويستخدم فيها. يعمل على أبخرة البنزين.

34» ن.ك.ف.د.: الحروف الأولى من (قوميسارية الشعب للشؤون الداخلية) (وزارة الداخلية).

35» سميرتين: كنية مشتقة من الكلمة الروسية (سميرت) وتعني (الموت).

36» باباخا: قبعة قوقازية من فرو الحملان الصغيرة، أما في الجيش فهي شتوية خاصّة بالضباط القادة.

37» غراب: «فورون» تسمية تطلق على السيارات الباص الصغيرة، (الجيب واز) تسمى مثلاً «كوزيول»، أي التيس.

38» باراشا: تنكة أو سطل يستخدم بمثابة مرحاض في الزنزانة.

39» الروبل الطويل: يقولون في روسيا ذهب لتحصيل روبله الطويل وهنا يقصد السفر في رحلة طويلة إلى مناطق نائية يمكن فيها جمع المال، أو جمع المال ربما بطريق نصف شرعي.

40» الشيفير: شاي عالي التركيز جداً.

41» س.ب.و: الأحرف الأولى من القسم السياسي الخاص (الأمن السياسي).

42» ليزول: مادة تستخدم في التعقيم.

43» غالوشكي: أكلة أوكرانية تصنع من كرات عجين محشوة بالجبن تسلق في الماء. أما في المعتقل فتصنع من العجين فقط الذي يسلق في الماء ويقدم مع مرقه.

44» كاليغولا: إمبراطور روماني (12 ـ 41 م) والد الإمبراطور غاي، معروف في التاريخ كرمز للقسوة الوحشية. كوى الناس بالحديد الحامي، وألقى بهم لتفترسهم الوحوش الضارية الجائعة في الأقفاص أحياء، أرغم الآباء على حضور طقوس إعدام اطفالهم وزوجاتهم. أعدم ضحاياه ببطء. كان يأمر بالضرب بقسوة حتى يشعر المضروب بالموت. قُطع كاليغولا إنتقاماً بأنصال السيوف، وقُتلت زوجته ثم ابنته وأحرق قصره. حكم ثلاثة أعوام فقط قتل خلالها آلاف الناس بوحشية.

45» غافريل ديميانوفيتش ديرجافين (1743 ـ 1816) من شعراء البلاط الكلاسيكيين. ولد في قرية قريبة من قازان على نهر الفولغا، وخدم جندياً عشر سنوات ومن ثم ضابطاً في الجيش القيصري في بطرسبورغ. بعد ذلك شغل منصب محافظ المدينة، ومن ثم السكرتير الخاص للقيصرة الروسية كاترينا الثانية، وفي عهد القيصر الروسي الكسندر الأول صار وزيراً للعدل. كتب قصائد المديح للعائلة القيصرية. من أشهرها قصيدة» فيليسا» (1782) لكاترينا الثانية، كما كتب قصائد غنائية للمناسبات. كانت معظم قصائد ديرجافين وطنية حماسية تعكس الحياة الروسية في القرن الثامن عشر. من أعماله الأخرى: صاحب المقام (1774 ـ 1794).

46» ويسماني: نسبة إلى عالم الأحياء الألماني أوغوست ويسمان (Weismann .A) (1834 ـ 1914) الذي طرح فرضية حمل الصبغيات للصفات الوراثية وتوريثها (دون أن يثبت ذلك تجريبياً)، ثم أثبت توماس مورغان (1866 ـ 1945) الذي شغل بين عامي (1927 ـ 1931) منصب رئيس أكاديمية العلوم في الولايات المتحدة، تجريبياً نظرية الصبغيات وصحة قوانين مندل (1822 ـ 1884) الوراثية.

أما في الإتحاد السوفيتي فقد اعتبرت ولفترة طويلة منجزات العلماء المذكورين أعلاه نزعات علمية امبريالية كاذبة (مندليه، ويسمانيه، مورغانيه: نسبة إلى العلماء). وبالتالي تم التعامل مع العلماء السوفييت المتبنين لقوانين مندل ونظرية الصبغيات كمجرمين سياسيين: طردوا من الجامعات والمعاهد البحثية، اعتقلوا وأعدموا (كعالم الوراثة الشهير فافيلوف)، هجّروا من البلاد، (هناك كتاب هام يتحدث عن ذلك هو» الأرواب البيضاء» لمؤلفه فلاديمير دوديتسيف، الصادر عن دار الكاتب السوفيتي عام 1988 باللغة الروسية).

في آب (أغسطس) عام 1948 عقد في روسيا المؤتمر الشهير (بمؤتمر آب)، الذي طرح فيه ليسينكو (1898 ـ 1976) بالاتفاق مع ستالين نظريته المسماة ب «تعاليم ميتشورين». وقد فرملت هذه النظرية المطروحة من قبل ليسينكو طيلة سنوات تطور علوم الأحياء (وبخاصة الوراثة) في الإتحاد السوفيتي. ولم يتحرر علم الوراثة من تأثير ليسينكو، ويسير في المنحى الطبيعي الذي سار عليه في العالم إلا بعد أن قام خروشوف بإعلان موقفه من الستاليتيه (وعبادة الفرد).

ويجب التنويه إلى أن مربي النبات الروسي ميتشورين (1855 ـ 1935) لم يعارض كما ادعى ليسينكو قوانين مندل أو نظرية توريث الصفات التي كانت أساساً لإنتاجه أكثر من 300 صنف جديد من الفاكهة.

47» فيزيولوجيا: علم وظائف الكائنات الحية وأعضائها

بيولوجيا: علم الأحياء

ميكروبيولوجيا: علم الأحياء الدقيقة.

48» تروتسكّي: نسبة إلى ليف دافيدوفيتش برونشتين (1879 ـ 1940) الملقب بتروتسكي. وهو قائد شيوعي أسهم مساهمة فعّالة في التحضير لثورة أكتوبر في روسيا. شغل في فترة مابعد الثورة (1917 ـ 1927) مناصبَ عليا عسكرية وحربية في حكومة الإتحاد السوفيتي، وعمل «كما جاء في كتاب (المستشار السري للزعيم) لمؤلفه فلاديمير أوسبينكسي» بنشاط على تسليم المواقع الهامة في الدولة لليهود (كانت القوميسارية الحربية «وزارة الدفاع» بقيادته تضم خمسة وثلاثين مسؤولاً، أربعة وثلاثون منهم يهود، والخامس والثلاثون لاتفي، ولم يكن فيها أي روسي). تضاربت آراؤه الفكرية والسياسية مع سياسة لينين، فقام

بتنظيم كتلة حزبية مضادة للينينية وقد طرد جراء ذلك من الإتحاد السوفيتي عام 1929. أمضى سنوات عمره الأخيرة في المكسيك وهناك اغتيل بتعليمات من ستالين بعد ملاحقات طويلة ومحاولات عديدة فاشلة.

49» كوسموبوليتي: من الكلمة اللاتينية Kosmopolites وتعني (مواطن عالمي). لكن ظهرت نزعة الكوسموبوليتية مع ظهور نزعة السيطرة على العالم (الكسندر المقدوني، والصليبيون)، أما في العصر الحديث فتعبر عن إيديولوجيا تجاوز الخصوصيات الوطنية والقومية بما في ذلك ثقافة بعض الشعوب ولكن لصالح شعوب أخرى. وقد استغل اليهود جيداً فكرة (المواطن العالمي أو الشعب العالمي) على حساب ثقافات الشعوب الأخرى.

50» دال ستروي: مختصرات لكلمتي (البناء البعيد)، والمقصود هنا أعمال الاستثمار والإنشاء في المناطق النائية كشمال وشمال شرق سيبيريا ذات الظروف المناخية القاسية جداً. ومع أن الكثير من الناس يذهبون للعمل هناك لقاء أجور مضاعفة، إلاّ أن اليد العاملة الأساسية هناك مجانية، إذ تستغل قوة عمل المعتقلين بصورة جائرة كما كان يستغل العبيد، مع فرق هام وهو أن مالك العبيد كان يحرص على حياة عبيده لتحقيق الغاية الإنتاجية، أما هنا فيمكن استبدال المعتقلين (العبيد) الأموات بأحياء بأوامر من أعلى. ولا عجب أن العديد من الكتابات والأعمال الفنية تحدثت عن هذا الجانب بالذات الذي يعكس حقيقة اعتقال المزيد من الناس لتحقيق غاية إنتاجية، إضافة إلى الغايات الأخرى.

51» المذهب القديم: يعبر عن التمسك بالدين بالشكل الذي اختاره الأمير فلاديمير (؟ - 1015) أمير نوفغورود ومن ثم كييف، وأدخله إلى روسيا عام (988 - 989) في مواجهة الإصلاح الديني (الانقسام الديني الكبير) الذي بدأه البطريرك الروسي نيكون (نيكيتا بن مينا) (1605 - 1681) في عهد القيصر الكسي بن ميخائيل (1629 - 1676) ومع أن الكنيسة لم تحتج لاعتماد الطقوس الجديدة سوى ثلاث سنوات (1653 - 1656) إلاّ أن التصفيات الدموية الكبيرة التي نتجت عن ذلك استمرت حتى عام 1906 وكانت ذات نتائج مدمرة على روسيا، ولم تكن ناجمة عن تعصب ديني أصولي بمقدار ما كان لها بعدها القومي، إذ أن جوهر الإصلاح كان يعني إضعاف دور الكنيسة في إدارة شؤون

الدولة، وظاهره تصحيح الأخطاء في المؤلفات الدينية قياساً بالأصلية وتعديلات في طقوس العبادة (وضع أصابع اليد أثناء رسم إشارة الصليب، طريقة أداء الصلاة، مدة الصوم، اللباس،...)، وأي إضعاف للديانة بشكلها القديم كان يعني تسهيلاً لانتشار اليهودية وتعزيزاً لمواقع اليهود في روسيا، ولذلك هناك من يقول بأن عام 1653 كان الخطوة الأولى باتجاه عام 1917 ونحن نجد لو راجعنا كتاب (المستشار السري للزعيم لمؤلفه فلاديمير أوسيبنسكي الدور الكبير الذي لعبه اليهود في مرحلة ما بعد ثورة أكتوبر 1917)، وهذا موضوع يحتاج لبحث آخر طويل.

المهم أن المتمسكين بـ (المذهب القديم) أتباع القسيس والكاتب أفاكوم بن بيتروفيتش (1621 ـ 1682) (لم تكن هناك كنيات في روسيا في القرن السابع عشر بل كان الشخص ينسب إلى أبيه) استمروا على موقفهم، وتعرضوا نتيجة ذلك للملاحقة والإضطهاد. وقد نفي فاكوم إلى سيبيريا (توبولسك) في عام 1663 ومن هناك إلى الشرق الأقصى حيث عاش عشر سنوات مع أفراد عائلته وتعرض أتباعه للملاحقة والقتل. في هذه الأثناء كان نيكون قد اختلف مع القيصر الكسي، فأعيد فاكوم إلى موسكو ثلاثة أعوام، ونتيجة لتمسكه بآرائه وخلافه مع القيصر نفي من جديد إلى الشمال (بوستوأوزيورسك) حيث سجن هناك خمسة عشر عاماً في حفرة تحت الأرض، ومن ثم أعدم حرقاً بأمر من القيصر. وقد ترك الكثير من المؤلفات ذات الطابع الإنساني والفلسفي الديني عن تجربته مع الاضطهاد، وظل يصرخ ويخطىء القيصر حتى وهو يشوى على النار.أما نيكون فقد نفي أيضاً بعد خلافه مع القيصر. لايزال أصحاب المذهب القديم يمارسون طقوسهم حتى الآن (وجودهم الرئيس في سيبيريا) وهناك نزوع الآن لإعادة توحيد الكنيسة الروسية.

هناك آراء هامة للفيلسوف الروسي بيردياييف حول هذا الإنقسام الديني يمكن الإطلاع عليها في كتاب (أصول الشيوعية الروسية وجوهرها) الصادر عن دار العلم بموسكو سنة 1990 ص 9 ـ 10 بالروسية.

52) كيروف: شخصية سياسية هامة، شغل مناصب عديدة في الحزب الشيوعي السوفياتي حتى تصفيته عام 1934م من قبل مخابرات ستالين، واستغلال مقتلة

فيما بعد لفتح باب اعتقالات وتصفيات كثيرة لغير المرغوب بهم من قبل النظام.

53» فلاح فولكولامسكي: نسبة إلى مدينة فولكولامسك وهي مدينة قديمة معروفه منذ القرن الثاني عشر تقع على نهر لاما.

54» الطنبرجي: سائق الطنبر ـ الطنبر: عربة صغيرة يجرّها حصان أو حيوان جرّ آخر.

55» الديسمبريون: مجموعة ثوار روس نظّموا في ديسمبر عام 1825 انتفاضة ضد تعسف القيصر والقيصرية.

56» كومنتيرن: (الأممية الثالثة) (1919 ـ 1943) تنظيم شيوعي بروليتاري عالمي.

57» عفو عام 1953: عفو عام شهير تم بموجبه الإفراج عن كل الجناة والمجرمين العتق أصحاب السوابق الكثيرة وزادت بذلك الجرائم بنسبة كبيرة، بينما احتفظ بالسياسيين في السجون والمعتقلات.

58» بيجوف و بيريا؟ تعاقبا على رئاسة المخابرات السوفيتية في فترة ستالين.

59» ـ فرستا: واحدة طول تعادل 1060 متراً. عند نهاية كل فرستا يوضع عمود مرقّم بالتسلسل على جانب الطريق.

60» ـ مولوخ: حسب أساطير الكتاب المقدس ـ إله كان يُحرَقُ الأطفال لكسب رضائه وهدوئه.

61» غايوس يوليوس سيزار Caesar Gaius Julius (يوليوس قيصر) (100 أو 102 ـ 44 ق.م) أول الأباطرة الرومان الإثني عشر الشهيرين. دكتاتور روما (49 ـ 44 ق.م) و أحد مؤسسي الأمبراطورية الرومانية، وهو مؤلف مذكرات وأعمال أدبية نقدية هامة. يصف في كتابه IV كل التفصيلات التقنية لبناء الجسر الروماني الشهير عبر نهر الراين المعقد جداً بتركيبه، والذي رغم ذلك بناه جنوده في عشرة أيام فقط. قتل في عام 44 ق.م من قبل أنصار الجمهورية راجع (لوسين وآخرون. الأدب القديم، موسكو، دار التنوير،، 462 1986 ص؛ ترانسفيلي غ.س. حياة الأباطرة الإثني عشر، ت. غاسباروف، موسكو، دار الحقيقة،، 510 1988 ص. بالروسية).

62» نسبة إلى الاسم الروسي السائد: إيفان إيفانوفيتش.

63 كوبانكا: قبعة دائرية من الفرو مسطحة من الأعلى ودون واقيتين للأذنين.

64» نيقولاي فاسيليفيتش غوغول (1809 - 1852): ولد الكاتب غوغول في أوكرانيا وعاش معظم حياته في بطرسبورغ وإيطاليا. يعد غوغول من أهم الكتاب الساخرين في العالم، وقد نالت أعماله: كوميديا المفتش (1836)، والمعطف (1842) شهرة عالمية واسعة. من أعماله الأخرى: سهرات في عزبة قرب ديكانكا (1831 - 1832)، أرابيسك (1835)، الرواية الشعرية» الأنفس الميتة» (التي صدر الجزء الأول منها عام 1842 بينما قام المؤلف بإحراق الجزء الثاني عام 1852)، مختارات من مراسلات الأصدقاء (1847).

65» غوليفر: بطل قصة «رحلات غوليفر» للكاتب الإنكليزي جوناثان سويفت (1667 - 1745).

الفهرس

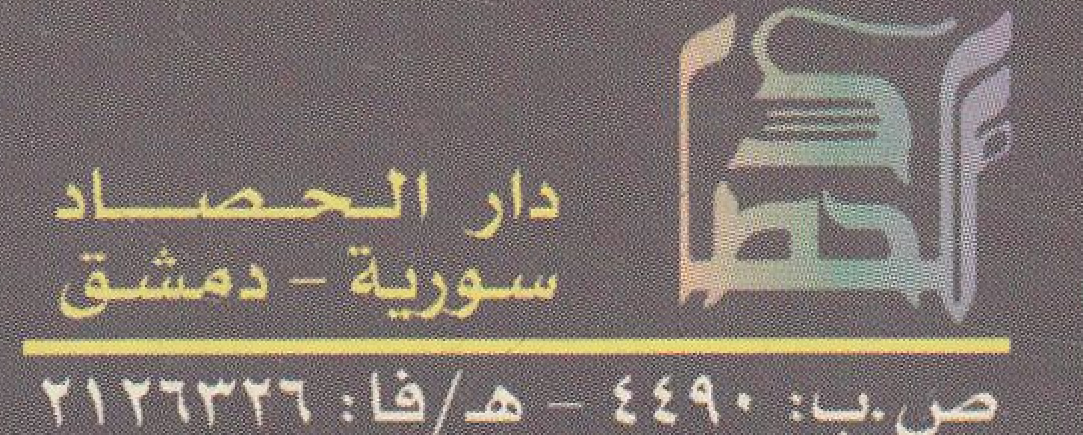
القادم من الجحيم

قد ينتابك وأنت تقرأ قصص شالاموف البكاء حيناً والضحك حيناً آخر، ويستوي الضحك والبكاء معاً حين يكون الأمر مغروزاً في مأساة الإنسان. وفي كلتا الحالتين لا يسبب لك شالاموف العجز والاستسلام للطاغية الذي يقدمه بعض الكتاب كقدر محتوم لا مفر من الخضوع له.

وإذا كان أدب بعض الكتاب ممن أبدعوا في تعرية آلة النظم القمعية نُشِر على نطاق واسع بل رُوِّج حتى في بلدان يسودها القمع والإرهاب، فذلك لما كان يحويه هذا الأدب، في جانبه الآخر من قدرة على بث الرعب واليأس في نفوس الأحرار وتجريدهم من إيمانهم بقدراتهم الذاتية على المواجهة والرفض.

وأما أدب أولئك الذين أصروا أن يحتفظوا للأحرار بإنسانيتهم وقدراتهم التي لا تقهر، بكرامتهم التي تظل مرفوعة كما فعل فلاديمير بوكوفسكي في رواية (وتعود الريح) التي هي ضحكة ساخرة لكائن جبار هو الإنسان في وجه التعذيب والتجويع والقتل، أدب هؤلاء ظل محظوراً وغالباً لم يتح له أن يرى النور إلا بعد أن غيبهم الزمن أو بعد أن غاب زمانهم.

وشالاموف وأدبه هما من هذا النوع.



دار الحصاد
سورية - دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠ - هـ/فا: ٢١٢٦٣٢٦